

دراسة

د. حسين أحمد الحسين الغزو

التغريبة الهلالية

بين الواقع التاريخي والأسطورة

التغريبة الهلالية

بين الواقع التاريخي والأسطورة

التغريبة الهلالية

بين الواقع التاريخي والأسطورة

الدكتور حسين أحمد الحسين الغزو

٢٠٢٣

• التغريبة الهلالية

بين الواقع التاريخي والأسطورة

(دراسة)

• الدكتور حسين أحمد الحسين الغزو

• الناشر: وزارة الثقافة
شارع صبحي القطب
المتفرع من شارع وصفي التل
ص. ب ٦١٤٠ - عمان - الأردن
تلفون: ٥٦٩٦٢٢١٨/٥٦٩٩٠٥٤
فاكس: ٥٦٩٦٥٩٨

Email0: info@culture.gov.jo*

•المدقق اللغوي: د. زياد أبو لبن
•الإخراج الفني: سمير اليوسف هاتف 0799677569

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2023/7/4034)

بيانات الفهرسة الأولية للكتاب:

عنوان الكتاب: التغريبة الهلالية بين الواقع التاريخي والأسطورة
تأليف : الغزو، حسين أحمد الحسين
بيانات النشر: عمان: وزارة الثقافة، 2023
رقم التصنيف: 398.358
الواصفات: : / الأحداث التاريخية/ / الروايات/ / الشعر العربي/ / القبائل العربية/ / شمال افريقيا/ /
الأدب الشعبي/

الطبعة : الأولى

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

• ردمك: ISBN 978-9957-94-931-0

فهرس الموضوعات

بسم الله الرحمن الرحيم

- **توطئة**

تُعد التغريبة الهلالية من الملاحم والسير القصصية الشعبية الرائجة في كافَّة أرجاء البلدان العربية، من شرقها إلى غربها، ومن جنوبها إلى شمالها، وتناقلتها ألسنة الرواة والشعراء شفوياً على مرّ التاريخ. وشهدت القصص المتّصلة بالتغريبة الهلالية رواجاً في المقاهي المصرية، حيث كانت الوسيلة الأساسية لتسلية رواد المقاهي، كما انتشرت قصص الهلاليين بين العامَّة في الأحياء الشعبية في مُختلف البلدان العربية، واستمرَّت في التداول والرواج لعدة قرون حتى الفترة التي سبقت انتشار أجهزة المذياع والتلفاز. وكان الرواة يزيّدون القصص ويضعون الأشعار ويختلقون أسماء أبطال وشخصيات وهمية وبطولات ومعارك في كافَّة مراحل السيرة حتى تعددت قصصها وأشعارها وتشعّبت إلى بطولات أسطورية مُختلفة، منها ما هو مُرتبط بأسماء شخصيات هلالية حقيقية، ومنها لشخصيات خرافية من نسج الخيال ابتدعها الرواة والمنشدين.

وخلال القرن التاسع عشر تنبّهت دور النشر للطلب المتزايد على القصص المتعلِّقة ببني هلال، فأغرقت الأسواق بروايات وقصص الهلاليين، وقد أضافت دور النشر بدورها العشرات من بطولات الهلاليين الأسطورية لجذب المزيد من القُراء، وبذلك فقد تضخّمت هذه السيرة، ووضعت عنها المجلدات القصصية، مثل ما يسمى «بالسيرة الهلالية» و»التغريبة الهلالية»، والعديد من القصص والروايات الأُخرى المتّصلة بهذه الروايات. وبذلك، نستطيع القول بأن الرواة قد أخذوا القالب التاريخي

الحقيقي للتغريبة الهلالية، ونسجوا عليه أساطير وخُرافات لا حصر لها حتى أُخرجت التغريبة الهلالية عن سياقها التاريخي.

ولدراسة التغريبة الهلالية من الجانب التاريخي المحض، كان لا بدّ لنا من التعريج على الدراسات التاريخية والتراجم التي بُذلت في هذا المضمار، حيث أن هناك العديد من الجهود المحمودة التي حاولت تأريخ هذه الملحمة. وتجدر الإشارة إلى أن التغريبة الهلالية لقيت إهتماماً لافتاً من قِبل العديد من المستشرقين والمؤرخين، الذين وضعوا العديد من المؤلّفات والتراجم عنها. كما اهتمّ العديد من المؤرخين في المشرق والمغرب العربي بتأريخ السيرة الهلالية. وقد اعتمدت أغلب هذه الدراسات على ما كتبه ابن خلدون (١٣٣٢م-١٤٠٦م) عن التغريبة الهلالية، إذ تبرز أهمية كتابات ابن خلدون لقربها الزمني من أحداث التغريبة الهلالية، حيث عاصر ابن خلدون أحفاد بني هلال وعايشهم في شمال افريقيا ونقل رواياته بشكل مُباشر عن ألسنتهم وما تناقلوه عن أسلافهم الهلاليين ورحلتهم من بلاد المشرق إلى المغرب. وفي زمن ابن خلدون كانت هناك صولات وجولات وصراعات بين بطون من القبائل الهلالية والإمارات الأمازيغية القائمة في تلك الآونة. كما نقل المؤرخون بعض أحداث التغريبة عن ابن الأثير (١١٦٠م-١٢٣٣م)، الذي سبق ابن خلدون بأكثر من قرن وعاصر أحداث كبيرة تتعلق ببني هلال وحروبهم في أوقات متأخرة من التغريبة. كما أورد ابن عذاري المراكشي (ت ٦٩٥ه) عِدَة نصوص تتعلّق بالهلاليين، كان أهمها كتاب «البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب»، الذي يشتمل على تاريخ المغرب الكبير، منذ بدايات الفتح الإسلامي سنة ٢٧ه إلى نهاية الصنهاجيين بإفريقيا وبداية المرابطين بالنصف الغربي. ولكن بالرغم من أهمية هذه المؤلفات، يبقى ابن خلدون المرجع الأساسي في تأريخ الهلاليين، إذ تميّزت كتاباته بسرد تفصيلي للأحداث، حيث أمعن بتأريخ معارك الهلاليين، وذلك بسبب إقامته بين أحفادهم، أمّا ابن الأثير، وهو عراقي المولد، فكان بعيداً جغرافيا عن افريقية وبلاد المغرب.

وبذلك، فقد تبنَّت المؤلفات المُعاصرة على ما جاء على لسان ابن خلدون وابن الأثير من تحليل لبعض القصص والوقائع التاريخية. كما تناولت بعض الدراسات التغريبة من الناحية الاجتماعية، كالهجرات الجماعية ومُسبباتها، في حين بحثت مؤلفات أُخرى بقصص مُجتزئة عن شخوص في التغريبة الهلالية، كقصّة الجازية، وكذلك الدراسات الأدبية للتغريبة التي وضعت مُقارنات بينها وبين الروايات الشعبية العالمية.

وهكذا، فقد وضعنا هذ المبحث كدراسة متأنّية للتغريبة الهلالية من الناحية التاريخية الصرفة في محاولة لملئ الفراغ في تأريخ هذه الهجرة الجماعية، ولنسقط ما علق بها من أساطير وخرافات على مرّ التاريخ، لكي يرقى هذا الكتاب إلى وثيقة تاريخية يُعتدّ بها، تتناول إحدى أهم الهجرات العربية والأكثر جدلية على مرّ التاريخ. ومن هذا القبيل، فقد استهلَّ المؤلف الكتاب بدراسة الأرضية التاريخية والجغرافية التي قامت عليها أحداث التغريبة، متدرّجاً في سرد الجغرافيا التي قامت عليها التغريبة، مروراً من الجزيرة العربية، فبلاد الشام، فمصر، وصولاً إلى شمال إفريقيا، ودراسة المجتمعات في شمال إفريقيا قبل قدوم الهلاليين. وبهذا، يتناول الفصل الأول تاريخ العرب في شمال افريقيا، أي تلك الحقبة التي سبقت الهجرة الهلالية هناك بعدّة قرون، وذلك لما كان للتواجد العربي القديم في تلك المناطق من أثر لتشجيع استقرار الهلاليين في الشمال الإفريقي. وبذلك، يستعرض هذا الفصل الفتوحات الإسلامية لشمال إفريقيا والصعوبات التي واجهت العرب الأوائل من قِبل السكان الأصليين – الأمازيغ، بدأً من عصر قادة الفتح الإسلامي العِظام، مثل عقبة بن نافع، زهير بن قيس، حسان بن النُعمان، وموسى بن نصير، والصراع مع الإمارات التي قامت في هذه المناطق، سواءً خلال الخلاقة الأموية أو بعدها، كإمارة تاهرت الرستمية، وإمارة الخوراج الصفرية في سجلماسة. ويتتبع هذا الفصل تاريخ تلك الإمارت التي قامت في شمال إفريقيا في إبان الخلافة العباسية وما بعدها، كإمارة الأدارسة، ودولة الأغالبة التي امتدّ نفوذها إلى تخوم اوروبا حتى سيطرت على أجزاء من ايطاليا.

كما يفرد الفصل الأول شرحاً مُفصّلاً عن الخلافة الفاطمية التي سيطرت على شمال إفريقيا ومصر وأجزاء واسعة من بلاد الشام والجزيرة العربية. وتُعدّ دراسة الخلافة الفاطمية ذات أثر بالغ في هذا المبحث نظراً للعلاقة الوثيقة التي جمعت الخلافة الفاطمية بالقبائل الهلالية، حيث شكَّلت الخلافة الفاطمية الحاضنة الأساسية لقبائل بني هلال وسليم والقبائل المتحالفة معها خلال فترة النزوح الكبير، بدءاً من تجميع هذا القبائل في صعيد مصر في عهد الخليفة الفاطمي العزيز بالله، حتى اطلاقها إلى تونس وباقي الشمال الأفريقي في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي انتقاماً من الصنهاجيين الأمازيغ بعد أن نزعوا ايديهم من الخلافة الفاطمية وإعلان تبعيتهم لبني العباس في بغداد. وبذلك، يسهب هذا الفصل في دراسة كافَّة مراحل الخلافة الفاطمية العبيدية، بدأً من مؤسسها عبيدالله المهدي وإنتهاءً بخلافة العاضد وسقوطها، بعد سيطرة صلاح الدين الأيوبي على مقاليد الحكم في القاهرة.

أما الفصول الثلاثة التالية للفصل الأول، فتبحث بالمجتمع والإمارات الأمازيغية في شمال إفريقيا، تلك الإمارات التي دارت بينها وبين القبائل الهلالية صراعات وحروب مريرة، كالقبائل والإمارات الزناتية، وكذلك الإمارت الصنهاجية بشقّيها الزيري والحمادي، إذ يبحث الفصل الثاني بالقبائل والإمارات الأمازيغية الزناتية، حيث يستهلّ هذا الفصل بلمحة عن تاريخ الأمازيغ وعلاقة الأمازيغ بعرب الفتح الإسلامي، والقبائل الزناتية الأساسية وعلاقتها بالخوارج الصفريين، وكذلك دور الزعماء اليفرنيين الزناتيين، كالقائد يعلي بن محمد اليفرني الزناتي وابنه بدوي وأبو الكمال تميم بن زيري بن يعلي الزناتي. كما يتناول هذا الفصل الشقّ الثاني من قبائل زناتة، وهي قبيلة مغراوة، قويّة الشكيمة، ودورها في تلك الحقبة، إضافة لبعض القبائل الزناتية الأُخرى. ويستطرد هذا الفصل في تناول الصراع بين الإمارات الزناتية التي كانت قائمة في تلك الفترة، كالإمارتين الزيانية والمرينية.

وفي الفصل الثالث، يبحث الكتاب بدراسة الدولة الزيزية الصنهاجية لما كان لها من أهمية في تاريخ التغريبة الهلالية، والتي كانت أول إمارة تصطدم بها القبائل الهلالية الغازية في معركة حيدران. وبالرغم أن الصراع مع بني هلال كان في فترة متأخرة من تاريخ الإمارة الزيرية، إلا أننا ارتأينا بحث هذه الإمارة بشكل مفصّل مُنذ تأسيسها على يد أميرها الأول زيري بن مناد، مروراً بعهد أبنه بلكين بن زيري، ومن ثم الصراع بين الإمارات الأمازيغية، الصنهاجية والزناتية. كما يتناول هذا الفصل حروب باديس بن المنصور مع أبناء عمومته الحماديين الصنهاجيين بعد انقاسم الإمارة الصنهاجية إلى زيرية وحمادية. ويولي هذا المبحث اهتماماً خاصّاً بشرف الدولة المعز بن باديس الصنهاجي، هذا الأمير الذي بعهده اجتاحت القبائل الهلالية تونس وبلاد المغرب وألحقت دماراً هائلاً بإمارته وقلّصتها وشتت قاطنيها. كما يتناول هذا الفصل المسببات غير المباشرة لإجتياح الهلاليين للإمارة الصنهاجية بتشجيع من الخلافة الفاطمية في القاهرة بعد أن تحوَّل المعز عن الإسماعيلية الشيعية إلى المذهب المالكي السني ونبذ بيعتة للفاطميين. كما يسترسل هذا الفصل في بحث واقع الإمارة الزيرية بعد المعز بن باديس، مروراً بعهد ابنه تميم بن المعز، ويحيى بن تميم، وصولاً لتشظي هذه الإمارة وسقوطها على يد الموحدين.

أمّا الفصل الرابع، فيبحث في تاريخ الشقّ الآخر من الأُسرة الصنهاجية، وهي الإمارة الحمّادية التي انشقَّت عن الإمارة الزيرية، كما أسلفنا، واستقلَّت في بجاية والقلعة في المغرب الأوسط (الجزائر)، ودخلت في خصومات وحروب مع الزيريين. وتبرز أهمية دراسة هذا الفصل بسبب دخول الدولة الحمادية أيضاً في حروب طاحنة مع القبائل الهلالية استمرّت لأزمان متأخرة بعد التغريبة، لا سيما في إبان فترة حُكم الأمير الحمادي الناصر بن علناس، الذي انقسم في عهده الهلاليين إلى عدّة بطون متحاربة مع بعضها بعضاً، ودخلوا كأحلاف مع الإمارات الأمازيغية المتصارعة. وفي عهد الناصر بن علناس أشدّت المعارك فتكاً، قُتل فيها الآلاف وأُحرقت المُدن ودُمّرت المنازل

ونُهبت القصور. ويتتبّع هذا الفصل نشأة الدولة الحمادية مُنذ انفصالها عن الدولة الزيرية، مُنذ عهد القائِد حمّاد وابنه محسن، ومن ثم دراسة عهد بلكين بن محمد والناصر بن علناس. ويستعرض هذا الفصل العلاقة التي ظلّت مُتأزمة بين شدٍّ وجذبٍ بين الإمارتين الصنهاجيتين، الزيرية والحمادية، ومرورهما بمحطات من الحرب والسلم. كما يبحث هذا الفصل في عهد المنصور بن علناس وحروبه مع قبائل زناتة، وفترة حكم أبنائه باديس والعزيز، وصولاً لفترة ضعف الدولة الحمادية وسقوطها في عهد آخر حكامها يحيى بن عبد العزيز. كما يُفرد المؤلف الجزء الآخير من هذا الفصل لدراسة آثار الإمارتين الزيرية والحمادية في تاريخ المغرب الأدنى والأوسط (تونس والجزائر)، وذلك لما كان لهاتين الإمارتين الأثر البارز في تشكل تاريخ تونس والجزائر.

أمّا الفصول المتبقية من الكتاب، من الفصل الخامس وحتى التاسع، فتبحث بتاريخ بني هلال وعلاقاتهم بالدول الإسلامية القائمة في تلك الفترة، كالخلافة العباسية في بغداد والفاطمية في القاهرة، وكذلك علاقة الهلاليين الوثيقة بالقرامطة، حيث أفردنا الفصل الخامس لتلك الرابطة بين الهلاليين والحركة القرمطية المارقة، كون كلّ منهما خرج من بوتقةٍ واحدة. ففي الفترة التي سبقت التغريبة الهلالية، كانت قبائل بنو هلال وسليم بمثابة الحربة الثاقبة في الجيوش القرمطية التي أقدمت على كل الموبقات التي لم يسبقهم بها أحد، كقتلهم الحجيج واقتلاع الحجر الأسود من مكانه، والإغارة على الآمنين وسلبهم. وقد تتبّعنا في هذا الفصل الحركة القرمطية مُنذ نشأتها، كأصلها وعقيدتها، وصراعها مع الخلافة الفاطيمة، وكذلك تحول القرامطة لكيان سياسي بعد إقامة دولتهم لردحٍ من الزمن في منطقة الإحساء في الجزيرة العربية، ودور الهلاليين في الحركة القرمطية. كما يتناول هذا الفصل لمحة عن القبائل الهلالية قبل التغريبة ومواطنها وعلاقاتها بالإسلام وفترة بروزها على الساحة السياسية آنئذٍ.

أمّا الفصل السادس، فيشرح التغريبة الهلالية في التاريخ بعيداً عن الأساطير والخرافات، حيث يتناول هذا الفصل بدايةً مُسببات التغريبة الهلالية، الطاردة والجاذبة منها، ومن ثم يتدرّج الفصل في تناول مراحل التغريبة الهلالية، بدءاً من علاقة الهلاليين بشريف مكّة في تلك الحقبة، شكر الشريف الموسوي، ومن ثم حشد الهلاليين وبني سليم والقبائل العربية الأُخرى المتحالفة معهم في كنف الخلافة الفاطمية في مصر، ومن ثم إطلاقهم إلى تونس وبلاد المغرب بتحريض من الفاطميين. ويواصل هذا الفصل في شرح مسارات الهلاليين بعد عبورهم النيل متوجهين غربـاً، مروراً ببرقة في ليبيا ومن ثم وصولهم إلى تونس ولقائهم المعز بن باديس الزيري الصنهاجي، الذي حاول بداية إحتواء هذا القبائل الزاحفة وضمّها إلى صفوفة في حربه مع القبائل الزناتية والإمارة الحمادية. ويبين هذا الفصل أن اواصر المصاهرة والتودد التي أبداها المعز للهلايين، لم تفلح ولم يتمكَّن من استمالتهم، فوقعت بينهم الحروب، كان أولها معركة حيدران، التي انتصر بها الهلاليون، ومن ثم واصلوا زحفهم وحاصروه في القيروان، التي استباحتها القبائل الهلالية فيما بعد. ويوضّح هذا الفصل مجريات هذه المعارك ونتائجها التي أدَّت إلى انكماش الإمارة الزيرية الصنهاجية، ويختتم هذا الفصل شرح آثار غزو بني هلال لشمال إفريقيا ومن ثم ندماجهم في فترات لاحقة مع الشعوب الأمازيغية.

وفي الفصل السابع يتناول المؤلِّف الحروب التي خاضتها القبائِل الهلالية بعد التغريبة بفترات زمنية مُختلفة، حيث تغيّرت مسيرات الحروب خلال هذه الفترة، إذ انقسمت القبائِل الهلالية على نفسها ودبّت المعارك والصراعات فيما بينها، وأخذ كلّ طرف يوالي الإمارات الأمازيغية المختلفة ويحارب مع الإمارة الموالية له ضد إمارات أمازيغية أُخرى التي بدورها متحالفة مع بطون هلالية أُخرى، إذ لم تعد الحروب خلال هذه الفترة بين الهلاليين والأمازيغ كما كان عليه الحال في بدايات التغريبة، إذ ضعفت العصبية العربية مع مرور الزمن، لكنها لم تتلاشى تمامـاً. وبذلك، يستهل هذا الفصل

اشتراك الهلاليين في حروب الإمارتين الصنهاجيتين، الحمادية والزيرية، ويُمعن هذا الفصل في شرح إحدى أكبر المعارك شِدّة التي خاضتها بطون من الهلاليين بعد التغريبة بثلاث عشرة سنة، وهي معركة سبيبة التي وقعت في سنة ١٠٦٥م ما بين الإمارة الحمّادية في عهد الأمير الحمّادي الصنهاجي القوي، الناصر بن علناس، الذي حشد الموالين له من بطون القبائل الهلالية، كالأثبج وعدي، وكذلك بعض بطون زناتة، لمواجهة الأمير تميم بن المعز بن باديس، أمير الدولة الزيرية الصنهاجية ومن تحالف معه من بطون القبائِل الهلالية الأُخرى، كرياح وزغبة وكذلك بنو سليم، بالإضافة لبعض بطون زناتة. وقد تكبّد الناصر هزيمة ماحقة بهذه المعركة وقُتل الآلاف من جيشه ومن المتحالفين معه.

كما يتناول هذا الفصل الحروب اللاحقة للهلاليين مع الزناتيين، وعلاقة الهلاليين بالإمارات الزناتية وحروبهم معها، كالإمارة الزيانية، ويورد بعض المعارك الشهيرة، كمعركة الزيبان التي وقعت بين السلطان الزياني الزناتي أبو حموا موسى الثاني والقبائل الهلالية المُتحالفه معه كقبيلة رياح وبنو عامر من زغبة ضدّ أبي زيان ومن تحالف معه من البطون الهلالية، كعرب السويد من زغبة. كما يتناول هذا الفصل ثورة سعادة الرياحي الهلالي ضدّ الدولة الزيانية، وكذلك علاقة القبائل الهلالية بالإمارة المرينية الزناتية والخلافة الموحدية في عهد الخليفة الموحدي عبدالمؤمن، الذي خاض معركة شرسة ضد بعض القبائِل الهلالية، كرياح، وزغبة، وعدي، وزغيف، والأثبج، حيث تمكَّن عبدالمؤمن من هزيمتهم، إلا أنه عاد فيما بعد وقرَّب بعض بطونهم. ويتطرَّق هذا الفصل أيضـًا إلى علاقة الهلاليين بقبائل كتامة الأمازيغية القوية، ويبحث أيضـًا في مسارات انتشار بني هلال وسيطرتهم على أطراف المدن في الجزائر وفرضهم أتاوات على القاطنين الأمازيغ في تلك المناطق، ويختتم هذا الفصل شرح علاقة الهلاليين بالدولة الحفصية، حيث اتّسمت العلاقه بينهما بين الشد والجذب.

أمّا الفصل الثامن، فيبحث في بطون القبائِل الهلالية الأساسية والبطون التي تكاثرت وتفرَّعت عنها بعد التغريبة وبعد استقرار هذه القبائل في شمال إفريقيا. ويُختتم الكتاب

في الفصل التاسع، الذي يلقي نظرة على الملحمة الشعبية للتغريبة الهلالية وكيفية نشأتها كقصائِد شفوية على ألسنة الشعراء وتاريخ تحوُّل هذه القصائِد إلى نصوص نثرية ومنشورات، وكيفية تضخيمها واختلاق قصص وروايات وبطولات وهمية بعيدة كُل البعد عن الحقيقية التاريخية. كما يستعرض هذا الفصل اهتمام المستشرقين بالتغريبة الهلالية ومحاولة تأريخها. ومن ثم يتطرَّق هذا الفصل إلى أبطال التغريبة الهلالية، في السيرة الشعبية، مثل أبو زيد الهلالي، ذياب بن غانم، حسن بن سرحان، القاضي بدير، والطوي بن مالك، ومقارنة هذه الأسماء مع ما ورد في التاريخ وعلى لسان جهابذة المؤرخين، مثل ابن الأثير، وابن خلدون، الذي عاصر أحفاد الهلاليين ونقل التاريخ عنهم، كما أسلفنا آنفاً. وفي نهاية هذا الفصل، يختتم الكتاب أثر السيرة الشعبية للتغريبة الهلالية على المجتمعات العربية.

وختاماً، أتمنى أن يلقى هذا العمل إهتماماً لدى الباحثين والمهتمين بتاريخ الجماعات والملاحم، راجياً أن يُشكِّل إضافة للمكتبات العربية، التي هي بحاجة لمزيدٍ من المؤلفات التاريخية، لا سيما تلك الكتابات التي تحاول تنقية الروايات التاريخية مما علق بها شوائب. وتجدر الإشارة بأننا لا نُقلل من أهمية السيرة الشعبية كمادة أدبية اسطورية كان يحتفي بها المنشدون والعامَّة في مُختلف المناطق العربية عبر مرّ الأزمان، وهُنا نستذكر ابن الصعيد المصري الأُستاذ عبد الرحمن الأبنودي، رحمه الله، الذي أفنى حياته في إعادة إحياء التغريبة الهلالية الشعبية، ونتمنى أن تواصل الأجيال الاهتمام بهذا الموروث الشعبي، ونسأل الله العلي القدير أن يفيد هذا الكتاب كُلّ المهتمين في التاريخ العربي.

والله ولي التوفيق

الدكتور حسين أحمد الحسين الغزو

husseinglz@yahoo.com

الفصل الأول

تاريخ العرب في شمال إفريقيا

بالرغم من التأثير الهلالي القوي على القبائل الأمازيغية في شمال إفريقيا، إلا أن التواجد العربي في شمال إفريقيا يرجع إلى سنوات طويلة سبقت التغريبة الهلالية، وهذا التواجد هو إحدى العوامل التي شجّعت القبائل الهلالية على الهجرة إلى هذه المناطق، ونتيجة لذلك كان لا بدّ لنا من إلقاء نظرة على الوجود العربي الذي سبق التغريبة الهلالية، إذ نُفرد هذا الفصل لهذا الغرض.

يرجع وجود العرب في إفريقيا عموماً إلى الفتوحات الإسلامية، بدءاً من دخول عمرو بن العاص (٥٨٠م-٦٦٤م) مُنتصراً إلى الإسكندرية في مصر سنة ٦٤٢هـ، إذ وضع نصب عينية التوسُّع في فتوحاته. وكان فتح شمال إفريقيا بالنسبة له بِمثابة امتداد طبيعي لفتح مصر، فبعد أن أخضع مصر تحت راية الخلافة الإسلامية، جعل منها القاعِدة الأساسية التي انطلقت منها الفتوحات في شمال إفريقيا، فبعث بجيوشه إلى برقة وآنطابلس، وأخضع قبيلة لوانه البربرية، ثم تقدَّمت الجيوش الإسلامية باتّجاه زويلة في الصحراء وطرابلس، وإفريقية[1]، لكن لم تستطع هذه المحاولات تحقيق أيّة فتوحات حقيقية وملموسة على أرض الواقع.

وعندما تولَّى عبد الله بن سعد بن أبي السرح (٦٤٤م-٦٥٦م) ولاية مصر، تطلَّع أيضـاً إلى إفريقيا، ففي عام ٦٤٧م/ ٢٧هـ، سيَّر حملة كان هو على رأسها، متوجهـاً من الفسطاط إلى إفريقيا، لكن فشلت هذه الحملة أيضـاً في تحقيق أهدافها. وفي عام ٦٦٦م (٤٥هـ)، سُيّرت حملة إسلامية جديدة من مصر إلى شمال إفريقيا كان على رأسها

(١) إفريقية مُسمّى شاع إبان الفتح الإسلامي على المنطقة الجُغرافية التي كانت تشمل المغرب الأدنى، تونس حاليـاً، وأجزاء من ليبيا، كإقليم طرابلس وقسنطينة في شمال غرب ليبيا، وبلاد الزاب وشرق الجزائر حاليـاً، وكان مركزها مدينة القيروان.

معاوية بن جديع السكوني، الذي عسكر في بلاد مزاق، ولكن ما لبث أن عاد أدراجه إلى مصر سنة ٦٦٧م دون أن يُحقق أيَّة انتصارات تُذكر.

وبذلك، لم تكن فتوحات الجيوش الإسلامية للشمال الإفريقي بالأمر اليسير، فلم تستطع هذه الغزوات من بناء أي كيان سياسي يُعتدّ به في تلك الحقبة أو إحكام السيطرة على المناطق التي ظلّت عُرضة للثورات والقلاقل. ويرجع سبب فشل هذه الحملات إلى جهل الفاتحين المسلمين بطبيعة الشعوب الأمازيغية وقوّتها ومقاومتها الشرسة للفاتحين العرب، وكذلك عدم الإعداد الجيّد، وبُعد المسافة التي كانت تُرهق الجيوش الإسلامية العابرة في الصحراء. وظلَّت كذلك حتى مجيء الفاتحين العظام، أمثال عقبة بن نافع، زهير بن قيس، حسان بن النعمان، وموسى بن نصير الذين أرسوا قواعد الوجود العربي هُناك.

عقبة بن نافع (٦٢٢م-٦٨٣م)

لم تستطع الغارات العربية الإسلامية على شمال إفريقيا من تحقيق فتح حقيقي كما أسلفنا، وقد استمر الوضع على تلك الحال حتى جاء القائد العسكري القرشي عقبة بن نافع، الذي قلب الموازين وتمكَّن من تحقيق انتصارات جوهرية في الشمال الإفريقي وأحرز فتحاً مؤزراً لإفريقية وأصبح والياً عليها سنة ٥٠هـ. وشهدت فترة ولايته استقراراً بعد أن أخضع القبائل الأمازيغية الثائرة، وقوي نفوذه حتى باتت تخشاه الدولة البيزنطية الذي شكَّل تهديداً على نفوذها في شمال إفريقيا.

وقد انتهج عقبة نمطاً جديداً من الحكم، حيث جمع بين العمل العسكري وبناء الدولة، ففي الوقت الذي واصل فيه تجهيز الحملات العسكرية لإخضاع بلاد مزاق خلال الفترة ٥١هـ -٥٥هـ، اهتمَّ بالبناء والعمل الدؤوب، إذ يعود له الفضل الكبير في بناء وازدهار مدينة القيروان. وفي تلك الفترة، كان والي إفريقية يخضع في كافَّة القرارات لوالي الفسطاط بمصر، والذي بدوره يخضع للخليفة الأموي في دمشق. وكان والي

الفسطاط في تلك الحقبة هو مسلمة بن مخلد[1] في عهد الخليفة الأموي مُعاوية بن أبي سفيان. فوقع خلاف بين مسلمة وعُقبة بن نافع، وذلك لعدم رغبة رضوخ الآخير لسلطة مسلمة بن مخلد بشكل كامل. وفي عام ٥٥هـ، وبعد بعد أن اشتدت البغيضة بينهما، أمر مسلمة بعزل عقبة عن إفريقية، وولاها للقائد العسكري (أبو مهاجر دينار) (ت٦٨٣م)، الذي نزل القيروان وتولَّى الإمارة لمدَّة سبع سنوات، من ٦٧٤م إلى ٦٨١م (٥٥هـ-٦٢هـ). وعُرف عن (أبو مهاجر) بأنه كان سياسياً بارعاً وقائِداً فذاً، حيث استطاع قيادة العديد من الفتوحات في المغرب الأوسط (الجزائر).

وفي عهد الخليفة الأموي يزيد بن معاوية، تم عزل (أبو مهاجر دينار) وإعادة عقبة بن نافع من جديد والٍ على إفريقية، ولكن بقي أبو مهاجر مُقرّباً من عُقبه وفي مُقدّمة جيوشه في كافَّة الحروب التي كان يخوضها.

استشهاد عقبة بن نافع

واصل عقبه حملاته في المغرب الأوسط، لكنه هذه المرّة واجه مقاومة شرسة من بعض الأمازيغ الذين تحالفوا مع البيزنطيين، بقيادة القائد الأمازيغي كسيلة بن ملزم (٦٤٠م-٦٩٩م) الذي تمرَّد على عقبة ورفض الرضوخ له. ونتيجة لحشود التحالف الخفيرة بين كسيلة والأمازيغ، لم يتمكَّن عقبة من اقتحام بلاد الزاب البربرية، كما لقي مقاومة مماثلة في تاهرت. وفي عام ٦٨٣م (٦٣هـ)، وأثناء عودته إلى إفريقية انتهز الأمازيغ وحُلفائهم البيزنطيين قِلَّة عدد أفراد حاميته، فهاجموه بجحافلٍ كبيرة على حين غرة في منطقة تهودا بنواحي بسكرة، إذ تفاجأ عقبة بهم ولم يكن بمقدوره هزيمتهم بأعداد حاميته القليلة العدد، فأستشهد مع عدد كبير من أصحابه، كان من بينهم أبو مهاجر دينار، وكانت هذه الهزيمة ضربة قاسية للفتح الإسلامي في شمال إفريقيا.

---

(١) كان مسلمة بن مخلد الوالي الأول الذي جمع له الخليفة مُعاوية بن أبي سفيان بين مصر وبلاد المغرب، حيث كان والي الفسطاط هو الذي يُعيِّن ويخلع ولاة القيروان، وإليه يعود حقّ النظر في مسيرة جيش الفتح، وبذلك لم يعترض معاوية على موقف مسلمة بعد أن عزل عقبة.

وهكذا انتهت أسطورة القائد القرشي الفذ عقبة بن نافع، الذي لم يوقفه إلا المحيط الأطلسي. وكانت أول نتائج هذه الهزيمة احتلال الأمازيغ للقيروان وطرد القادة العرب منها باتجاه المشرق، بالرغم من بقاء مجموعات عربية آثرت البقاء، بعد أن أعطاهم القائد كسيلة[1] الأمان. وكان كسيلة يطمح لتأسيس دولة أمازيغية، فذاع صيته وعلا شأنه بعد انتصاره على عقبه وإنهاء الحكم العربي في إفريقية، فاجتمع البربر عليه.

زهير بن قيس (ت٦٩٥م)

في عام ٦٥هـ، آلت الخلافة الأموية لعبد الملك بن مروان، الّذي نصَّب أخاه عبد العزيز بن مروان والياً على مصر، الذي كان يطمح لفتح إفريقية من جديد. ففي سنة ٦٩هـ، سيّر حملة لفتح إفريقية جعل قيادتها لــ زهير بن قيس، القائد السابق لعقبة بن نافع، فعسكر زهير على مقربة من القيروان لمدَّة ثلاثة أيام دون أن يدخلها، وكان كسيلة قد تحصَّن هو الآخر في منطقة تدعى ممس، والتي تبعد حوالي ٥٠ كيلو متراً عن القيروان. وكان غرض زهير هو القضاء أولاً على كسيلة، حيث كان يعرف في قرارة نفسه أنه لن يستتب له الأمر في القيروان طالما كسيلة على قيد الحياة. وهذا ما حصل، فقد تحوَّل زهير عن القيروان دون أن يدخلها، واتّجه بجيوشه إلى ممس، حيث تمكّن من هزيمة كسيلة ومن معه، وقُتل كسيلة بهذا المعركة التي كانت بمثابة الثائر لمقتل عقبة بن نافع.

حسّان بن النُعمان (ت ٧٠٥م/٨٦هـ)

بقيت إفريقية عُرضة للثورات الأمازيغية وعدم الاستقرار في إبان الخلافة الفاطمية. فبعد أن انتهى عبد الملك بن مروان من القضاء على ابن الزبير، تفرَّغ لمحاولة معالجة

---

(١) كان كسيلة قد أعلن إسلامه في عهد ولاية (أبو مهاجر دينار) وعاونه على شؤون الولاية، إلا أنه عاد وتحالف مع قبائل الأمازيغ والبيزنطيين بعد عودة عُقبة بن نافع إلى الولاية نتيجة لخصومات قديمة بينهما.

مشاكل إفريقية وتثبيت تبعيتها للدولة الأموية، فعهد بهذه المُهمة لأحد كبار قادته من أشراف الشام وسليل الغساسنة، هو حسان بن النُعمان، الذي أُعتبر فيما بعد بالصانع الحقيقي لفتح إفريقية بعد عُقبة بن نافع.

ففي عام ٧٥هـ، سار حسَّان على رأس جيش عرمرم كان قوامة قرابة أربعين ألف مُقاتل، واستغرقت مسيرته عاماً كاملاً، حيث وصل إفريقية في عام ٧٦هـ/ ٦٩٥م. وفور وصوله، حاصر قرطاج التي كانت في تلك الفترة عاصمة ولاية إفريقية الرومانية، وبعد مفاوضات مع البيزنطيين، دخل المدينة، لكنه عاد وانسحب منها بعد فترة من الزمن، وبقي يتعقَّب البيزنطيين ويقاتلهم وكل من يتحالف معهم من الأمازيغ.

وفي تلك الفترة قويت شوكة الأمازيغ بعد أن تجسَّدت آمالهم على قيادة قويّة تزعمتها أرملة ملك قبيلة جراوة من جبال الأوراس، «دِهيا بنت طاجيتا بن ديفان»، المعروفة بالكاهِنة، التي تمكَّنت من التغلُّب على الجيوش العربية الإسلامية في أكثر من موقع، وأصبحت الشُغل الشاغِل لحسّان بن النعمان، الَّذي وضع نصب عينيه هدف القضاء عليها، إذ كان يرى أنه لا يُمكن تأسيس ولاية مُستقرّة في إفريقية ما لم يتم القضاء على الكاهنة واستئصال شأفتها. ولكن في حقيقة الأمر لم يكن القضاء عليها بالأمر اليسير، فقد تحصّنت بالجبال، وأخذت تُغير على القوات الإسلامية وتوقع بهم خسائر كبيرة، ففي سنة ٧٦-٧٧هـ، أوقعت هزيمة ماحقة بجيوش حسان، وطاردتهم إلى حدود أبواب قابس، بعد أن قتلت وأسرت أعداداً كبيرة منهم، واضطرَّ حسان للتراجع إلى برقة، وظلّ يواجه ضربات الكاهنة من وقتٍ لآخر طيلة أربع سنوات.

وفي عام ٦٩٩م/ ٨٠هـ، وبعد أن عزز حسّان من قواته واستراتيجيته الحربية، عاد إلى إفريقية، ودخل قابس وقفصة وقسطيلة التي استسلمت دون معارك تُذكر، ثم توجَّه إلى قرطاج وحاصرها حتى سقطت في يده. وفي العام التالي (٧٠٠م/ ٨١هـ)، تمكَّن حسان أخيراً من الإيقاع بالكاهنة والقضاء عليها، وكان ذلك بمثابة تحوّلاً جوهرياً، والذي كان يُعني القضاء على أكبر مقاومة من جانب الأمازيغ، وكذلك انتهاء الوجود الروماني

في إفريقية. بعد هذه الانتصارات، توالت أعداد الأمازيغ الذين اعتنقوا الإسلام، وأصبح البعض منهم قادة أساسيين لهم أكبر الفضل في تحقيق الانتصارات الإسلامية فيما بعد.

موسى بن نصير (٦٤٠م/١٩هـ-٧١٦م/٩٧هـ)

بعدما تولَّى عبد العزيز بن مروان على مصر نشب خلاف بينه وبين حسّان بن النعمان بسبب مطالبة عبد العزيز من حسان زيادة الضرائب، وهذا ما لم يجد قبولاً لدى حسان، مما أدّى إلى خلعه عن ولاية إفريقية، ليولّي بدلاً منه القائد المتمرِّس موسى بن نُصير، الذي كان صنيعة عبد العزيز. وبعد خروج حسّان سنة ٧٠٣م/ ٨٥هـ، ظهرت هُناك بعض حركات المُقاومة من جانب الأمازيغ، لكن موسى بن نصير تمكَّن من إعادة الاستقرار على عموم إفريقية.

وبعد وفاة عبد العزيز بن مروان سنة ٧٠٥م/ ٨٦هـ، ولَّى الخليفة عبد الملك بن مروان والٍ جديد على مصر، هو ابنه عبد الله بن عبد الملك بن مروان، وكان شاباً لم يتجاوز السابعة والعشرين من العمر، فاستخف موسى به وصعب عليه أن يكون تابعاً له، وبذلك أخذ موسى بتوجيه البريد مُباشرة إلى الخليفة في دمشق، متجاوزاً بذلك والي الفسطاط الجديد، الَّذي احتج على هذا التجاوز، ولكن بدون جدوى. وبذلك، أصبحت إفريقية منذ ذلك الوقت ولاية تابعة مُباشرة للخلافة في دمشق. ونتيجةً لحنكته السياسية، تمكَّن موسى من إحكام الاستقرار في إفريقية طوال فترة ولايته التي استمرَّت اثنتي عشر سنة (٨٤هـ-٩٦هـ).

وبعد وفاة الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان سنة ٧٠٥م/ ٨٦هـ، تولى ابنه الوليد بن عبد الملك الخلافة، لذا واصل سياسة والده في المُحافظة على الولاة التقليديين للخلافة الأموية، فأقرَّ ولاية موسى بن نُصير على إفريقية، الذي استمر في الولاية طيلة حكم الوليد. ولكن بعد وفاة الوليد، آلت الخلافة لأخيه سليمان، الذي كان على عداء مرير مع موسى بن نصير. فبعد تولية سليمان مقاليد الخلافة أضمر على الانتقام من بعض الولاة بمن فيهما موسى بن نصير، ففي سنة ٩٦هـ، وهي السنة نفسها التي تولى

بها سليمان الخلافة، أرسل خطاباً لموسى يدعوه للقدوم إلى دمشق والمثول بين يديه، وبعد أن قدم موسى تم الإيقاع به وبأُسرته وكُل المُقربين منه، فقد وجَّه الخليفة له تُهم الاستيلاء على مبلغ مقداره ثلاثمائة ألف دينار، وأجبره على إرجاع هذا المبلغ، وزج به في السجن، وولّى مكانه على إفريقية محمد بن يزيد القرشي. وعندما وصل الوالي الجديد محمد بن يزيد إلى القيروان، فتك بالموالين لموسى وأقربائه، وأمر بإعدام ابنه عبد الله، واستمرت ولايته لثلاث سنوات حتى عام ٧١٩م/ ٩٩هـ.

بعد ذلك عمد الولاة المتتابعون على إفريقية طيلة عشر سنوات بالعمل على تصفية تأثير موسى بن نصير، ولكنهم لم ينجحوا إلا بقدر ضئيل. وهكذا عرفت إفريقية اثنين وعشرين والياً، منهم من كانوا كِباراً، مثل موسى بن نصير، وحنظلة بن صفوان (١٢٤هـ-١٢٩هـ)، وعبد الرحمن بن حبيب (١٢٩هـ-١٣٧هـ)، وخاصَّة المهلبي يزيد بن حاتم (١٥٥هـ-١٧٠هـ) - الذي أقام عهد سلم وإصلاح. كما شهدت إفريقية خلال العهد الأموي صراعات بين العرب أنفسهم نتيجةً للعصبيات بين القيسية واليمنية، فقد وجدت الأغلبية اليمنية صعوبات في التفاهم مع الولاة القيسيين، مما أثَّر سلباً على الاستقرار في إفريقية. ونجح اليمانيون فيما بعد بإنهاء مهام عبيدة بن عبد الرحمن السلمي (١١٠هـ-١١٤هـ) لمبالغته في تمييز القيسيين بشكل صريح، حيث عزله الخليفة هشام بن عبد الملك (٧١هـ-١٢٥هـ) وولى بدلاً منه عبيدالله بن الحباب السلولي. وفيما بعد، أصبحت سياسة الخلافة تجاه إفريقية وبلدان المغرب ترتكز على إحلال التوازن بين القيسيين واليمانيين، وقد تجلّى ذلك في تعيين الولاة بالتداول بين الطرفين.

نهاية تبعية إفريقية للخلافة الأموية

في السنوات الآخيرة من ولاية الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، بدأ الضعف ينخر في جسد الخلافة الأموية، ومرَّ العالم الإسلامي في تلك الآونة بأزمات خطيرة شملت العديد من الولايات الإسلامية، التي عصفت بها الثورات والقلاقل وخرجت

العديد منها من تحت عباءة الخلافة الأموية، لا سيما إفريقية التي أصبحت تبعيتها للخلافة الإسلامية شبه اسمية بسبب ضعف الخلافة الأموية التي أخذت بالتداعي، ولبعدها الجغرافي عن مركز الخلافة في دمشق. ففي إفريقية اشتعلت الثورات الأمازيغية من جديد وقُتل عامِل الخليفة كلثوم بن عياض القشيري (ت ٧٤١م)، حيث أرسل الخليفة هشام قائده المُحنّك مروان بن محمد (٦٩١م/ ٧٢هـ-٧٥٠م/ ١٣٢هـ)، والذي أصبح خليفة فيما بعد، لإخماد هذه الثورات، ولكنها سرعان ما تأججت من جديد.

إفريقية في عهد الفهريين

بعد ذلك خضعت إفريقية لحكم الفهريين (١٢٧هـ-١٤٠هـ)، ففي عام ١٢٧هـ، استولى عليها عبد الرحمن بن حبيب الفهري (ت ٧٥٥م/ ١٣٧هـ)، ولكنه لم يقطع صلته الإسمية بالخلافة الأموية، واستخدم الغلظة والبطش لقمع الكثير من الثورات لتحقيق الاستقرار. وبعد مقتل آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد، الذي تجلَّد في محاولاته لإنقاذ الدولة الاموية من السقوط، انهارت الخلافة الأموية بشكل دموي سنة ٧٥٠م/ ١٣٢هـ على يد بني العباس. عند ذلك أصبح والي إفريقية عبد الرحمن في حلٍّ من أي تعهدات تجاه الأمويين، وأعلن استقلال إمارته بشكل كامل. وبعد أن وطَّدت الخلافة العباسية الجديدة أركانها، عيَّن الخليفة العباسي في بغداد أبا العباس السفاح (٧٢١م/ ١٠٤هـ-٧٥٤م/ ١٣٦هـ) سنة ١٣٣هـ/ ٧٥٤م عمّه صالح بن علي والياً على مصر وفلسطين وإفريقيه، والّذي حمّله مُهمّة غزو بلاد المغرب وإفريقية لإخضاعها تحت الخلافة العباسية، لكن موت (أبو العباس السفاح) المُفاجئ ومجيء أخيه إلى الخلافة، أبو جعفر المنصور (٧١٤م/ ٩٥هـ-٧٧٥م/ ١٥٨هـ)، الذي عُرف بدهائه وفطنته ورجاحة عقله، غيَّر من خطط عمّه صالح بن علي، الذي كان سفاكاً ومتهوراً، وأمره بإيقاف هذه الحملة. وبالرغم من توقُّف هذه الحملة، إلا أن عبد الرحمن بن حبيب رجع عن قراره في الاستقلال، ورأى أن من الأسلم له الاعتراف بتبعية إمارته

للخلافة العباسية العتيدة، ومع تجبُّر الخلافة العباسية الفتيّة وتدخلها المُباشِر في شؤون إمارته، جعلته يُعيد حساباته ليُعلِن استقلال إمارته علن الدولة العباسية.

وما لبثت أن عمّت الفوضى إفريقية فيما بعد نتيجية للصراع على الحكم، ففي سنة ١٣٧هـ، ثار إلياس وعبدالوراث، أخوي عبد الرحمن، عليه بسبب الخلاف على ولاية العهد، وفعلاً تمكّنا من الإيقاع به وقتله، وتولَّى بعده الياس شؤون الإمارة. وبسبب هذه الحادثة المريرة، دخلت إفريقية من جديد في دوّامة من الفوضى والثورات العارِمة؛ بسب الحروب، حيث نهض حبيب بن عبد الرحمن للثأر لمقتل أبيه من أعمامه، وفعلاً تمكَّن حبيب من قتل عمّه إلياس في عام ١٣٨هـ، أمّا عمّه عبد الوارث فقد فرَّ ولجأ إلى عاصم بن جميل الوربجومي، زعيم قبيلة وربجومة الأمازيغية، الذي كان كاهناً يدّعي النبوّة، فأجاره. ولم يكتفِ حبيب من هروب عبد الوارث، فقد سار على رأس جيش لمقاتلة عمّه عبد الوارث وعاصم بن جميل، إلا أنّهم هزموه شرَّ هزيمة، فهرب وتحصَّن في قابس. وتوجَّه عاصم إلى القيروان فدخلها واستباحها وخرَّب مساجدها واستهانها، ومن ثم لحق بحبيب إلى قابس، فلجأ حبيب هذه المرَّة إلى جبل أوراس، فأجاره أهالي هذه المنطقة، وقاتلوا عاصم وهزموه. ولكن عادت قبيلة وربجومة من جديد واستولت على الحكم، وقام بأمر القيروان عبد الملك بن أبي الجعد، الذي تمكَّن من قتل حبيب بن عبد الرحمن، وسار بأهل القيروان بالعسف والظلم، حتى فرَّ الناس من الخوف.

أبو الخطّاب (ت ٧٦١م/١٤٤هـ)

في تلك الحقبة تزعَّم نواحي طرابلس عبدالأعلى بن السمح المعافري الحميري اليمني، الذي عُرف باسم «أبو الخطاب»، الذي كان قائداً متمرساً ومن علماء اليمن على المذهب الأباضي. فقد أنكر الظلم الذي ألحقه عبد الملك بن أبي الجعد في القيروان وأهلها، فبيَّت له وتوعّده، وعندما علم عبد الملك بنواياه، أراد مُباغتته والقضاء عليه، فخرج في جنده لقتاله، فلقيه أبو الخطاب في الطريق واشتبك معه،

وألحق بعبدالملك وجنده هزيمةً ماحقة، وأثخن بهم وتبعهم إلى القيروان فملكها وأخرج قبيلة وربجومة منها، واستخلف عليها عبد الرحمن بن رستم (ت ٧٨٨م)، الساعد الأيمن لأبي الخطاب، وكان سياسيًا بارعًا، والذي تمكَّن فيما بعد من تأسيس الإمارة الرستمية الأباضية في شمال إفريقيا كما سنأتي على شرحه بهذا الفصل. وأثناء ولايته على القيروان التي دامت أربع سنوات، من عام ١٤٠هـ حتى ١٤٤هـ، نجح أبو الخطاب في السيطرة على الأمور وتحقيق الأمن والاستقرار والاستقلال بإفريقية ومقاومة العباسيين.

إمارة تاهرت الرستمية (٧٧٦م-٩٠٩م)

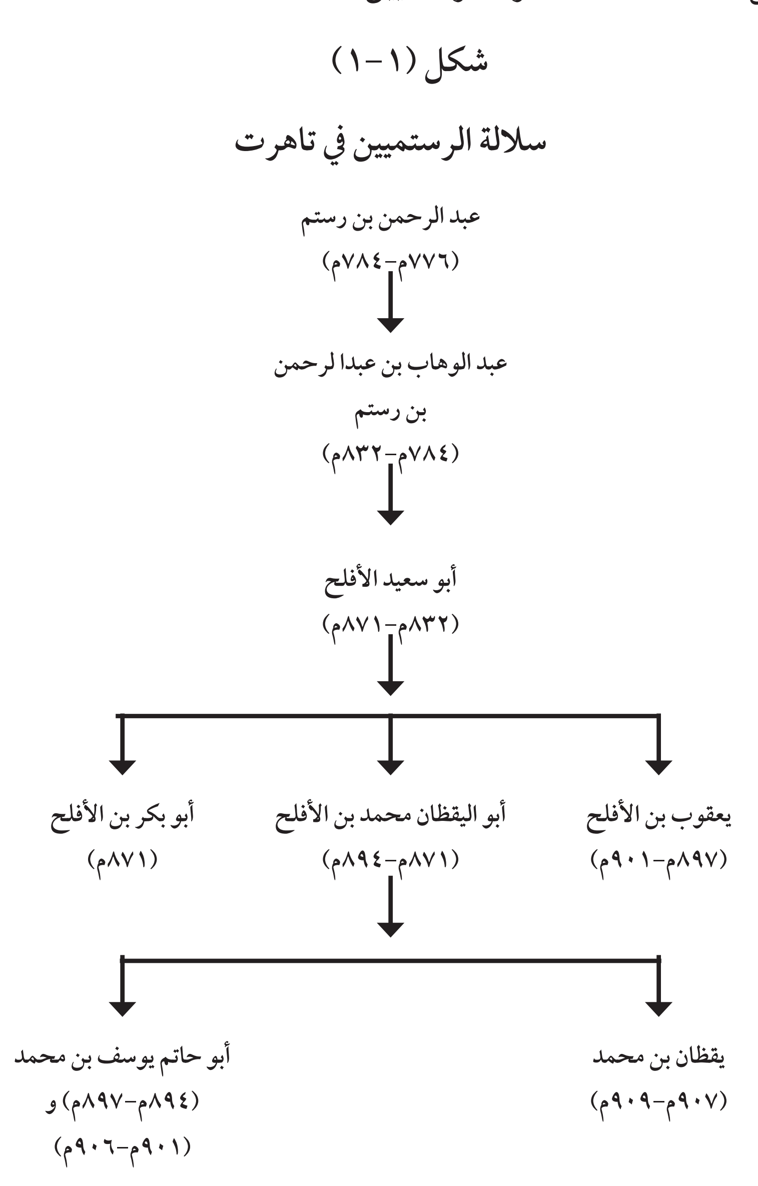
نشأت إمارة تاهرت من ضمن الإمارات الأُخرى في شمال إفريقيا التي عُرفت بالخوارج الصفرية، وتمكَّنت من تكوين إمارتين في المغرب الأوسط، واحدة بتلمسان والأُخرى بسجلماسة. وكانت حركة الخوارج قد ظهرت في بلاد المغرب الإسلامي في الثلث الأول من القرن الثاني الهجري، الثامن الميلادي على يد مجموعة من المغاربة انتقلوا للمشرق وتتلمذوا على يد عُلماء المذهب، وكان من بينهم عبد الرحمن بن رستم، ومن ثم عادوا للمغرب، وقاموا بنشر مذاهبهم داخل مضارب القبائل الأمازيعية، وتحريض الأمازيغ على معارضة النظم السياسية القائمة في تلك الفترة، وولاة إفريقية في عهد الأمويين ثم العباسيين، حيث رأى الخوارج أن هذه الأنظمة لم تُطبِّق الشريعة الإسلامية بالشكل الذي كانوا يرنون إليه.

ويُعد عبد الرحمن بن رستم المؤسس الفعلي للدولة الرستيمة، كما ذكرنا، وقد اختلف المؤرخون في نسبه، فمنهم من رأى أنه من أبناء رستم، القائد الفارسي في معركة القادسية، فيما ينسبه آخرون إلى موالي الخليفة الراشد عثمان بن عفان. وقد تأسست الدولة الرستمية بعد فرار عبد الرحمن بن رستم من القيروان إلى تاهرت بالمغرب الأوسط بعدما طارده الأغالبة العباسيين. وكان عبد الرحمن عالمًا، وذا مكانة عالية في قومة، فبعد أن أقام في تاهرت، توافد علية العلماء وبايعوه إمامًا سنة ٧٧٦م/ ١٦٢هـ.

وبعدها امتدّت الإمارة الرستمية الأباضية إلى أجزاء من المغرب الأوسط، وطرابلس ومنطقة الجريد، واتخذت تاهرت عاصمةً لها، وامتدّ حكمها حتى قيام الدولة الفاطمية. وتزعَّم الإمارة الرستمية عبر تاريخها الذي استمر ١٣٣ سنة تسعة أُمراء، بدءاً بـ عبد الرحمن بن رستم سنة ٧٧٦م وانتهاءً بـ يقظان بن محمد بن أبي اليقظان بن أفلح، ويُبين الشكل (١-١) سلالة الأمراء الرستميين.

شكل (١-١)

سلالة الرستميين في تاهرت



إمارة سجلماسة الصفرية

تُعد إمارة سجلماسة إحدى الإمارات التي أقامها الخوارج الصفرية كدولة مُستقلَّة على أرض المغرب، كما ذكرنا، وكان لهذه الإمارة دور كبير كمحطّة تجارية نحو إفريقية، وكانت أيضاً ملجأ لعبيدالله المهدي مؤسس الخلافة الفاطمية. مؤسس هذه الدولة هو أبو القاسم سمكو بن واسول المدراري الصفري، وهو من سلالة أمازيغية إسلامية. أمّا أول حاكم فعلي لها، فهو عيسى بن يزيد الأسود، الذي حكم من سنة ٧٥٧م حتى ٧٧٢م، وكان أسمر البشرة. وفيما بعد ثار عليه الناس وقتلوه، وخلفه الزعيم الروحي أبو القاسم سمكو، وبذلك حكمت الدولة المدرارية قرابة قرنين من الزمان، حتى قُتل آخر أُمرائها اليسع بن ميمون على يد عبيدالله المهدي، مؤسس الدولة الفاطمية.

العودة العبّاسية إلى إفريقية (٧٦١-٧٧١م/ ١٤٤-١٥٥هـ)

بقيت إفريقية عُرضة للقلاقل والتمرُّد خلال الحقبة العباسية، حيث كانت تبعيتها للخلافة العباسية شبه اسمية؛ بسبب بعدها عن مقر الخلافة في بغداد، وهكذا كانت شبه إمارة مُستقلّة بالرغم من سعي الخلفاء العباسيين المتعاقبين على توطيد تبعيتها للخلافة، فقد أظهر الخليفة العباسي القوي أبو جعفر المنصور والخلفاء العباسيون من بعده إرادة فولاذية لاسترجاع بلاد المغرب بقيادة محمد بن الأشعث الخزاعي (ت١٤٩هـ)، الذي كان قائداً مغواراً عارفاً بأمور الحكم والسياسة والدهاء، وكانت مهمته في بلاد المغرب هي القضاء على عبدالرحمن بن رستم وباقي الإمارات التي خضعت بأيدي الخوارج الصفريين. وفعلاً تمكّن ابن الأشعث من دخول القيروان سنة ١٤٤هـ، كأول قائد عباسي يدخل القيروان، وعمل على تطوير المدينة، ففي سنة ١٤٥هـ أمر بتحصين القيروان من خلال بناء سور من طوب سمكه عشرة أذرع، والقضاء على التمرد وتحقيق انتصارات كبيرة على الخوارج الصفرية. وكانت ولايته

قصيرة على القيروان لم تتجاوز الأربع سنوات؛ بسبب تمرّد الجند وغضبهم عليه، ففي عام ١٤٨هـ، أُجبر على ترك ولايته والعودة للمشرق، وبعد رحيله، سُمي الأغلب بن سالم بن عقال التميمي (ت ١٥٠هـ) على الولاية، والذي التحق بالزاب لمواصلة قتال الخوارج الصفرية.

وبالرغم من الجهود الحثيثة التي بذلتها الخلافة العباسية لإخضاع إفريقية، إلا أنها بقيت عرضة للقلاقل والتمرُّد وخروجها بين الفينة والأخرى من تحت سلطة الخلافة العباسية، حتى أوكلها العباسيون للمهلبيين، الذين تداولوا على حُكمها لأكثر من ربع قرن، وذلك لمعرفة الخلفاء العباسيين بقدرة المهلبيين كقادة عسكريين مشهود لهم في تثبيت قوام الخلافة الإسلامية خلال الحقبة الأموية والعباسية، وكان للمهلبيين خبرة طويلة في خوض الحروب ضد الخوارج تحديداً. وكان أول الولاة المهلبيين على إفريقية هو عمرو بن حفص بن قبيصة المهلبي (ت ٧٧١م)، الذي عيَّنه الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، الذي رأى فيه أنه الأنسب لمثل هذه المُهمّات بعد نجاحه الباهر في اخضاع بلاد السند. وفعلاً سار بن قبيصة على رأس جيش قوامه خمسمائة فارس فقط، إلا أنه تمكَّن من إعادة فتح القيروان سنة ١٥١هـ، وأصبح واليـًا عليها، وأقام في القيروان ثلاث سنين وأشهراً، وشهدت فترته استقراراً. بعد ذلك سار إلى الزاب لمقاتلة الخوارج الصفرية على رأس جيش قوامه خمسة عشر ألف وخمسمائة، واستخلف مكانه على القيروان حبيب بن حبيب بن الهلب، لكن الخوارج تمكّنوا من بن القبيصة بعد أن جمعوا جيوشـًا كبيرة قوامها أكثر من أربعين ألفـًا، فهزموه، ومن ثم لحقوه وحاصروه بالقيروان، وتمكّنوا من قتله، وهكذا سقطت القيروان من جديد بأيدي الخوارج.

بعد هذه التطورات، أرسل الخليفة المنصور أيضـًا قائداً آخر من المهلبيين، هو يزيد بن حاتم (ت ١٧٠هـ) من أحفاد المهلب بن أبي صفرة، وكان قائداً مُتمرسـًا وداهية في الحروب. وأعد يزيد جيشـًا عرمرمـًا قوامه ستون ألفـًا، وسار فيه إلى القيروان،

واستطاع دحر الخوارج واسترجاع القيروان، وذلك في عام ١٥٥هـ/ ٧٧١م، ونتيجة لهذا النصر المؤزّر لجيش يزيد، أقرّه الخليفة المنصور على ولاية إفريقية له ولأحفاده من بعده.

وبذلك، دامت الولاية المهلبية على إفريقية زُهاء ربع قرن، من عام ٧٧١م/ ١٥٥هـ إلى ٧٩٧م/ ١٧٧هـ، حكمَ فيها يزيد لمدة خمسة عشر عاماً، وشهدت فترة ولايته استقراراً كبيراً، حيث عمَّ الأمن في كافة مناطق إفريقية. وبعد موت يزيد، حلَّ مكانه ابنه داوود بن يزيد، ولكن فترة حكمه لم تدم سوى تسعة أشهر، حيث حل مكانه روح بن حاتم، وذلك في عام ١٧١هـ. وبعد موت روح هذا، عيّن الخليفة العباسي هارون الرشيد نصر بن حبيب المهلبي، الذي كان أحد قادة يزيد بن حاتم المهلبي أثناء ولايته على مصر، فحكم نصر لمدّة عامين، وشهدت فترة حكمه استقراراً. وفيما بعد، أمر هارون الرشيد بعزله، وتولية إفريقية للفضل بن روح بن حاتم المهلبي. وفي عام ١٧٨هـ، ثار جند إفريقية بقيادة عبد الله بن الجارود الربعي، الذي عُرف باسم «عبد ربه الأنباري» على الوالي الفضل بن روح، فدخل القيروان، وسحق الوالي وجيشه، مُنهياً بذلك حكم المهلبيين للقيروان.

دولة الأغالبة (٨٠٠م-٩٠٩م)

دولة الأغالبة من بين أشهر الإمـارات التي قامت في الشمال الإفريقي، فخلال تاريخ هذه الدولة طيلة القرن التاسع وأوائل العاشر الميلادي بلغت أوج مجدها، حيث امتدَّت لمناطق جغرافية شاسعة من شرق الجزائر ومنطة الزّاب وتونس الحالية وطرابلس وغرب ليبيا إلى أطراف ايطاليا وصقلية وسردانية وقرقشة ومالطة.

يرجع الفضل في تأسيس دولة الأغالبة إلى القائد العباسي الأغلب بن سالم بن عقال التميمي (ت ٧٦٧م/ ١٥٠هـ)، وابنه إبراهيم بن الأغلب (٧٥٦م-٨١٢م) الذي كان له دور بارز في القضاء على الاضطرابات في أواخر القرن الثاني الهجري. فبعد تولّى إفريقية ابن العكّمي، أساء السيرة وخفَّض الأُعطيات، مما أدّى إلى تمرّد الجند

عليه في عام ١٨٣هـ بقيادة تمام بن تميم، الذي تمكَّن من التغلُّب على الوالي ودخول القيروان. عند ذلك تدخَّل إبراهيم بن الأغلب، قائد جيش الزاب لصالح ابن العكّمي، واستطاع قهر الثوار وإعادة الاستقرار إلى القيروان، ونتيجة لموقف إبراهيم وموالاته للسلطة الشرعية والخلافة العباسية في بغداد، فقد حُظي بتأييد من الخليفة العباسي هارون الرشيد، الذي نصّبة والٍ على إفريقية سنة ٧٨٧م، وفعلاً تمكَّن من القضاء على الثورات، وتحقيق الاستقرار، وبناء دولة قويّة.

ومع تراجع سيطرة الخلافة العباسية على شمال إفريقيا، أعلن إبراهيم بن الأغلب في سنة ٨٠٠م الاستقلال التام عن الخلافة العباسية في بغداد. وبعد وفاته سنة ٨١٢م/ ١٩٦هـ تولّى الإمارة ابنه عبد الله أبو العباس، ولكنه لم يسر على نهج والده، فقد كرهه الناس لتجبّره ولإرهاقهم بالمكوس. توفي عبد الله في سنة ٢٠٢ه، وتولَّى الحكم بعده أخوه زيادة الله بن إبراهيم (٨١٧م-٨٣٨م)، وشهدت الدولة في عهده استقراراً كبيراً، فقد قضى على الثورات، وعم الرخاء والازدهار.

وهكذا توالى على حُكم دولة الأغالبة أحد عشر أميراً، كان آخرهم زيادة الله الثالث (٩٠٣م/ ٢٩٠هـ-٩٠٩م/ ٢٩٦هـ)، الذي كان حبيساً في عهد والده عبد الله الثاني (٩٠٢م-٩٠٣م) الذي سبقه في الحكم. فبعد مقتل والده، الذي كان عابداً مُتقشّفًا، على يد غلمانه، أخذ زيادة الله البيعة لنفسه، واستهل عهده بالظلم والقتل، فأراق الدماء، ونكَّل بأعمامه وإخوته، وفي عهده، بدأت الخلافة الفاطمية العتيدة تُحقق انتصارات وقضم أراضٍ من دولة الأغالبة شيئًا فشيئًا، حتى تمكَّنت من انهائها سنة ٩٠٩م، وضم كافّة أراضيها.

الإمارة الإدريسية (٧٨٨م-٩٧٤م)

تُعد الدولة الإدريسية ذات أهمية قصوى في تاريخ بلاد المغرب، وتُنسب إلى الإمام إدريس الأول (٧٤٣م-٧٩٣م)، الذي يرجع نسبه إلى الهاشميين من آل البيت، فهو إذاً، إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنَّى بن الحسن السبط بن الإمام علي

بن أبي طالب كرَّم الله وجهه، الّذي حلَّ بالمغرب الأقصى عام ١٧٠هـ بعد المذبحة الرهيبة التي ارتكبها العباسيون بحق الهاشميين سنة ٧٨٦م، وفرار إدريس إلى منطقة وليلي بالمغرب. وبما أن نسبه يعود لآل البيت، فقد أجمع عُلية الأمازيغ وبايعوه لقيام أوَّل دولة بالمغرب ذات تبعية لآل البيت، ولكنها لم تكن دولة شيعية بالمعنى المذهبي. وقد توسّعت حدودها حتى بلغت نواحي تلمسان، وانتهج الإمام إدريس العدل في الحكم، وتوسَّع في العمران، وله الفضل الأبرز في بناء مدينة فاس.

وفي عام ٧٩٣م، أُستشهد إدريس الأول بمؤامرة أُتُّهِم بحبكِ خيوطها الخليفة العباسي هارون الرشيد، وتولَّى الإمامه بعده ابنه إدريس الثاني (٧٩٣م-٨٢٨م)، حيث شهد عصره رخاء وتوسُّعاً في البناء. ولكن بعد مجيء محمد بن إدريس الثاني، المُلقَّب بـ إدريس الثالث (٨٢٨م-٨٣٦م)، بدأت الدولة تشهد انقسامات كبيرة، فقام إدريس الثالث بنفسه بتقسم البلاد بين إخوته إلى تسع دول، نتج عن ذلك وقوع حروب وصراعات بين الأخوة، مما أضعف دولة الأدارسة، وتمكَّن الأمويون في الأندلس من دحرها، وكانت نهايتها على يد الفاطميين بعد قيام الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب، التي أسقطت كافَّة الإمارات في شمال إفريقيا بما في ذلك حُكم الأدارسة.

الدولة الفاطمية (٩٠٩م-١١٧١م)

تُعد الدولة الفاطمية من أكبر الكيانات السياسية تأثيراً في شمال إفريقيا، فقد كان لها الأثر البالغ في تكرّيس الوجود العربي هُناك. وفي إطار بحثنا في التغريبة الهلالية إلى إفريقيا وبلاد المغرب، كان لا بدّ من إلقاء نظرة خاصَّة على الخلافة الفاطمية العبيدية الشيعية، لدورها البارز في احتضان الهلاليين، وفي الصراع مع الحكم الصنهاجي في شمال إفريقيا، وتقويض أركانه من قبل القبائل الهلالية، بدعم وتفويض من الدولة الفاطمية، فقد احتضنت الدولة الفاطمية القبائل الهلالية في أوج قوتها خلال العصر الفاطمي الأول، أمّا في العصر الفاطمي الثاني، فقد انكفأت على نفسها، وشهدت ضعفاً شديداً أدّى لسقوطها في نهاية المطاف.

العصر الفاطمي الأول

اتّسم العصر الفاطمي الأول بالقوّة والتوسُّع وفتح بُلدان جديدة، حيث شهدت هذه الفترة أقصى توسُّع للخلافة الفاطمية، بدأت مُنذ ولادتها على يد مؤسسها عبيدالله المهدي في بدايات القرن العاشر الميلادي حتى وفاة الخليفة المُستنصر بالله في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، ليبدأ بعد ذلك العصر الفاطمي الثاني، الذي اتّسم بضعف الخلافة الفاطمية، وصولاً لسقوطها بعد موت آخر الخُلفاء الفاطميين، العاضد لدين الله.

عبيدالله المهدي (٩٠٩م-٩٣٤م)

قامت الدولة الفاطمية على يد مؤسسها وأول خليفه لها، هو الإمام عبيدالله المهدي، الذي يُعتبر الإمام الحادي عشر عند الشيعة الإسماعيلية. وكان عبيدالله قد نسَّب نفسه إلى فاطمة الزهراء، رضي الله عنها، بالرغم من دحض كثير من المؤرخين لهذا الزعم، مثل ابن حزم والسيوطي، الذين أنكروا نسبه إلى آل البيت جملةً وتفصيلاً. ونتيجة لزعم عبيدالله الثاني نسبه لفاطمة الزهراء، رضي الله عنها، جاء تسمية دولته بالخلافة الفاطمية.

ويرجع تاريخ توطئة عبيدالله المهدي لتأسيس الدولة الفاطمية إلى بدايات القرن العاشر الميلادي، ففي سنة ٩٠٥م/ ٢٩٢هـ، خرج عبيدالله من موطنه في «سليمة» بالقرب من حمص في الشام مُهاجِراً إلى المغرب، حيث وصل إلى سجلماسة، وأقام فيها مُتخّفياً في زي تاجر، وكان سبب خروجه هذا لتقوية الدعوة إلى المذهب الشيعي الإسماعيلي، وذلك بعد نجاح داعيته عبيدالله الشيعي (ت ٩١١م/ ٢٩٨هـ) في استمالة أعداد كبيرة في شمال إفريقيا لهذا المذهب.

فبعد أن جمع عبيدالله المهدي أعداداً غفيرة من المؤمنين بدعوته، قويت شوكته، وأعلن نفسه إمامـًا، وسرعان ما تداعت له مناطق عديدة بشكلٍ متسارع، فقد خضعت

له رقادة بكامِلها والقيروان، واختطَّ مدينة المهدية وجعلها عاصمةً لدولته، ومن ثم أنشأ مدينة زويلة، وأخذ اسمه يُذكر على المنابر في كافة المناطق الخاضعة له كخليفة للمسلمين. وفي سنة ٩١١م/ ٢٩٨هـ، تخلّص من داعيته عبيدالله الشيعي نتيجةً لخلاف بينهما على الزعامة، وفي شهر آذار عام ٩٣٤م توفي عبيدالله المهدي بعد أن تمكَّن من وضع الأسس لقيام الخلافة الفاطمية وأزدهارها.

القائم بأمر الله (٨٩٣م-٩٤٦م)

بعد وفاة عبيدالله المهدي، خلفه على الحكم ابنه محمد بن عبيدالله، المُلقَّب بالقائِم بأمر الله، والذي حكم لمدة عقد من الزمان، من عام ٩٣٤م وحتى ٩٤٥م، ويُعد القائم بأمر الله الإمام الثاني عشر عند الشيعة الإسماعيلية. وخلال فترة حكمه، حاول القائم التوسُّع في دولته باتجاه مصر التي كانت تحت حكم الإخشيد (٩٣٥م-٩٤٦م) في تلك الفترة، لكنه لم يستطع التمكُّن من اقتحامها، وتعرّض لهزيمة ماحقة، وفي سنة ٩٤٥م توفي القائم، وخلفه ابنه نصر الله.

نصر الله (٩١٣م-٩٥٢م)

عندما توفي القائم بأمر الله، خلفه على الحكم ابنه المنصور أبي طاهر إسماعيل، المُلقَّب بـ نصر الله، والذي حكم خلال الفترة ٩٤٥م-٩٥٢م، وهو الإمام الثالث عشر في سلسلة الأئمة الإسماعيلية. وخلال فترة حكمه التي بلغت سبع سنوات، شيَّد مدينة المنصورية على اسمه، بالقرب من القيروان، والتي أصبحت عاصمة الدولة الفاطمية خلال الفترة ٩٤٦م-٩٧٥م، توفي نصر الله في عام ٩٥٢م.

المعز لدين الله (٩٣٢م-٩٧٥م)

بعد وفاة نصر الله، خلفه ابنه معد بن المنصور (أبو تميم)، المُلقَّب بـــ المُعز لدين الله، وكانت فترة حكمه التي امتدت لأكثر من عقدين (٩٥٢م-٩٧٥م) من بين

أطول فترات الحكم في الدولة الفاطمية، ويُعد المعز لدين الله الإمام الرابع عشر عند الإسماعيلية. وفي عهده، توسَّعت الدولة الفاطمية، إذ استولت على مصر، فقد تمكَّن قائد جيوش الفاطميين، جوهر الصقلي[1] انتزاعها من أيدي العباسيين في السادس من تموز عام ٩٦٩م (١٧ شعبان ٣٥٨هـ) بعد أن أعطى الأمان للمصريين، وانقطعت بذلك الخطبة فيها عن الخلافة العباسية في بغداد، وتحوَّلت إلى الخلافة الفاطمية في شمال إفريقيا. ويُعد ضم مصر تحوّلاً جذرياً في تاريخ الفاطميين، حيث كانت مصر محطّ أنظار الدولة الفاطمية مُنذ قيامها، وبهذا النصر المؤزَّر قرر المُعز نقل حاضرة مُلكه إلى القاهرة.

ففي الخامس من آب عام ٩٧٢م (٢١ شوال ٣٦١هـ)، خرج المعز بأمواله من عاصمته المنصورية في إفريقية (تونس) إلى حاضرة مُلكه الجديدة في القاهرة، بعد أن استخلف مكانه بلقين بن زيري (ت ٩٨٤م). وصل المُعز إلى القاهرة في السابع من رمضان عام ٣٦٢هـ، ومُنذ ذلك الحين، أصبحت القاهرة حاضرة الخلافة الفاطمية، وأصبح المعز أول خليفة فاطمي في مصر.

وبانتقال مقرّ الخلافة إلى القاهرة، قويت شوكة الدولة الفاطمية، وأصبحت مركزاً لنشر المذهب الإسماعيلي على نطاق واسع، فبعث المُعز بحملات عسكرية إلى مناطق عديدة بقيادة قائده المُظفَّر جوهر الصقلي لإخضاع القبائل المُتمردة في المغرب، كما وصلت جيوشه إلى الأندلس وتخوم ايطاليا، وأسهم المعز في إلحاق الهزائم بالقرامطة وإبعادهم إلى شرق الجزيرة العربية، بعيداً عن مكَّه المُكرَّمة وجوارها.

---

(١) جوهر الصقلي(٩٢٨م-٩٩٢م): هو أبي الحسن جوهر بن عبد الله، ويُكنَّى بـ جوهر الرومي. كان جوهر أشهر القادة الفاطميين قاطبةً، وله الفضل في توطيد أركان الخلافة الفاطمية في مصر وفي بلاد المغرب والحجاز والشام، فهو المؤسس الحقيقي لمدينة القاهرة الفاطمية وباني جامع الأزهر، وفي سنة ٣٦٨هـ، تمكَّن من إستعادة الشام من البويهيين والقرامطة.

أبو منصور نزار العزيز بالله (٩٥٥م-٩٩٦م)

بعد وفاة الخليفة الفاطمي المُعز لدين الله سنة ٩٧٥م/ ٣٦٥هـ، تولَّى الخلافة ابنه العزيز باللّه، والذي يُعد الخليفة الفاطمي الخامس والإمام الخامس عشر عند الإسماعيلية، حيث شهد عصره إنجازات عسكرية وغزوات قادها جوهر الصقلي. ففي عهده، شنَّ جوهر حملات عسكرية على القرامطة في الشام والعراق، وضمَّ الموصل وحماة وحمص إلى الخلافة الفاطمية، واتّسم عصر العزيز باللّه بالرخاء، حيث أرسى دعائم الدولة الفاطمية حتى بلغت أقصى اتّساع لها، فقد رتَّب الدواوين، وأغدق الأموال، وكان من أكثر الخُلفاء الفاطميين تسامُحاً مع الطوائف الأُخرى، فقد استحدث مناصب الوزراء للطوائف المسيحية واليهودية، كما نوَّع من تركيبة الجيش بحيث لم تعد تقتصر فقط على الأمازيغ، بل ضمَّ أعداداً كبيرة من التُرك والسودان. توفي العزيز بالله سنة ٩٩٦م/ ٣٨٦هـ.

الحاكم بأمر اللّه (٩٨٥م-١٠٢٠م)

بعد وفاة العزيز، خلفه ابنه المنصور، أبو علي، المُلقَّب بـــ الحاكم بأمر الله، وتولَّى عرش الخلافة بتاريخ ١٩ تشرين الأول عام ٩٩٦م، وكان وقتها طفلاً لم يتجاوز أحد عشر عاماً، وهو الخليفة الفاطمي السادس، والإمام السادس عشر في سلسلة أئمة الشيعة الإسماعيلية. وقد اتّسمت فترة خلافته بكثيرٍ من القلاقل والتوتُّر مع الدولة العباسية والقرامطة، ففي السنوات الأولى من حكمه، وبسبب صغر سنه، استأثر بالحكم أبو محمد بن عمّار (ت١٠٠٠م/ ٣٩٠هـ)، أمين الدولة وشيخ كتامة، وكذلك كبير الخدم أبو الفتوح برجوان (ت١٠٠٠م/ ٣٩٠ه)، حتى أصبح الخليفة إلعوبة بأيديهم، ولكن عندما بلغ الحاكم سن الرشد وعرف دسائسهم، انقلب عليهم، وقتل برجوان وتخلَّص من حاشيته ورجاله، واستبدلهم برجالٍ مخلصين له دون سواه، واستطاع إعادة زمام الخلافة بشكل قوي وحازم.

ويُعدّ الحاكم بأمر الله من أكثر الخُلفاء الفاطميين غموضاً وإثارةً للجدل، فقد اتّسمت شخصيته بالتقلُّب الشديد، ففي بدايات حكمه، أظهر التعبُّد والتقشُّف، فقد حرَّم زراعة العنب لكي لا تُستخدم في صِناعة الخمور، وأعتق كثيراً من العبيد والجواري، كما تحوَّل إلى إرتداء الملابس الخشنة، وأمر بأن لا يُصلّى عليه في المُراسلات، وأن تقتصر صياغة المراسلات على النحو التالي: «سلام الله وتحياته ونوامى بركاته على أمير المؤمنين». كما أغدق الأموال على الفقراء، وكافح الفساد واهتم بالعلم والثقافة، ومن شِدّة تواضعه وتقشّفه أنه كان لا يمتطي الجياد الأصيلة، بل عُرف عنه أنه كان يطوف ليلاً على حماره ليتفقَّد أحوال الرعيّة.

وفي المُقابِل، روي عنه بعض الغرائب، كتحريمه أكل نبتة الملوخية، وإسرافه في الإضطهاد والقتل، ولم تقتصر غرابة الحاكم في حياته، بل في مماته أيضاً، حيث اختفى بعد أن خرج ذات ليلة يطوف على حماره، ولم يعد بعدها، كما لم يُعثر له على جسد، وهناك من يرى أن ثِمة مؤامرة حُبكت ضدّه من قِبل أُخته ست المُلك.

وقد أفرز عهد الحاكم بأمر الله ولادة الدعوة الدرزية (التوحيدية)، التي قدّست الحاكم بأمر الله على يد الداعية حمزة بن علي الزوزني (٩٨٥م-١٠٢١م)، المُلقَّب بـ «هادي المُستجيبين»، وقد انتشر مذهب الدروز في بلاد الشام، وصولاً إلى الهند، وإيران، وأفغانستان.

الظاهر لإعزاز دين الله (١٠٠٥م-١٠٣٦م)

بعد اختفاء الحاكم بأمر الله في عام ١٠٢٠م، تولَّى الخلافة ابنه أبو الحسن علي، المُلقَّب بـالظاهر لإعزاز دين الله، حيث أصبح الخليفة الفاطمي السابع، والإمام السابع عشر عند الإسماعيلية، ويروي المقريزي أن عمّته ست الملك (٩٧٠م-١٠٢٣م) هي التي خلعت عليه لقب الظاهر لإعزاز دين الله بعد أن ألبسته تاج المُعز لدين الله، وهي من ساندته في الحكم والعدل في الرعيّة والجُند.

وقد اتّسمت فترة حكمه بكثيرٍ من القلاقل والثورات، وأصاب الخلافة الفاطمية في تلك الحقبة الوهن، فخرج عليه صالح بن مرداس الكلابي (ت ١٠٢٩م)، المُلقَّب بـ «أسد الدولة»، واستولى على حلب بعد أن تغلَّب على عامِل الخليفة الفاطمي هُناك، مُرتضى الدولة منصور بن لؤلؤة الجراحي، غلام أبي الفضائل بن سعد الدولة نصر بن سيف الدولة الحمداني. فأرسل إليه الفاطميون جيشاً بقيادة القائد العسكري الفاطمي أنوشتكين الديزباي (ت١٠٤٢م)، أمير دمشق، حيث تمكّنت الجيوش الفاطمية من هزيمته وقتل صالح عند بحيرة طبرية سنة ١٠٢٩م/ ٤١٩ه، وحُمل رأسه إلى القاهرة.

ثم تغلَّب حسان بن المفرج بن دغفل البدوي (ت ١٠١٣م) صاحب الرملة على مناطق كثيرة في بلاد الشام، وفي سنة ٤١٥هـ، توفّت ست الملك عمّة الخليفة، مما أفقد الخلافة أحد رموزها ومدبري أمورها. وفي مُنتصف شعبان سنة ٤٢٧هـ، توفي الظاهر ببستان خارج القاهرة، وخلفه ابنه معد المستنصر الفاطمي، وكانت هذه الحوادث في تلك الحقبة توطئة لبداية ضعف الخلافة الفاطمية وشيخوختها.

المستنصر باللّه الفاطمي (١٠٢٩م-١٠٩٤م)

بعد وفاة الظاهر لإعزاز دين الله، تقلَّد منصب الخلافة ابنه معد بن الظاهر (أبو علي)، الملقَّب بــ المستنصر باللّه، والذي يُعد الخليفة الفاطمي الثامن، والإمام الثامن عشر عند الإسماعيلية، واعتلى عرش الخلافة يوم الثالث عشر من حزيران عام ١٠٣٦م، وكان حينها صبياً لم يتجاوز عمره ثمانِ سنوات. وفي بداية حكمه، تولّى وزيره المتمرِّس نجيب الدولة أبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائي (ت ١٠٤٥م) إدارة الدولة، وحافظ على الاستقرار، وعمَّ الرخاء في تلك السنوات. وكانت الخلافة الفاطمية في تلك الفترة تشمل مصر وشمال إفريقيا والحجاز وبلاد الشام وصقلية. وفي عهده، نجح الفاطميون في استمالة أحد قادة العباسيين في بغداد - حاضرة الخلافة العباسية، هو المملوك التركي أبي الحارث أرسلان البساسيري (ت ١٠٦٠م)، الذي

ثار على الخليفة العباسي وفتح بغداد للجيوش الفاطمية، فتم الإستيلاء على بغداد وإقامة الخطبة للمستنصر الفاطمي لمدة عام كامل، وذلك في عام ١٠٥٨م/ ٤٥٠هـ، ولكن استطاع القائد السلجوقي طغرل بك فيما بعد من إنها تبعية بغداد للدولة الفاطمية، وإعادة الخليفة العباسي لمنصبه.

ولم تستمر سنوات الرخاء لخلافة المستنصر طويلاً، فقد بدأت بوادر الضعف تنخر في جسد الدولة الفاطمية، وما لبثت مصر أن دخلت في شِدّة ومُعاناة نتيجةً لنقص مياه النيل، مما تسبب بمجاعات وتفشّي الأوبئة، واستمر هذا الحال من سنة ١٠٦٥م إلى ١٠٧١م، أخذت حينها الدولة الفاطمية بالتداعي، حيث فقدت عدّة بلدان وأقاليم، وتمرَّد الوزير أبو القاسم نجيب الدولة علي بن أحمد الجرجرائي، الّذي كان يضمر العداء للفاطميين، وذلك لما في نفسه من شزر مُنذ أن أمر الخليفة الفاطمي الأسبق الحاكم بأمر الله في سنة ٤٠٤هـ بقطع يديه من المرفقين لخيانته في أمور الديوان، ولكنه لم يظهر هذا الغيض طيلة تلك السنوات.

وفي سنة ١٠٧٠م/ ٤٦٢هـ، خرجت مكَّة والمدينة من يد الدولة الفاطمية، وقُطعت الخطبة للمستنصر، وخُطِب للخليفة العباسي أبو جعفر عبدالله القائم بأمر الله (١٠٣١م/ ٤٢٢هـ-١٠٧٥م/ ٤٦٧هـ)، كما خرجت الشام وصقلية وطرابلس وبيت المقدس والرملة، وفُقدت أغلب البُلدان التي كانت تُسيطر عليها الخلافة الفاطمية، وأصبحت تقتصر على مصر فقط، حتى كادت مصر هي الأُخرى أن تخرج من يد الخليفة المستنصر لولا أنه استنجد بواليه المملوكي القوي على عكا، بدر الدين الجمالي (١٠١٥م-١٠٩٤م) بعد أن استقدمه الخليفة إلى القاهرة في سنة ١٠٧٣م وجعله وزيراً له. وفعلاً، تمكَّن بدر الدين من إعادة الأمن والاستقرار لحاضرة الخلافة الفاطمية، فأعاد بِناء القاهرة وحقق الكثير من الإصلاحات والإنجازات في الجيش وإدارة الدولة. وبعد وفاة بدر الدين الجمالي، عهد المستنصر بالوزارة لابن الجمالي،

الأفضل أبو القاسم شاهنشاه (١٠٦٦م-١١٢١م)، وذلك عرفاناً بإنجازات والده للخلافة الفاطمية.

ثم ما لبث أن توفي الخليفة المستنصر في التاسع والعشرين من كانون الثاني عام ١٠٩٤م، وكانت وفاته بعد فترة وجيزة من وفاة وزيره بدر الدين الجمالي، وبذلك، كانت فترة خلافة المُستنصر، هي الأطول في العصر الفاطمي، حيث استمرّت ستين عاماً، من عام ١٠٣٥م/ ٤٢٧هـ إلى ١٠٩٤م/ ٤٨٧هـ، وفي عهده تداعت الخلافة الفاطمية، وفقدت أغلب البُلدان التي كانت تسيطر عليها، وأصبحت تقتصر على مصر فقط، كما ذكرنا سابقاً.

العصر الفاطمي الثاني

بعد وفاة المستنصر، احتدم النزاع بين ابنائه على الخليفة الجديد، الذي سيحل مكانه على عرش الخلافة الفاطمية، وانقسم الأمراء والقادة في ولائهم بين الأخوين المتخاصمين، فهناك من رأى أحقّية الخلاقة لابنه الأصغر، أحمد المستعلي باللّه (١٠٧٤م-١١٠١م)، وفي المُقابِل انحاز آخرون إلى ابنه الأكبر أبي منصور نزار المصطفى لدين الله (١٠٤٥م-١٠٩٥م)، ونتيجة لهذا النزاع على السلطة بين الأخوين، انقسم المذهب الإسماعيلي على نفسه إلى «إسماعيلية مُستعلية»، التي تؤيّد الأخ الأصغر أحمد المستعلي باللّه، و»إسماعيلية نزارية»، المؤيِّدة للأخ الأكبر، نزار المصطفى لدين الله. وبسبب دعم الوزير الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي، حُسم أمر الخلافة لصالح الأخ الأصغر، حيث قام الوزير بإقصاء أكبر أبناء المستنصر، وتعيين الابن الأصغر على سُدّة الخلافة. وقد أطلق المؤرخون على الحقبة التي بدأت بوفاة المستنصر، وتولية المستعلي باللّه، بالعصر الفاطمي الثاني، التي امتدَّت مُنذ تولّي الخليفة المستعلي باللّه وحتى نهاية الخلافة الفاطمية بموت آخر الخلفاء الفاطميين، العاضد لدين الله. وقد شهدت هذه الفترة ضُعف الخلافة الفاطمية، وتوالت هزائمها، لا سيما أن هذه الفترة شهدت بداية الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي.

وخلال هذه الفترة، استأثر الوزراء بالحكم الفعلي، وهيمنوا على مقاليد الحكم. ومما عزز من هيمنتهم هو صغر سن الخلفاء الفاطميين عند توليتهم الحكم، إذ كان أغلبهم أطفالاً دون سن الرشد، حيث وجد الوزراء من ذلك مسوغةً للإستئثار بالحكم، فأصبح لهم اليد الطولى في الحُكم والسياسة وفي شن الحروب وعقد المُعاهدات والأحلاف، وكان لهذا الإستئثار بالحكم دون الخليفة الشرعي الأثر الأكبر في انتشار الظُلم والفساد والاستيلاء على المال العام من قِبل الوزراء والمتنفذين، مما أدّى في نهاية المطاف إلى الانهيار التدريجي في الخلافة الفاطمية، حتى سقطت نهائياً في عهد العاضد، آخر الخلفاء الفاطميين.

الخليفة المستعلي باللّه

هو أبو القاسم المستعلي باللّه أحمد بن معد بن الظاهر بن علي بن منصور، تاسع الخُلفاء الفاطميين، والإمام التاسع عشر عند الإسماعيلية المُستعلية، بويع بالخلافة في الثالث من كانون الثاني عام ١٠٩٥م/ ٤٨٧هـ، وبعد مبايعته ثار أخوه الأكبر نزار وأنصاره بقيادة حسن بن علي بن محمد الصباح الحميري، المعروف بـــ حسن الصبّاح، شيخ الجبل (١٠٣٧م/ ٤٣٠هـ-١١٢٤م/ ٥١٨هـ). ولجأ نزار وحسن الصباح وحلفائهم من القادة والجنود إلى الإسكندرية، إلا أن الوزير الأفضل لحق بهم على رأس جيش خفير واستطاع محاصرتهم وهزمهم، بعد أن وقع نزار في الأسر، وظل حبيساً إلى أن توفي في السجن سنة ١٠٩٧م نتيجة التعذيب والقهر. أمّا حسن الصبّاح، فقد تمكَّن من الفرار شرقاً، وأسس طائفة إسماعيلية جديدة، عُرفت بطائفِة الحشاشين.

وفي بداية عهد المُستعلي، أحرز الوزير الأفضل بعض الانتصارات، فبالإضافة لتمكين الاستقرار والتغلُّب على نزار وحسن الصبّاح، استعاد أيضاً بعض المناطق من السلاجقة وضمَّها من جديد إلى الدولة الفاطمية، بما في ذلك القدس التي كانت الدولة الفاطمية قد فقدتها سنة ١٠٧٦م بيد السلاجقة الأتراك. ولكن بالرغم من هذه

الانتصارات، فسُرعان ما تعرَّضت الخلافة الفاطمية في عهد المُستعلي لهزائم مُتلاحقة نتيجة استفحال أمر الصليبيين، فسقطت عِدّة أقاليم تابعة للخلافة الفاطمية بأيديهم، وفي اليوم الخامس عشر من تموز عام ١٠٩٩م، وفي إبان الحملة الصليبية الأولى، انتزع الصليبيون القدس من الفاطميين، وفي سنة ١١٠١م/ ٤٩٥هـ، توفي المُستعلي باللّه في القاهرة بعد حُكم دام سبع سنوات، وخلفه ابنه الآمر بأحكام الله.

الآمر بأحكام الله (١٠٩٦م-١١٣٠م)

هو أبو علي منصور بن أحمد، تولَّى الخلافة عام ١١٠١م/ ٤٩٥هـ بعد وفاة والده المستعلي باللّه، وكان وقتها طفلاً لم يتجاوز عمره خمس سنوات، وهو يُعد الخليفة الفاطمي العاشر والإمام العشرين عند الإسماعيلية المُستعلية. ونتيجةً لصغر سنّه، فقد واصل وزيره الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي الإدارة الفعلية للدولة، ولكن عندما أصبح الخليفة شاباً انقلب على وزيره وأمر بقتله، وعيّن مكانه الوزير المأمون البطائحي (ت ١١٢٥م).

وفي عهد الآمر بأحكام الله، عظم أمر الفرنجة، فانتزعوا عِدّة مناطق استراتيجية من الدولة الفاطمية، ففي عام ١١٠٣م سقطت عكا، وتبعتها طرابلس في عام ١١٠٨م، ومن ثم عسقلان في عام ١١١٠م، ومناطق أُخرى، كبيروت وصيدا وصور. قُتل الآمِر بأحكام الله سنة ١١٣٠م/ ٥٢٤ه، وتولَّى الحكم بعده ابن عمه الحافظ لدين الله.

الحافظ لدين الله (١٠٧٦م-١١٤٩م)

هو أبو الميمون عبد المجيد بن الأمير محمد بن الخليفة المستنصر باللّه معد بن الظاهر علي، تولَّى الحكم وعمره ٥٧ سنة، والحافظ هو ابن عم الخليفة الآمر بأحكام الله. فعندما قُتل الآمر، عمِد كبار غلمان الآمِر، العادِل برغش وهزار الملوك جوامرد، إلى الأمير عبد المجيد كونه كان أكبر أقرباء الخليفة سناً، وأبلغوه بوصيّة الآمر بأن تعهد

الخلافة لابن له كان في بطن أُمه، وأن كفالته له، فقبل عبد المجيد أن يتولى الخلافة على أن يكون كفيلاً لابن الآمِر، إلا أن الحافظ لم يفِ بوعده. وفي عهده استقوى الوزراء على الحكم، ودامت فترة حكمه عشرين عاماً، من عام ١١٣٠م/ ٥٢٤هـ إلى ١١٤٩م/ ٥٤٤هـ.

الظاهر بأمر الله (١١٣٢م-١١٥٤م)

هو اسماعيل بن عبد المجيد بن محمد بن علي، ويُكنَّى بأبي منصور، تولَّى الخلافة بعد وفاة والده الحافظ سنة ١١٤٩م، وكان عمره سبعة عشر عاماً. وفي عهده ضعفت الدولة الفاطمية، وتجبَّر الولاة على الخليفة، وجعل الظاهر من نجم الدين أبي الفتح سليم بن محمد بن مصال (ت ١١٥٠م/ ٥٤٤هـ) وزيراً له، لكن هذا التنصيب أزعج والي الإسكندرية، علي بن إسحاق بن السلار الكردي (ت ٥٨٤ه)، فتوجَّه إلى القاهرة وأجبر نجم الدين على التخلي عن الوزارة ليحلَّ مكانه. ونتيجة لذلك، ثار بن مصال، الذي جمع الأعراب الهلاليين[1] من حوله، ونشبت هُناك عِدّة معارك بينه وبين بن السلار، لكن الغلبة كانت للآخير، حيث قُتل بن مصال، وأصبح بن السلار الآمر الناهي في الخلافة الفاطمية، وأصبحت سُلطة الخليقة شبه اسمية، لا تتعدّى الدُعاء له على المنابِر.

وبالرغم من استحواذ الوزير ابن السلار على السلطة، إلا انه أسهم في حماية الخلافة الفاطمية من الأخطار المُحدقة بها، فقد أرسل الجنود إلى الثغور لحماية البلاد من خطر الفرنجه، وكانت نهاية ابن السلار على يد قائد جند الخلافة ركن الدين

(١) يبدو جليّاً أن أقطاب الدولة الفاطمية اعتمدت على القبائل العربية والهلالية في حروبها ما بعد التغربية الهلالية، فنجد على سبيل المثال كيف جمع بن مصال القبائل العربية والهلالية من السودان، وما تبقّى منها في مصر تحت قيادة بدر بن رافع في حربه ضد ابن السلار، كما اعتمد ابن السلار في استقرار الأمن على ربيبه المُظفَّر وقائد جنده أبي منصور ركن الدين عباس بن أبي الفتوح بن يحيى بن تميم بن المُعز بن باديس، سليل الأسرة الزيرية الصنهاجية التي حكمت إفريقية ردحاً من الزمن، والتي كانت لها حروب مريرة مع القبائل الهلالية، والتي نتناولها بالتفصيل في الفصول القادمة من هذا الكتاب. وكان ركن الدين هذا مُنكباً على لذاته ونزواته، وعلى النقيض من أسلافه.

عباس الصنهاجي، فعندما أجبر ابن السلار ركن الدين قيادة الجنود والبقاء في الثغور، حاول ركن الدين التملُّص من ذلك، كونه كان يُحبّذ البقاء في القاهرة والتمتّع بملذاته ونزواته، وما كان منه إلا أن تآمر على التخلُّص من ابن السلار، ودبّر ذلك مع ابنه نصر وأسامة بن منقذ (١٠٩٥م/ ٤٨٨هـ-١١٨٨م/ ٥٨٤هـ)، وتم فعلاً قتل ابن السلار، وعاد ركن الدين عباس إلى الوزارة بعد أن خلعها عليه الخليفة. وفيما بعد تآمر ركن الدين وابنه نصر على قتل الخليفة نفسه نتيجةً لإعتراض الخليفة على بعض ممارساته، وفعلاً نجحا في حبك المؤامرة، وقُتل الخليفة الظاهر على يد نصر، وعمره لم يكن يتجاوز وقتئذٍ ٢٢ سنة، بعد أن حكم لمدّة خمس سنوات، من عام ١١٤٩م/ ٥٤٤هـ إلى ١١٥٤م/ ٥٤٩هـ.

الفائز بنصر الله (١١٤٩م-١١٦٠م)

هو عيسى بن اسماعيل بن عبد المجيد بن محمد بن علي، تولَّى الحكم بعد مقتل أبيه الخليفة الظاهر في عام ١١٥٤م، وهو طفل لم يتجاوز عمره خمس سنوات، وتجبّر الوزير ركن الدين عبّاس وابنه نصر في الخلافة وشؤونها. ونتيجةً لذلك، نقم الأُمراء والأجناد على الوزير عباس وابنه، فأرسلوا إلى والي منية أبي الخصيب في صعيد مصر، طلائع بن رزيك (١١٠٢م-١١٦١م) يستنجدونه من إستفحال أمر الوزير عباس في الخلافة وظلمه وتجبّره. وكان طلائع، المُلقَّب بـ (أبو الغارات) أحد أمراء المماليك الأرمنيين المرموقين في الخلافة الفاطمية، وكان فارساً بارعاً وشاعراً فصيحاً، وعُرف عنه الأمانة والصلاح والموالاة للفاطميين. وفِعلاً، استجاب طلائع لنجدتهم، فجهّز جيشاً كبيراً وسار به إلى القاهره، فدخلها بعد أن فرّ الوزير عباس وابنه نصر وأسامة بن مُنقذ، لكن تم إلقاء القبض على الوزير عباس وصلبه. عند ذلك، خلع الخليفة الوزارة على طلائع، ولُقِّب بالملك الصالح، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يُلقَّب فيها الوزير بالملك. وتدبَّر طلائع أحوال الدولة وحقق العدل والمساواة،

وأعاد تثبيت الدولة الفاطمية ونشر مذهبها الشيعي الإسماعيلي في عموم مصر، على الرغم أنه كان على المذهب الشيعي الإثنى عشري.

توفي الخليفة الفائز وهو طفل، لم يتجاوز عمره أحد عشر عاماً، وكانت فترة خلافته ست سنوات، بين عاميّ ١١٥٤م/ ٥٤٩هـ و١١٦٠م/ ٥٥٥هـ، وكونه توفي وهو طفلاً صغيراً دون سن الحلم، فلم يكن له ولي عهد يخلفه.

العاضد لدين الله (١١٥١م-١١٧١م)

بعد موت الخليفة الفائِز، اختار الوزير طلائع خليفة جديد هو الأمير عبد الله بن الأمير يوسف بن الخليفة الحافظ لدين الله بن عبد المجيد بن محمد بن معد بن علي، ويُكنّى بأبي محمد، وهو أخو الخليفة الظاهر بأمر الله، وآخر الخلفاء الفاطميين. تُوِّج العاضد وهو طفل لم يتجاوز عمره أحد عشر عامـًا. ويروي المقريزي في اتّعاض الحُنفاء أن الوزير طلائع اختار العاضد لصغر سنه كي يستبدّ بالحُكم من دونه، ومن ثم زوّجه من ابنته. وفي عهده، استبدَّ الوزير طلائع بالخلافة، واحتكر الغلَّات وقتل الأُمراء، فدبّرت عمّة الخليفة، «ست القصور» مؤامرة ضده، ونجحت بقتل الوزير سنة١١٦١م، ونصّبت مكانه ابنه (أبو شجاع) رزيك بن الصالح، وواصل أبو شجاع مسيرة والده بالاستئثار بالسلطة من دون الخليفة، وعمّ الظلم والفساد. ونتيجةً لهذا الاستبداد، ضجّ الناس من الظلم، وجرت هُناك عِدّة محاولات تمرُّد، من أشهرها تمرَّد والي الصعيد، شاور بن مجير السعدي (ت ١١٦٩م)، الذي جمع الناس من حوله، وجهَّز جيشـًا كبيراً، ودخل القاهره للقضاء على الوزير (أبو شجاع)، وفِعلاً تمكَّن شاور من إحراز نصر مؤزَّر، ففرّ أبو شجاع، لكن قوات شاور لاحقته وقتلته، ودخل شاور القاهرة، وخلع على نفسه الوزارة.

بعد مقتل (أبو شجاع)، ثار أبو الأشبال ضرغام بن عامر بن ساور اللخمي (ت ١١٦٤م/ ٥٥٩هـ) على شاور، ووقعت معارك ضارية بينهما، تغلَّب فيها ضرغام،

وأعلن نفسه وزيراً، وانهزم الوزير شاور من المعركة بعد أن تشتت قواته، قاصداً الشام، ونزل عند الملك العادل نور الدين محمود زنكي (١١١٨م-١١٧٤م) صاحب دمشق. وأثناء إقامته هُناك، عرض على نور الدين أن يُرسل معه عسكراً إلى مصر ليعود إلى منصبه مُقابل أن يكون لنور الدين ثُلث دخل مصر، فاستجاب نور الدين لطلبه، وأرسل معه العساكر الشامية تحت قيادة أسد الدين شيركوه بن شاذي (ت ١١٦٩م)، حيث تمكنوا من دخول القاهرة، وتغلَّبوا على وزير العاضد ضرغام، وقتلوه، وأُعيد شاور إلى الوزارة.

ولكن، وبِما عُرف عن شاور المراوغة، فقد تلكأ في إيفاء وعوده لنور الدين زنكي، وأخلف بها، كما أصبح يُنظر إلى العسكر الشامي في مصر كتهديد له ولنفوذه. ومما زاد الأمر سوءاً، هو تحالف شاور مع الفرنجة لطرد الجيش الشامي من مصر وبدون علم الخليفة الفاطمي المغلوب على أمره، ونتيجةً لهذه التطورات، رأى نور الدين أنه ليس من الحكمة إبقاء القوات الشامية في مصر، فأمر بانسحابها والعودة بها إلى الشام، فامتعض الخليفة العاضد من التآمر الذي قام به شاور مع الفرنجة ضد الجيش الشامي، فأرسل سِرّاً إلى نور الدين يستنجده من استئثار الوزير شاور بالسلطة، ويشكو له من تعاونه مع الفرنجة، ونتيجةً لذلك، لم يجد نور الدين من مناص إلا لنجدة مصر من أيدي الفرنجة الطامعة بخيراتها، وعزم على التخلُّص من الوزير شاور، فأرسل هذه المرّة جيشاً كبيراً وعززه بقيادة أسد الدين وابن أخ أسد الدين القائد المظفَّر صلاح الدين الأيوبي (١١٣٨م-١١٩٣م). وهكذا، دخلت القوات الشامية القاهرة، وتم الإيقاع بشاور وقتله، وخلع الخليفة العاضد على أسد الدين الوزارة، ولُقِّب بالملك المنصور. وهكذا، أصبحت مصر تابعة فعلياً لنور الدين زنكي في الشام، وأصبحت سلطة الخليفة الفاطمي العاضد اسمية فقط لا تتعدى الدعاء له على المنابر في مصر.

بعد وفاة أسد الدين، تولّى الوزارة صلاح الدين الأيوبي، الذي وطّد الحُكم الشامي في مصر، وكان همّه مصلحة المسلمين، فكرَّس جهوده لتعزيز صفوف الجيش من

أجل دحر الفرنجة والقضاء على وجودهم في مصر والشام. وقد اجتمع عليه العامّة في مصر وأحبّه الجُند، لما تمتَّع به من قيادة حكيمة، حيث انتهج العدل وساس الجند، وأزاح خطر الفرنجة عن دمياط، وهزمهم في أكثر من موقع، وبالتعاون مع نور الدين في بعض الأحيان، على الرغم من الجفاء الذي حل بينهما فيما بعد.

فيما بعد استأثر صلاح الدين بالحكم دون الخليفة الفاطمي العاضد، حيث أبعد الأُمراء الفاطميين عن الحكم، وأبطل ذكر العاضِد من الخطبة، وأمر بإقامتها باسم الخليفة العباسي أبي محمد الحسن المستضيء بأمر الله (١١٤٢م-١١٨٠م). بعد ذلك توفي الخليفة الفاطمي العاضد، وكان شاباً، حيث كانت فترة حكمه اثني عشر عاماً، من ١١٦٠م/ ٥٥٥هـ إلى ١١٧١م/ ٥٦٧هـ، وبموته، انتهت الخلافة الفاطمية، بعد أن ضعفت وترهَّلت نتيجةً لضعف الخلفاء واستئثار الوزراء وتنافسهم على الحكم.

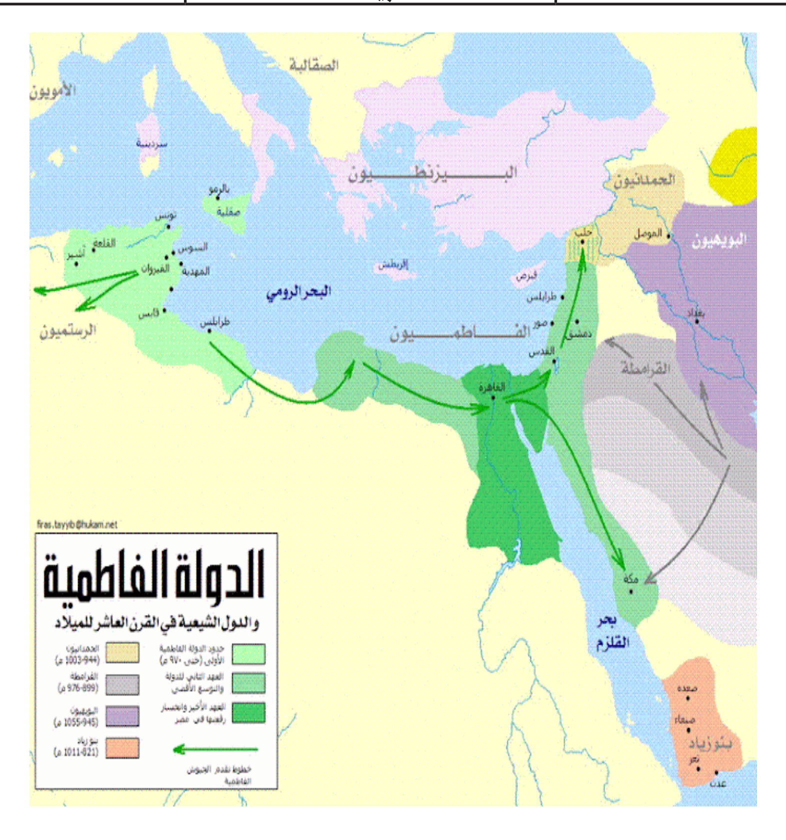
شكل (١-٢)

قائمة الخلفاء الفاطميين

اللقب والكُنية	الاسم	فترة الحكم (ميلادي)
الخلفاء الفاطميين عندما كان مقر الخلافة في إفريقية		
المهدي أبو محمد	**عبيدالله**	**٩٠٩-٩٣٤**
القائم بأمر الله أبو القاسم	**محمد بن عبيدالله**	**٩٣٤-٩٤٥**
المنصور بنصر الله أبو طاهر	**إسماعيل بن محمد بن عبيدالله**	**٩٤٥-٩٥٢**
المعز لدين الله أبو تميم	**معد بن إسماعيل بن محمد بن عبيدالله**	**٩٥٢-٩٧٢**
الخلفاء الفاطميين بعد أن أصبح مقر الخلافة في القاهرة		
المعز لدين الله أبو تميم	**معد بن إسماعيل بن محمد بن عبيدالله**	**٩٧٢-٩٧٥**

العزيز بالله أبو منصور	نزار بن معد بن إسماعيل بن محمد بن عبيدالله	٩٧٥-٩٩٦
الحاكم بأمر الله أبوعلي	منصور بن نزار بن معد بن إسماعيل بن محمد بن عبيدالله	٩٩٦-١٠٢٠
الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن	علي بن منصور بن نزار بن معد بن إسماعيل بن محمد بن عبيدالله	١٠٢٠-١٠٣٥
المستنصر بالله أبو تميم	معد بن علي بن منصور بن نزار بن معد بن إسماعيل بن محمد بن عبيدالله	١٠٣٥-١٠٩٤
المستعلي بالله أبو القاسم	أحمد بن معد بن علي بن منصور بن نزار بن معد بن إسماعيل بن محمد بن عبيدالله	١٠٩٤-١١٠١
الآمر بأحكام الله أبو علي	منصور بن أحمد بن معد بن علي بن منصور بن نزار بن معد بن إسماعيل بن محمد بن عبيدالله	١١٠١-١١٣٠
الحافظ لدين الله أبو ميمون	عبد المجيد بن الأمير محمد بن الخليفة المستنصر بالله معد بن علي بن منصور بن نزار بن معد بن إسماعيل بن محمد بن عبيدالله	١١٣٠-١١٤٩
الظاهر بأمر الله أبو منصور	إسماعيل بن عبد المجيد بن محمد بن معد بن علي بن منصور بن نزار بن معد بن إسماعيل بن محمد بن عبيدالله	١١٤٩-١١٥٤

الفائز بنصر الله أبو القاسم	عيسى بن إسماعيل بن عبد المجيد بن محمد بن معد بن علي بن منصور بن نزار بن معد بن إسماعيل بن محمد بن عبيدالله	١١٦٠-١١٥٤
العاضد لدين الله أبو محمد	عبد الله بن الأمير يوسف بن الخليفة الحافظ لدين الله عبد المجيد بن محمد بن معد بن علي بن منصور بن نزار بن معد بن إسماعيل بن محمد بن عبيدالله	١١٧١-١١٦٠



خارطة الدولة الفاطمية في أقصى اتّساع لها

وهكذا كان للوجود العربي في مصر وشمال إفريقيا والإمارات التي أُقيمت هناك من الأسباب الجاذبة للقبائل الهلالية للترحال إلى هذه المناطق، حيث كانوا على تواصل مع من سبقوهم لا سيما أبناء عمومتهم القيسين الذين أقاموا وحكموا العديد من المناطق في شمال إفريقيا، كما كانت الخلافة الفاطمية الراعية للتغريبة الهلالية، كما سنأتي لبيانه بالتفصيل في هذا الكتاب.

الفصل الثاني

القبائل والإمارات الأمازيغية الزناتية

بعد أن تناولنا في الفصل الأول من هذا الكتاب تاريخ العرب في شمال إفريقيا التي بدأت مُنذ الفتوحات الإسلامية في إطار دراسة الأبعاد التاريخية للتغريبة الهلالية من الجزيرة العربية وصولاً إلى شمال إفريقيا، كان لا بدّ لنا أيضاً من دراسة الأرضية الديموغرافية التي قامت عليها تلك الأحداث من حروب وأهوال، حيث ينبغي إلقاء نظرة ثاقبة على المُجتمع المغاربي والسياسي قبل الاجتياح الهلالي. وبذلك نتناول بهذا الفصل لمحة عامَّة عن شريحة واسعة من القبائل الأمازيغية، وهي القبائل الزناتية ذات القوة والشكيمة، لا سيما قبائل بني يفرن ومغراوة، كمكونين أساسيين للمجتمع السياسي الأمازيغي في تلك الفترة، هذا إلى جانب قبائل صنهاجة، التي سنفرد لها الفصل الثالث من هذا الكتاب.

لمحة عن تاريخ الأمازيغ

تاريخ الأمازيغ موغِل في القِدم، فقد تم ذكرهم بعدة تسميات عبر التاريخ القديم، مثل «التنحو» في الألف الرابعة قبل الميلاد، وورد ذكرهم في تاريخ مصر القديم، فقد سيطر أحد زعمائهم، وكان يُدعى ششنق الأول على مصر وحكمها سنة ٥٩٠ ق.م، وفي عهد رمسيس الثاني، تم تسميتهم بـــ «الليبوا»، واسم زعيمهم كما ورد في الكتابات الفرعونية «مرابي بن دد»، وتم تسميتهم بعد الفتح الإسلامي بالبربر.

وفيما يتعلَّق بالأصول العرقية للأمازيغ، فليس هُناك ما يدل على أنهم من سلالة عرقية واحدة، فالسائد في التركيبة البشرية لهم هو التنوّع الفيزيائي لبشرتهم بين الأشقر والأسمر، والطويل والقصير، وكذلك شكل الجمجمة، مما يُبيّن استحالة وجود سُلالة موحَّدة لهم، فهويتهم لم تتحدد على مقاييس عرقية مُحددة كالأعراق الأُخرى. لذا،

لجأ العلماء إلى عِدّة تصنيفات لهم، ولكن يتّفق الكثير من المؤرخين على أنهم من أصول ساميّة شرقية، ويقول ابن خلدون أن الأمازيغ هُم من أبناء مازيغ بن كنعان بن حام، وأن أصلهم جاء من جهات ما بين النهرين بآسيا، ثم ارتحلوا إلى بلاد المغرب، مارين بالبلاد المصرية، وقد أخذوا منها بعض الطقوس الدينية، كعبادة عمّون وآثارهم المنقوشة العتيقة ببعض جهات الجنوب تؤكِّد هذا، وأغلبية الأمازيغ في الجزائر هُم من قبائل البرانس، ومنهم صنهاجة، كتامة، مصمودة، ولمطة.

وما يُعنينا بهذا البحث، هو أن الأمازيغ هُم أصل سكان المغرب العربي كافَّةً، ولهم تاريخ تليد في صياغة الحضارة في شمال إفريقيا والأندلس وصناعة مجدها، واستاطعوا بناء حضارة شهدت لها الأُمم. وبالرغم مما تعرّضوا له من دمار خلال القرن الرابع الهجري بسبب اجتياح القبائل الهلالية وبني سليم لديارهم، لكنهم استطاعوا فيما بعد من استيعاب هذه القبائِل ليشكلوا نسيجاً مجتمعياً متحضراً بعد أن تحضَّرت القبائل الهلالية وتوقَّفت عن الغزوات، وأصبحت جًزءاً لا يتجزأ من المُجتمع في شمال إفريقيا.

علاقة الأمازيغ بالعرب

علاقة الأمازيغ بالعرب علاقة وثيقة، انصهرت عبر التاريخ، لدرجة يصعب فيها أحيانًا التميز بين القوميتين، فقد أورد بعض المؤرخين أن أصول بعض الأمازيغ أنفسهم تعود إلى جذور عربية، ففي كتاب التيجان[1]، وردت كلمة أمازيغ على أنها من الأسماء العربية التي كانت مُستخدمة في التراث العربي الشعبي الشرقي.

ويُعلل بعض المؤرخين ذلك من خلال تشابه حياة العرب بالبربر، كتشابه العادات والتقاليد والملبس، إضافة إلى المصطلحات اللغوية المتشابهة، ويذهب مؤرخون آخرون إلى أن أصول الأمازيغ قد تعود إلى العرب العاربة التي هاجرت إلى شمال إفريقيا في الأزمنة السحيقة ضمن هجرات سابقة لهجرة الكنعانيين الفنيقيين، لكنها

---

(١) كتاب التيجان في ملوك حمير، صنعاء، ص١٨٠، ١٩٧٩م.

توسَّعت مع الفتح الإسلامي، ويرجِّح البعض بأن اللغة الأمازيغية كانت قد تفرَّعت عن اللغات السامية، كالأكادية، الآرية، الكنعانية، الحميرية، والعربية.

وتُظهر بعض الحفريات هجرات الكنعانيين إلى شمال إفريقيا في بداية المرحلة الدفيئة الثالثة، أي مُنذ قرابة ثمانية عشر ألف سنة، إذ كانت أوروبا وشواطئ البحر الأبيض المتوسِّط قبل هذه المرحلة مُغطاة بالجليد. أمّا الجزيرة العربية، فكانت تتمتَّع بمناخ شبيه بمناخ أوروبا الآن، لكنها أخذت بالجفاف مع مرور الزمن. ونتيجة لضغط الجفاف على إنسان الجزيرة العربية عبر العصور، فقد حدثت هُناك هجرات إلى شمال إفريقيا وجنوب أوروبا. ويرى عُلماء الأجناس، كجابريل كامبس[1]، أن الجماعات البيضاء بشمال إفريقيا، سواءً كانت الناطقة بالأمازيغية أو العربية، تنحدر في معظمها من جماعات البحر الأبيض المتوسِّط، جاءت من الشرق في الألف الثامنة، وربما قبل ذلك، وراحت تنتشر بشمال إفريقيا والصحراء.

ومع بدايات الفتح الإسلامي، وقدوم العرب المسلمين، كما تطرّقنا له في الفصل الأول من هذا الكتاب، امتزجت الثقافة العربية بالأمازيغية، لا سيما بعد اعتناق الأمازيغ الديانة الإسلامية، إذ أصبحت اللغة العربية هي السائدة إلى جانب اللغة الأمازيغية. وقد تعزز هذا الانصهار، حتى أصبح العرب والأمازيغ كشعب واحد، مُتاشبهين في كُل شيء، حتى في العصبية القبليّة والثأر والكرم والشجاعة. وعندما قامت الخلافة الفاطمية في شمال إفريقيا، كان بعض أمراء الأمازيغ الصنهاجيين الزيريين يدّعون انتماءهم للقبائل العربية الحميرية في اليمن مُتفاخرين بذلك، فمثلاً عندما ساءت علاقة (أبو فتح المنصور الزيري) مع الخلافة الفاطمية في مصر خلال القرن العاشر الميلادي، عبَّر عن طموحه في الإستئثار بالسلطة في إفريقية بدون مظلّة الخلافة الفاطمية، مُدّعيًا أمام شيوخ القبائل الذين حضروا إلى القيروان لتهنئته بالإمارة أنه من حِمير، عندما قال لهم: «إن أبي وجدّي أخذا الناس بالسيف قهراً، وأنا لا آخذهم إلا بالإحسان، وما

(1) Camps, Gabriel, Les Berbers: Memoire et Identite›, Paris, 1995, P11

أنا في هذا المُلك ممن يؤتى بكتاب ويُعزَل بكتاب، لأنني ورثته عن آبائي وأجدادي، وورثوهم عن آبائهم وأجدادهم حِميَّر»[1].

ووردت عِدّة نصوص عن صفوة الأُمراء والشعراء الأمازيغ يدّعون فيها بأن أُصولهم عربية، فمثلاً، هُناك بيتان من الشعر عن شاعر أمازيغي يفتخر بانتساب قبائل الطوارق بقبائل حِميَّر اليمنية، فيقول:

قــوم لـهـم شــرف مــن حِـــــميَّر

وإذا دُعـــــوا لـمـتـونـة فـهـم هُـم

لــمّــا حـــووا عــلــيــاء كــل فـضـيـلـةٍ

غــلــب الــحــيــاءُ عــلـيـهـم فـتـلـثّـمـوا

ومهما يكن من الأصول العرقية، فإن ما يهمنا في هذا الكتاب ليس توثيق الأصل العرقي للأمازيغ، بل لدارسة شكل العلاقة واللحمة التي كانت حقيقة دامغة لا لُبس بها، والانصهار الوثيق بين الأمازيغ والعرب بعد الفتح الإسلامي وعبر تاريخ الخلافة الفاطمية، ومن ثم هجرة القبائل الهلالية لشمال إفريقيا. فالثورات الكبيرة التي قامت بها بعض القبائل الأمازيغية ضد الأُمراء والحكام العرب هُناك في بدايات الفتح الإسلامي، لم تكن صراعات قومية بين الأمازيغ والعرب، بل كانت كأي ثورات داخلية، فعلى سبيل المثال، كانت أشدّ المعارك فتكـًا تلك التي وقعت بين أمازيغ وأمازيغ، أو بين بعض بطون القبائل العربية، وكانت أكبر المعارك ضراوةً هي تلك التي وقعت بين الصنهاجيين والزناتيين، الشعبين الأمازيغيين، الأكثر سطوةً في عموم شمال إفريقيا. كما انقسم العرب الهلاليين على أنفسهم بعد استقرارهم في شمال إفريقيا، وتفرّع ولاؤهم بين الإمارات الأمازيغية المتحاربة، فقد حاربت أطراف من القبائل الهلالية بجانب الصنهاجيين ضد أبناء عموتهم الهلاليين المتحالفين بدورهم مع الزناتيين.

(١) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار المغرب، بيروت، ١٩٥٠م، ج١، ص ٣٤٣. ابن الأثير: الكامل في التاريخ القاهرة، مصر ١٣٥٧هـ، ج٧، ص ١٢١.

وعندما انقسمت الإمارة الصنهاجية الأمازيغية إلى إمارتين، صنهاجية زيرية في إفريقية (تونس وأجزاء من ليبيا والجزائر)، وصنهاجية حمّادية في المغرب الأوسط (الجزائر)، ودخلتا معاً في حرب ضروس، كانت القبائل العربية الهلاية هي مُنقسمة أيضاً في ولائها وحروبها بين الفريقين المُتخاصمين.

وتاريخ العرب والأمازيغ حافِل في الانصهار بين القوميتين، فهناك الكثير من الشواهد التاريخية التي جسَّدت هذا التحالف، كدور الأمازيغ المحوري في فتح الأندلس، وتوسيع الإمبراطوريات العربية حتى دخلت مشارف أوروبا، وإسبانيا، والبرتغال، وأجزاء من ايطاليا، ولا يتسّع المجال في هذا الكتاب لشرح دور الأمازيغ في الحضارة العربية الإسلامية.

القبائِل الأمازيغية الزناتية

زناتة هي إحدى القبائل الأمازيغية الكُبرى في شمال إفريقيا وهي هائِلة العدد، إذ أنها أقرب إلى كونها شعب بحد ذاته، وتنقسم إلى حضر وبدو رُحَّل، وتتركَّز في تونس والجزائر والمغرب وليبيا، وكان لها دور محوري في تشكيل تاريخ شمال إفريقيا، سواءً القبائِل الزناتية بحدّ ذاتها أو الإمارات الزناتية التي تأسست، والتي كانت إمارات ذات حضارة، أنشأت القصور والمباني. ويذكر ابن خلدون أن زناتة تتفرَّع لثلاث قبائل رئيسة، هي: جيراوة، مغراوة، وبنو يفرن. وهُناك العديد من السلالات الزناتية التي حكمت في شمال إفريقيا، مثل: بنو يفرن، الوطاسيون، المرينيون، والزيانيون. وقد ساهمت القبائل الزناتية المتحضّرة في بناء المُدن في المغرب الأوسط، وفي تشكيل الوجه الحضاري والثقافي في عموم شمال إفريقيا.

وقد قادت زناتة العديد من الحروب، ودافعت عن أوطانها بشراسة، فعلى سبيل المثال، تصدّى بنو يفرن، وهم من إحدى الفروع الهامَّة لزناتة للاحتلال الفينيقي والروماني والبيزنطي، وتصدّوا كذلك للجيوش والقبائل العربية في بداية الفتوحات

الإسلامية، ووقفت أعداد كبيرة منهم إلى جانب الكاهنة ضد المُسلمين، كما تصدّوا كذلك للعباسيين والأمويين. ولكن عندما اعتنقوا الإسلام أصبحوا إحدى اللبن الرئيسية في الفتوحات الإسلامية، وفي نشر الإسلام في شمال إفريقيا والأندلس، حيث اعتنقوا الإسلام في وقت مُبكر في القرن السابع، وشكّلوا قوّة الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة الإيبيرية.

وبعد أن اندمجت القبائل الزناتية بالعرب وتعرَّبت عبر التاريخ، وقفت بجانب المسلمين والعرب في فتوحاتهم، وكان لها دور محوري في توطيد الحكم العربي والإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس. ففي القرن العاشر الميلادي، تحالفت زناتة مع الدولة الأموية في قرطبة ضد الخلافة الفاطمية، كما حكمت القبائل الزناتية بلاد المغرب مُنذ منتصف القرن الثالث عشر حتى منتصف القرن السادس عشر، وبرز دورها في عهد الموحدين، إذ كانت تدين بالطاعة للموحدين من بني عبدالمؤمن.

أهم بطون القبائل الزناتية

تناسلت بطون زناتة حسب ابن خلدون من أربعة أخوه، هُم: «يفرن»، «مغراوة»، «غمرت»، و «جديعي».

بنو يفرن

بنو يفرن هُم من أشهر وأوسع بطون زناتة وأكثرها عدداً، وهُم من أقلَّ الفروع الزناتية تعرّضـاً للفاتحين المُسلمين، وينتسبون حسب نسابة زناتة إلى ابن يصلتين بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديرت بن جانا» [1]، وهو نفس الجدّ الذي يُنسب اليه بقيّة بطون زناتة.

وكلمة «يفرن» مُصطلح أمازيغي يُعني الكهف، حيث كانت هذه القبائل تسكن

---

(١) مختار، د. حساني، تاريخ الجزائر الأوسط (الجزء الثاني)، وزارة الثقافة، دار الهدى، الجزائر، ٢٠١٣م، ص ١٠٧-١٠٨.

الكهوف في القدم، حسب تفسير ابن خلدون. وتُعتبر مناطق المغرب الأوسط (الجزائر) من أهم المناطق التي استوطنها بنو يفرن، وكانت مضاربهم تشمل ما يُعرَف اليوم بولاية غُليزان ووهران وعين تموشت وأم عسكر وسيدي بلعباس وتلمسان وسعيدة والنعامة والأغواط، كما كانوا يستوطنون جبل أوراس وتونس. وبعد فترة من اعتناقهم الإسلام، كان بنو يفرن على المذهب الأباضي ومذهب الخوارج الصفريين.

بنو يفرن والخوارج الصفريين

تطرَّقنا في الفصل الأول من الكتاب للخوارج الصفريين وحروبهم مع الخلافة الإسلامية، حيث نجد هُنا دوراً بارزاً لبني يفرن الزناتيين في صفوف الخوارج، فقد انضمَّت بعض القبائل الزناتية لحركة الخوارج، كان في مقدمتهم بنو يفرن، بعد أن أعلن أبو قرّة اليفرني (وفي بعض النصوص «أبو قرّة المغيلي») الثورة على ولاة إفريقية. ويُعدّ أبو قرة اليفرني من أبرز الشخصيات التي تولَّت شؤون بني يفرن، إذ حوِّل هذه القبيلة من حياة البداوة إلى التحضُّر بعد أن أسس مدينة تلمسان لكي تكون عاصمة له، ومتّخذاً المذهب الصفري الخارجي مذهباً لإمارته. وقد بايع بنو يفرن في تلمسان أبأ قرة أميراً عليهم سنة ثمان وأربعين ومائة هجرية، الموافق ٧٣٦م، وكان يتزعَّم زناتة قبل أبي قُرة، خالد بن حميد بن زناتة، لكنه لم يُحقق ما حققه أبو قُرة من شهرة وسطوة.

تعرَّض أبو قُرّة لحروب شرسة من عِدَّة أطراف حاولت القضاء على إمارته الفتيّة، ومن أشدَّ الحروب ضراوة التي تعرَّض لها هي حروبه مع الأشعث الأغلب بن سواده التميمي، حيث تمكَّن الأشعث من إلحاق هزيمة ماحقة به في منطقة الزيبان، وعلى إثرها فرَّ أبو قرة وتوجَّه إلى المغرب الأقصى، حيث يتواجد مناصريه من الخوارج الصفريين، ولم يتمكَّن الأشعث من اللحاق به.

وفي عهد الخلافة الفاطمية، ظهر قائد آخر من قبيلة بني يفرن الزناتية، هو أبو يزيد بن مخلد بن كيداد (٨٧٣م-٩٤٧م)، ولُقِّب من قِبل المؤرخين باسم «صاحب الحمار»، الذي قاد ثورة شرسة كادَت أن تقضي على الخلافة الفاطمية.

يعلى بن محمد اليفرني الزناتي

لم يتوقَّف نشاط هذه القبيلة بوفاة أبي قرة اليفرني وأبي يزيد مخلد بن كيداد، فقد واصلت هذه القبيلة نفوذها وسطوتها، وساهمت في الأحداث التي عرفتها الجزائر في أواخر القرن التاسع وخلال القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري، وعلى الخصوص في أثناء الصراع الذي كان قائماً بين الأمويين في الأندلس والفاطميين، ونزاعهم في السيادة على المغرب الإسلامي، وكان من بين الأُمراء اليفرنيين البارزين في هذه المرحلة يعلى بن محمد اليفرني، الذي استولى على مدينة وهران سنة ٢٩٨هـ، إلا أنه كان يتنقَّل في ولائه بين الفاطميين، والأُمويين في قرطبة، وفق مصالحه. وشيَّد يعلى عاصمة لإمارته، وهي مدينة إيفكان، بولاية أُم عسكر، والتي تقع حالياً على ضفاف وادي إيفكان في الجزائر.

ونتيجةً لهذا التأرجح بالولاء بين الفاطميين والأمويين، قررت الخلافة الفاطمية التخلُّص منه، ففي سنة ٣٤٩هـ، سيّرت حملة بقيادة جوهر الصقلي على الدولة اليفرنية، تمخّضت عن تدمير مدينة إيفكان، وقُتل يعلى بالقرب من مدينة تيهرت.

بدوي بن يعلى اليفرني الزناتي

بعد مقتل يعلى، تولّى شؤون الدولة والقبيلة ابنه بدوي الذي كان يكنّ العداء للخلافة الفاطمية؛ بسبب غزوها وتنكيلها باليفرنيين، فقد تقرَّب من الدولة الأموية في الأندلس، وأعلن موالاتها، ومن ثم انتقل إلى الأندلس في عهد الدولة العامرية. ولكن بالرغم من إظهار ولائه للأمويين في الأندلس، إلا أن بدوي كان كثير الاضطراب، ومراوغ في طاعته للأمويين. وكان وزير الدولة الأموية في الأندلس، وصاحب السلطة الفعلية فيها، المنصور، محمد بن أبي عامر (٩٣٨م-١٠٠٢م) يضرب بين بدوي وبين قرينه زيري بن عطية المغراوي الزناتي (ت ١٠٠١م)، ويُقارن كل منهما بمناغاة صاحبه في الاستقامة، وكان زيري أميل بطاعته وبصدق طويّته للأمويين.

قبيلة مغراوة الزناتية

تُعد قبيلة مغراوة أيضـاً من القبائل الزناتية القويّة المراس والكثيرة العدد، وتعود بنسبها إلى زاكيا. والمغراويون لا يقلّون عن أبناء عمومتهم اليفرنيين من حيث القوّة والبأس والزعامة، ويُعد زيري بن عطية المغراوي من أكبر القادة المغراويين الزناتيين في تاريخ المغرب الأوسط، فقد أسس مدينة وجدة، وتزعَّم الزناتيين المغراويين، وعُرف عن زيري أنه كان مواليـاً أيضـاً للدولة الأموية في الأندلس ضد الخلافة الفاطمية، كما أسلفنا، ففي عام ٣٧٧هـ، زار زيري بن عطية الأندلس، واستقبله المنصور بن أبي عامر وأكرم وفادته ومقامه وخلع عليه لقب الوزير، ومن ثم أصبح زيري قائداً وممثلاً لمنصور بني أبي عامر في عدوة المغرب، بما فيها المغرب الأوسط وجميع ما غلب عليه.

ومن القادة المغراويين البارزين، خزرون بن فلفول المغراوي الزناتي، الذي كان قائداً فذّا، صنع تاريخ المغرب الأوسط، إذ فتح سجلماسة سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٧م، وأصبح أميراً عليها بعد أن قضى على من تبقّى من الدولة المدرارية الصفرية الخارجية هُناك. وكان خزرون مُقرّبـاً أيضـاً من الدولة الأموية في الأندلس، ويقول ابن خلدون: «وتنازعت زناتة في التزلُّف إلى الدولة الأموية بقرب الطاعات، فزحف خزرون بن فلفول سنة ستة وستين إلى مدينة سجلماسة، ففتحها ومسح أثر دولة آل مدرار منها، وعقد له المنصور عليها»[١].

الصراع بين القبائِل الزناتية

نتيجةً للتجاذب بين الدولة الأموية في قرطبة والزناتيين، وقعت العداوة بين أبناء العمومة من زناتة، بنو يفرن ومغراوة، فكلّ من قادة النزاع زيري بن عطية المغراوي وبدوي بن يعلى اليفرني أراد فرض سيطرته على القبائل الأمازيغية، وعلى المغرب

(١) ابن خلدون، ج٧، ص٢٤.

الأقصى لانعدام الدولة هناك، والتي انتهت بالقضاء على الدولة الإدريسية، وتحولَّت الكثير من مناطق المغرب إلى مجموعة من الإمارات الزناتية المُتصارعة فيما بينها، كما كانت الإمارة الحمادية الصنهاجية تستغل الفرصة أيضاً، وتقوم بحملات ضدّ هذه المناطق، وقد زادت سطوة زيري فيما بعد بدعم قوي من الدولة الأموية في الأندلس.

وهكذا، أعلن بدوي بن يعلى اليفرني، زعيم بني يفرن عداءه لأبناء عمومته الزناتيين من قبيلة آل خزر المغراويين، وعلى رأسهم زيري بن عطية، كونه كان بمثابة القائد والممثل للدولة العامرية الأندلسية في العدوة. وأخذ بدوي بشن الحملات ضد زيري بن عطية والوزير حسن بن عبد الودود، لفرض زعامته على عموم قبائل زناتة والسيطرة على بلاد المغرب، لا سيما مدينة فاس التي كانت من بين أهم مدن المغرب الأقصى، وتقع ضمن سيطرة القبائل الزناتية التي كانت تتصارع عليها. كما كان لمدينة فاس قُدسية خاصَّة من قِبل المغاربة، والتي شُيّدت من قِبل الإمام إدريس، مؤسس الدولة الإدريسية العلوية، كما ذكرنا سابقاً في الفصل الأول من هذا الكتاب، وبذلك، كان الصراع على فاس محتدماً بين القبيلتين الزناتيتن العظيمتين، آل الخزر المغروايين وآل يعلى اليفرنيين. فعندما خرج زيري بن عطية المغراوي في زيارة إلى المنصور بن عامر في الأندلس، كما ذكرنا سابقاً، استغلَّ بدوي بن يعلى اليفرني هذه الفرصة السانحة، فهاجم فاس وملكها، وقتل من مغراوة خلقاً كثيراً، وعندما رجع زيري من زيارته، اعتصم بدوي بفاس. كما ثار بدوي أيضاً على الدولة الأموية في الأندلس، وعمد لمواجهة المناطق الخاضعة للدولة العامرية ونفوذها في المغرب.

عند ذلك، عزم زيري والوزير حسن بن عبد الودود وبدعم صريح هذه المرّة من المنصور بن ابي عامر على مواجهة بدوي واستئصال شأفته، وحدثت المواجهة الحربية بين الفريقين سنة إحدى وثمانين، ولكن بالرغم من التأييد الذي لقيه زيري من المنصور بن أبي عامر، إلا أنه لم يتمكَّن من تحقيق النصر، فانهزم من المعركة، وجُرح الوزير عبد الودود، وتواصلت المعارك بين أبناء العمومة، المغراويين بقيادة زيري، وبني يفرن بقيادة بدوي، ولكن كان النصر في أكثر الأحيان حليف اليفرانيين.

ولكن عندما انفصل أبو البهار الصنهاجي، الذي كان والياً لابن أخيه المنصور على تيهرت، وأعلن الولاء للخلافة الأموية في الأندلس، تغيّرت موازين القوى لصالح المغراويين، فقد تحالفت قبائل صنهاجة بقيادة أبي البهار مع زيري بن عطية، واجتمعت القوّة الصنهاجية والمغراوية على بدوي بن يعلى، عند ذلك تمكَّن زيري من تحقيق النصر على بني يفرن ودحرهم، وفتح مدينة فاس، وقتل بدوي وأرسل برأسه إلى سُدّة الخلافة الأموية بقرطبة. وبعد هذه الهزيمة الماحقة ببني يفرن الزناتيين، على يد أبناء عمومتهم آل خزر المغراويين، ابتعد بنو يفرن عن فاس، وتوجّهوا إلى ما يُعرف اليوم بمدينة الرباط.

ولم تتوقَّف المعارك بين القبيلتين الزناتيتين، فبعد وفاة بدوي، تزعّم بنو يفرن حمامة بن زيري بن يعلى، الذي تمكَّن من جمع شتات بني يفرن في فترة وجيزة، والتصدّي من جديد لقبائِل مغراوة. وفي ذلك يقول ابن خلدون: «وولي أمر بن يفرن من بعد بدوي، حمامة بن زيري بن يعلى، أخو حبوس، فاستقام له أمر بني يفرن، وقد مرّ ذكره في خبر بدوي غير مرة، وكانت الحرب بينه وبين زيري بن عطية سجالاً، وكانا يتعاقبان على مُلك فاس، بتناول الغلب»[1].

أبو الكمال تميم بن زيري بن يعلى

عندما توفي حمامة، قام بأمر بني يفرن من بعده الأمير أبو الكمال تمام بن زيري بن يعلى اليفرني، فاستبدَّ بحكمهم، ولكنه كان مُستقيماً في دينه، مولعاً في الجهاد، وسعى لتوحيد قبائل زناتة تحت راية واحدة، من خلال محاولته إنهاء الصراع مع مغراوة ومهادنتها، لكن المعارك كانت ما تلبث في كل مرَّة أن تتجدد بين الطرفين، وكانت آخر معاركهم سنة ٤٢٤هـ قبل قيام دولة المرابطين، عندما أرسل المغراويون وفودهم للمغرب الأوسط لحشد بطون مغراوة في هذه المناطق لمواجهة بني يفرن، وتغلَّب اليفرنيون هذه المرّة على المغراويين، وألحقوا هزيمة ماحقة بهم. وحول

(١) ابن خلدون، العبر ج٧، ص١٥.

هذه المعركة، يقول ابن خلدون: «ولما كانت سنة أربع وعشرين وأربع مائة، تجددت العداوة بين هذين الحيين، بنو يفرن ومغراوة، فزحف أبو الكمال، صاحب شالا وتادلا في جموع يفرن، فبرز إليه حمامة بن المعز في قبائل مغراوة، ودارت بينهما حروب شديدة، فانكشفت مغراوة، وفرَّ حمامة إلى وجدة، واستولى الأمير أبو الكمال تميم وقومه على فاس، وغلبوا مغراوة على عمل المغرب. ثم احتشد حمامة من وجده سائر مغراوة وزناتة، وزحف إلى فاس سنة تسع وعشرين، فخرج منها أبو الكمال تميم، ولحق بمقر ملكه في شاله. وفيما بعد» انصرف إلى جهاد برغواطة ولكنه سالَم مغراوة».

القبائل الزناتية الأُخرى

هناك العديد من القبائل الزناتية الأُخرى التي كانت مُنتشرة في مختلف بقاع المغرب وشمال إفريقيا، من بينها قبيلة «لمغيلة» التي كانت مجاورة مع بني يفرن في نواحي تلمسان، ولكن لمغيلة كانت أقلَّ قوّةَ وعدداً من بني يفرن. ومن القبائل الزناتية المعروفة، «بنو توجين»، التي كانت ذات سطوة وقوّة، كما أنّ هُناك قبيلتين من بطون زناتة، هُما «بنو ومانو» و «بني يلومي»، اللتان كانتا مستوطنتان في المغرب الأوسط، وكذلك قبيلة «بنو وزمار»، ومضاربها بوادي ريغ ورجلان، وأشتهروا بقُطع الطرق وسلب المسافرين، وكذلك قبيلة «سدراتة» من لواتة، التي كانت مُستقرّة في برقة والأوراس وورجلان. وبالرغم من تعدد القبائل الزناتية، إلا أن السلطة والقوّة الفعلية الزناتية كانت بيد «بني يفرن» و «مغراوة»، اللتان تساوتا في القوّة، وتتقدمان على كافَّة بطون زناتة في الزعامة والجاه والقوّة.

الإمارة الزيانية الزناتية (١٢٣٥م-١٥٥٦م)

من أهم الإمارات التي أنشأتها القبائِل الزناتية هي الدولة الزيانية، أو كما يُطلق عليها إمارة «بنو عبدالواد»، التي تأسست في تلمسان وضواحيها على يد يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد (١٢٠٦م/ ٦٠٣هـ - ١٢٨٢م/ ٦٨٠هـ)، وذلك في عهد الخليفة

الموحدي عبد الواحد الرشيد بن المأمون، الذي كتب لغمراسن بالعهد على ولاية المغرب الأوسط (الجزائر). ويُعدّ يغمراسن من أشهر سلاطين هذه الإمارة، حيث استمرَّ حُكمه من سنة ١٢٣٦م إلى ١٢٨٣م.

وقد عمل يغمراسن على توطيد أركان الدولة الزيانية وتوسيعها، فعمد إلى الانتقال إلى المناطق الشرقية، فاصطدم بقبائلها «بنو توجين» و «مغراوة» وشلف وعين دخله، وفي عام ٦٦٦هـ سيطر على مضارب قبيلة مغراوة، ومدّ نفوذه إلى سهل متيجة، كما سيطر على مضارب مليكشن والثعالبة ومستغانم. وعندما توفي سنة ١٢٨٢م/ ٦٨٠هـ، خلفه ابنه عثمان بن يغمراسن، الذي سلك مسلك والده في السياسة والدهاء، ومن ثم توالى على حكم الإمارة السلاطين الزيانيون لحوالي ثلاثة قرون، مُنذ القرن الثالث عشر وحتى منتصف السادس عشر الميلادي، تخللها حكم المرينيين لبعض السنين.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الحروب التي كانت مُستعرة بين القبائل الأمازيغية، لا سيما الحروب بين القبائل الزناتية، قد أفادت القبائل الهلالية وسليم المتربّصة هُناك، وهذا ما تسبب في إضعاف القبائل الأمازيغية، حيث تراجع تأثيرها على الأحداث السياسية فيما بعد نتيجة لتلك الصراعات المريرة. ويوضّح الشكل (٢-١) قائمة أمراء الدولة الزيانية، والتي تضمنها الغزو المريني لفترة وجيزة.

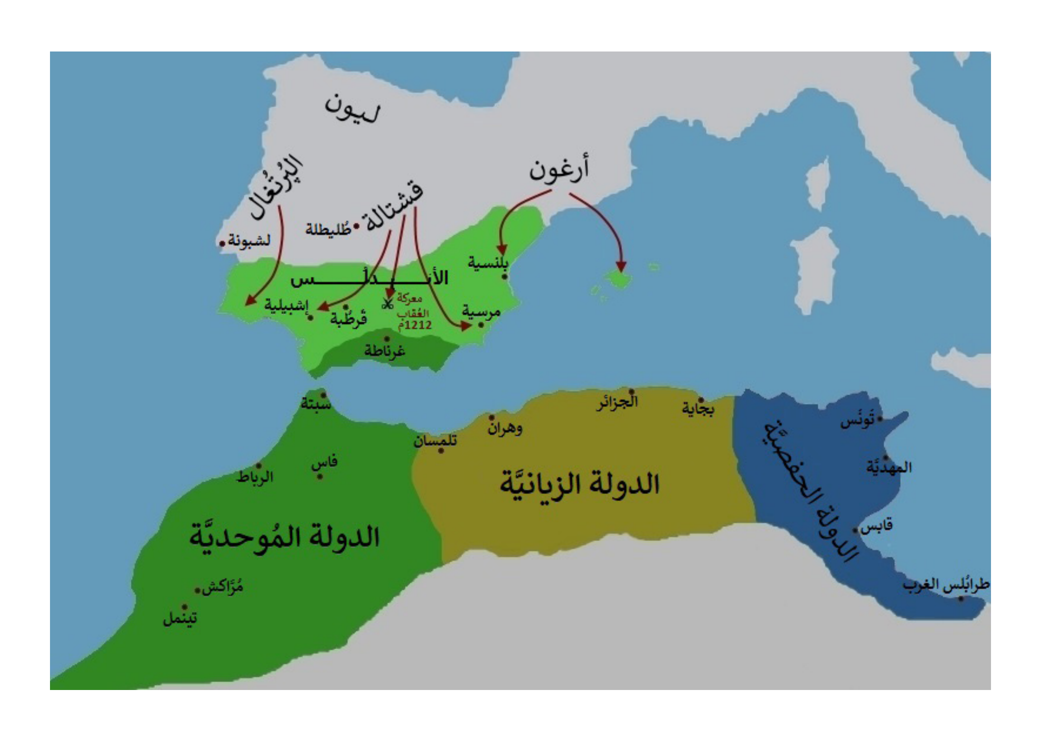
شكل (٢-١)

أُمرأ الدولة الزيانية

الحاكم	فترة الحكم (بالسنوات الميلادية)
أبو يحيى يغمراسن بن زيان	١٢٣٥-١٢٨٢
أبو سعيد عثمان الأول ابن يغمراسن	١٢٨٢-١٣٠٣
أبو زيان محمد بن عثمان الأول	١٣٠٣-١٣٠٧

أبو حمو موسى الأول ابن عثمان الأول	١٣٠٧-١٣١٨
أبو تاشفين الأول عبد الرحمن بن أبي حمو موسى	١٣١٨-١٣٣٧
دخول المرينين الأول (أبو الحسن علي المريني)	١٣٣٧-١٣٤٨
أبو سعيد بن أبي زيد عبد الرحمن بن أبي زكريا يحي بن	١٣٤٨-١٣٥٢
أبو ثابت بن أبي زيد عبد الرحمن بن أبي زكريا يحي بن	١٣٥٢-١٣٥٢
دخول المرينين الثاني (أبو عنان فارس المريني)	١٣٥٢-١٣٥٩
أبو حمو موسى الثاني ابن أبي يعقوب يوسف بن أبي زيد عبد الرحمن بن يحي بن يغمراسن	١٣٥٩-١٣٨٩
أبو تاشفين الثاني عبد الرحمن بن أبي حمو موسى الثاني	١٣٩٣-١٣٨٩
أبو ثابت يوسف بن أبي تاشفين الثاني	حكم لبعض لشهور فقط
أبو الحجاج يوسف بن أبي حمو موسى الثاني (ابن	١٣٩٤-١٣٩٣
أبو زيان الثاني عبد الرحمن بن أبي موسى الثاني	١٣٩٩-١٣٩٤
أبو محمد عبد الله الأول ابن أبي حمو موسى الثاني	١٤٠٢-١٣٩٩
أبو عبد الله محمد الأول ابن أبي حمو موسى الثاني (ابن	١٤٠٢-١٤١١
عبد الرحمن الثالث ابن أبي عبد الله محمد الأول	١٤١١-١٤١٢
السعيد بن أبي حمو موسى الثاني	١٤١٢-١٤١٢
أبو مالك عبد الواحد بن أبي حمو موسى الثاني	١٤١٢-١٤٢٤
أبو عبد الله محمد الثاني ابن أبي تاشفين الثاني (ابن	١٤٢٤-١٤٢٨
أبو مالك عبد الواحد بن أبي حمو موسى الثاني (للمرة	١٤٢٨-١٤٣٠
أبو عبد الله محمد الثاني ابن أبي تاشفين الثاني (للمرة	١٤٣٠-١٤٣١
أبو العباس أحمد المعتصم (العاقل) بن أبي حموموسى	١٤٣١-١٤٦١
أبو عبد الله محمد الثالث المتوكل على الله ابن أبي زيان بن أبي ثابت بن أبي تاشفين الثاني	١٤٦١-١٤٦٨

أبو تاشفين الثالث ابن أبي عبد الله محمد الثالث المتوكل	١٤٦٨-١٤٦٨
أبو عبد الله محمد الرابع الثابتي ابن أبي عبد الله محمد الثالث المتوكل	١٥٠٥-١٤٦٨
أبو عبد الله محمد الخامس ابن أبي عبد الله الرابع الثابتي	١٥٠٥-١٥١٦
أبو حمو الثالث ابن أبي عبد الله محمد الرابع الثابتي	١٥١٦-١٥١٧
أبو زيان أحمد الثالث ابن أبي محمد عبد الله	١٥١٧-١٥١٨
أبو حمو الثالث ابن أبي عبد الله محمد الرابع الثابتي (المرة الثانية)	١٥١٥-١٥٢٨
أبو محمد عبد الله الثاني ابن أبي حمو الثالث ابن أبي عبد الله الرابع	١٥٤٠-١٥٢٨
أبو عبد الله محمد السادس ابن أبي محمد عبد الله الثاني ابن أبي حمو الثالث	١٥٤٠-١٥٤٢
أبو زيان أحمد الرابع ابن أبي محمد عبد الله الثاني ابن أبي حمو الثالث	١٥٤٢-١٥٠٠
أبو عبد الله محمد السادس ابن أبي محمد عبد الله الثاني ابن أبي حمو الثالث (للمرة الثانية)	١٥٤٢-١٥٤٢
أبو زيان أحمد الرابع ابن أبي محمد عبد الله الثاني ابن أبي حمو الثالث (للمرة الثانية)	١٥٤٢-١٥٥٠
الحسن بن أبي محمد عبد الله الثاني ابن أبي حمو الثالث (آخر ملوك الدولة الزيانية)	١٥٥٠-١٥٥٤



خارطة توضَح الإمارة الزيانية، وكذلك الدولتين المجاورتين لها في تلك الفترة، الحفصية والموحدية

الإمارة المرينية الزناتية (١٢٤٤م-١٤٦٥م)

تُنسب الإمارة المرينية إلى سلالة «بني واسين» الزناتية، أو كما يُطلق عليها إمارة «بنو عبد الحق»، نسبة إلى أميرها المؤسس عبد الحق الأول (١١٩٥م–١٢١٧م)، وأُطلق عليها فيما بعد إمارة «بنو مرين» نسبة إلى السلطان أبو الحسن علي بن عثمان المريني (١٢٩٧م–١٣٥١م). واشتملت الإمارة المرينية على بلاد المغرب الأقصى وعاصمتها فاس، والتي حكمت مُنذ القرن الثالث عشر إلى الخامس عشر الميلادي. توسَّعت الإمارة المرينية في عهد السلطان أبي سعيد الأول، ويوسف بن يعقوب، والسلطان أبي الحسن المريني، حتى امتدّت مساحتها لتضم المغرب الأوسط والأدنى، والمغرب الكبير. وكانت الإمارة المرينية قويّة وكثيرة العدد، وخاضت حروباً وصراعات مع

دولة الموحدين، كما كانت لها معارك وحروب مريرة مع القبائل الهلالية، والتي سنتناولها بالتفصيل في الفصل السابع من هذا الكتاب.

وهكذا، تُعتبر القبائِل والممالك الزناتية الأداة الأساسية التي رسمت تاريخ شمال إفريقيا مُنذ الفتوحات الإسلامية والهجرات العربية، وقد ساهمت بشكل أساسي في الفتوحات الإسلامية وفي تقوية أركان الدولة الإسلامية في الأندلس وامتزجت مع العرب هُناك. كما دخلت بعض البطون الزناتية، كبني يفرن ومغراوة والقبائل الأمازيغية الأُخرى المتحالفة معها إلى جانب الأمويين في الأندلس لمواجهة الخلافة الفاطمية.

وقد أدَّت الحروب وعدم الإستقرار إلى إضعاف الزناتيين فيما بعد، فقد تمكَّنت الخلافة الفاطمية عندما كانت في أوج قوّتها من السيطرة على أغلب مضارب تلك القبائل، مما دفع بها إلى التوجّه نحو المناطق الغربية والجنوبية، بعيداً عن الخطر الفاطمي. وخلال القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري، انكسرت شوكة قبائل زناتة بالمغرب الأوسط، لا سميا بعد القضاء على إمارة مسعود بن وتد المغراوي الزناتي، ففروا هاربين، وقد انهكتهم الحروب، وجالوا في صحراء توات شرقاً وغرباً، ونزلوا بجراوة ووادي الخبة، وملئوا أرض توات.



خارطة الإمارة المرينية

الفصل الثالث

الدولة الزيرية الصنهاجية

بعد أن تناولنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب القبائل والإمارات الزناتية، ننتقل بهذا الفصل والفصل الذي يليه لتناول شريحة أُخرى وهامَّة من الشعوب والإمارات الأمازيغية التي حكمت المغرب الأدنى والأوسط، ألا وهي صنهاجة بفرعيها الزيري والحمادي، والتي كانت لها حروب شرسة مع القبائِل الهلالية الغازية، حيث كانت الإمـارة الصنهاجية الزيرية هي أول من اصطدم بالقبائل الهلالية التي استباحت القيروان. وبذلك فمن الأهمية بمكان إفراد هذا الفصل والفصل الذي يليه للأسرة الصنهاجية العريقة، حيث يتناول هذا الفصل الأسرة الزيرية، في حين نُفرد الفصل الرابع لأبناء عمومتهم الحماديين الصنهاجيين.

تُعتبر الأُسرة الصهناجية الزيرية من أهم الأُسر الملكية التي حكمت إفريقية، حيث كانت تابعة للخلافة الفاطمية، ولكن بصيغة تختلف عن حكم الولاة، فقد أقرَّت الخلافة الفاطمية الصنهاجيين على حكم إفريقية شريطة التبعية الكاملة للخلافة الفاطمية مُنذ انتقالها إلى مصر، حيث كانت الإمارة الصنهاجية، بشقيّها الزيري والحمادي، ذات نظام حكم ملكي وراثي. ويرجِّح أغلب المؤرخين أن الصنهاجيين هُم أمازيغ، في حين يرى آخرون أن اصولهم تعود إلى العرب الأوائل الذي هاجروا من قبائِل حِمير في اليمن إلى الشمال الإفريقي في الأزمنة الغابرة، لكن لا يوجد هُناك ما يؤكِّد هذا الزعم. وسوف نستعرض في هذا الفصل تاريخ الأسرة الصنهاجية، أو كما عُرف عنها بالأُسرة الزيرية فيما بعد، ولعل مؤسسي الإمارات الصنهاجية يعود بداية إلى المُثنّى بن المسور، وزيري بن مناد، وبلكين الزيري، ويقول النويري[1]: «أن أول زعيم صنهاجي

(١) النويري، نهاية الأرب، ترجمة رسلان، ابن خلدون، تاريخ البربر، ج٢، ص ٤٨٣-٤٩٣، الدولة الحمادية، ط٢٠٠٧، ص٧.

عُرف في بلاد المغرب هو المُثنى بن المسور، وبعده مناد بن منقوش، الذي أصبح من أشهر أعضاء القبيلة، وفي اليوم الذي ولد فيه مناد كان الصنهاجيون ما زالوا يأملون أن قبيلتهم تتولى الأمر في بلاد المغرب يوماً ما، فكبر مناد وكانت له قوّة عجيبة، وأصبح كثير المال والولد، وكان يُحسن الضيافة للمسافرين، فبنى مسجداً وكان الغرباء يأوون إليه، وكان كُلّما رأى مُسافراً ضيّفه، ثُم عند ذهابه زوّده بأسباب العيش والملابس.». أمّا ابن خلدون، فيقول أن كبير «تلكائة» في عهد الأغالبة هو مناد بن مقوش بن صنهاج الأصغر، ثُم تعرَّض إلى نسب صنهاج اعتماداً على ما كتبه ابن النحوي، حيث قال: «هو صنهاج بن واسقاف بن جبريل بن يزيد بن واسلي بن سمليل بن جعفر بن إلياس بن سكاد بن مليكان بن كرت بن صنهاج الأكبر»[1]. وكان مناد هذا قد ملك جانبي إفريقية والمغرب الأوسط، مُقيماً الدعوة لبني العباس، وراجعاً إلى أُمراء الأغالبة.

زيري بن مناد (ت ٩٧١م)

بعد وفاة مناد، تولَّى بعده ابنه زيري بن مناد، والذي يُعّد ملك صنهاجة والأب المؤسس لدولة بني زيري التي حكمت المغرب الأوسط وإفريقية. وعن صفاته، يقول النويري: «أن زيري بن مناد كان أجمل أبناء مناد الذين كانوا مشهورين بجمالهم حتى ضرب بهم المثل. وكان زيري طويل القامة، قوي البُنية، حتى كان يظهر أنه في عمر العشرين وهو طفل لم يتجاوز العاشرة.» وقد بدت عليه ملامح الزعامة مُنذ نعومة إظفارة، فكان أصحابه يطيعونه ويسمونه السلطان، وكثيراً ما كانوا يلعبون لعبة الحرب، فيصطفون على صفين ويركبون عصيهم كأنهم فرسان، وبعد اللعب كان زيري يذهب بهم إلى داره ويطعمهم، وأثناء الغداء كان يقف وراءهم على خدمتهم ولا يأكُل شيئاً.»

وعندما أصبح زيري رجلاً، غزا قبيلة زناتة، وكانت هُناك بعض البطون من قبيلة صنهاجة تحسده، فاجتمعت على قتاله، لكنه تغلَّب عليها. وبعدها انتشرت سمعته

(١) مختار، د. حساني، تاريخ الجزائر الأوسط (الجزء الأول)، وزارة الثقافة، دار الهدى، الجزائر، ٢٠١٣م، ص ١١٧.

في المغرب كله، ثم غزا بلاد زناتة مرَّة أُخرى، وهاجم قلعة مغيلة التي تقع بين فاس ومكناس انتقاماً من زناتة التي كانت قد حرّضت بطون صنهاجة عليه.

وبعد سقوط شمال إفريقيا في يد الفاطميين، أقرّه الفاطميون على الحكم شريطة أن تكون إمارته ضمن دولة الخلافة الفاطمية، وأصبح مناد بذلك من أعظم الملوك الموالين للفاطميين، وقد اتّسعت أعماله ما بين المسيلة وحواف الصحراء إلى تاهرت ونهر شلف، ومن أطراف الصحراء إلى البحر المتوسِّط.

وأسس زيري مدينة أشير، حيث أعانه الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله (٣٢٢هـ-٣٣٤هـ) في تشييدها، وساهم في مساعدة الفاطميين ضد الخوارج، لا سيما ثورة صاحب الحمار. أبو يزيد مخلد بن كداد اليفرني الزناتي (٨٧٣م-٩٤٧م) الذي انهك الخلافة الفاطمية، ودامت ثورته ثلاثة عشر عاماً، وكادت أن تطيح بالخلافة لولا أن بعث زيري للقائِم بمائة فارس ومائة حِمل من القمح، مما اضطر أبو يزيد لرفع الحصار عن المهدية، وذلك سنة ٩٤٥م/ ٣٣٤هـ. وبعد وفاة القائم ومجيء ابنه الخليفة المنصور بالله (٣٣٤هـ-٣٤١هـ)، واصل زيري دعم الخليفة للقضاء على صاحب الحمار، فعندما حاصر المنصور أبا يزيد في قصر كيانة، سار زيري في جيش كبير للمشاركة في هذه الحملة، ونتيجة لهذا الدعم القوي، تمكَّن المنصور من دحر صاحب الحمار، وقتل زهاء أربعين ألفاً من جيشه، وقتله وصلبه على بوابة مدينة المهدية، كما شارك زيري في قمع المعارضين للخلافة الفاطمية في عهد المُعز لدين الله، وعلى الخصوص في الحملة التي قادها جعفر الصقيلي.

مقتل زيري بن مناد

كان زيري بن مناد على خلاف مع والي الدولة الفاطمية على الزاب والمسيلة، جعفر بن علي بن حمدون الذي ينحدر من قبيلة بنو برزال الزناتية، وبذلك نشأت الخصومة بين جعفر وزيري بن مناد وابنه بلكين. وبالرغم من محاولة الخلافة الفاطمية

إحتواء جعفر وإصلاح العلاقة بينه وبين زيري، إلا أن جعفراً كان دائماً يتمنَّع عن مدّ يد العون لزيري أو مساعدته لمُحاربة بعض فروع قبائل زناتة، كما لم يأخُذ أي تدبير لإزالة دسائس النفوذ المعادي للدولة الفاطمية.

وبعد مُدّة من الزمن استدعى الخليفة الفاطمي المُعز جعفراً، فلم يُلبّي دعوته، فأرسل له المُعز رسولاً للمرّة الثانية، عندها خاف جعفر وغادر عاصمته مع أخيه يحيى وحاشيته وعبيده وأمواله قبل وصول الرسول، وانضم إلى صفوف زناتة الذين سُرّوا بمقدمه اليهم، فعيّنوه قائداً عليهم. وبذلك، أعلن جعفر عن تمرَّده الصريح على الدولة الفاطمية، ثم عقد حلفاً مع الدولة الأموية في الأندلس، وحارب الخلافة الفاطمية نيابة عنها. وعندما سمع زيري بذلك، جمع جيشاً كبيراً وتوجّه لمُلاقاته، فالتقى الجمعان بوادي ملوية، فكانت الغلبة لجعفر، وقُتل زيري سنة ٩٧١م/ ٣٦٠هـ، وأُرسل برأسه إلى الخليفة الأموي في الأندلس الحكم المستنصر بالله.

ولكن بالرغم من تمرُّد جعفر بن حمدون على الخلافة الفاطمية، إلا أن الخليفة الفاطمي المُعز بالله رأى أن مُهادنته أفضل من مُعاداته لِما كان يتمتَّع به من نفوذ قوي في عموم بلاد المغرب وبين قبائل زناتة التي كانت تدين له بالولاء المُطلق، لذا، فلم يجد المُعز من مفرّ إلا أن يُقرّه على ولايته للحفاظ على علاقة ودّية معه. وعندما عزم المُعز على الانتقال إلى القاهرة، عرض على جعفر أن يحلّ مكانه على القيروان وكافَّة الولايات التابعة للخلافة الفاطمية في إفريقية وبلاد المغرب، لكن جعفر وضع شروطاً قاسية لم يقبل بها المعز، كما سنأتي لتناوله في سياق هذا الفصل.

بلكين بن زيري (ت ٩٨٤م)

بعد وفاة زيري أقرَّت الخلافة الفاطمية ابنه القائد الصنهاجي القوي بلكين بن زيري بن مناد على إفريقية والمغرب الأوسط مكان أبيه، وكان يُعرف بلكين أيضاً باسم يوسف بن زيري، وحسب رواية ان خلدون(١)، فإن الخليفة المُعز هو الذي سمّاه

(١) ابن خلدون، العبر، ج٦، ص٣١٧.

يوسف بدلاً من بلكين، وكنّاه أبو الفتوح، ولقّبه بـ سيف الدولة، كما أطلق الفاطميون عليه ألقاباً، مثل: بلكين بن يوسف، وسيف العزيز بالله. وكان بلكين كأبيه زيري، قائداً فذّاً، وسياسياً مُحنّكاً، فهو من أعظم أمراء صنهاجة وأكثرهم ولاءً للخلافة الفاطمية. وكان أكبر حدث في ولاية بلكين، هو استخلافه على كافّة ولايات بلاد المغرب الكبير في شمال إفريقيا بعد انتقال مقر الخلافة الفاطمية إلى القاهرة.

وكان الخليفة الفاطمي المُعز بالله قبل انتقاله إلى القاهرة في حيرة من أمره فيمن سيخلفه في بلاد المغرب، ففي بداية الأمر وقع اختياره على جعفر بن علي بن حمدون، وذلك لِما يتمتّع به من نفوذ كبير، حيث كانت تدين له قبائل زناتة كافَّة، لكنه عدل فيما بعد لتخوفه من الانقلاب عليه والاستقلال عن الخلافة الفاطمية، واختار بدلاً منه بلكين بن زيري. وفي ذلك يقول المقريزي: «ولمّا عزم المُعز على السير إلى مصر، أجال فكره فيمن يخلفه في بلاد المغرب، فوقع اختياره على الأمير جعفر بن علي بن حمدون، فاستدعاه وأسرَّ إليه أنّه يُريد استخلافه بالمغرب، فقال له جعفر، تترك معي أحد أولادك أو إخوتك، ليجلس في القصر وأنا أُدبِّر، ولا تسألني عن شيء من الأموال؛ لأن ما أجبيه يكون بإزاء ما أنفقه، وإذا أردت أمراً فعلته من غير ورود أمرك فيه لبعد المسافة ما بين مصر والمغرب، ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره إليّ. فغضب المُعز، وقال: يا جعفر عزلتني عن مُلكي وأردت أن تجعل لي فيه شريكاً في أمري، واستبددت بالأعمال والأموال دوني، قُم فقد أخطأت وما أصبت رشدك»[1].

ثم استدعى بلكين، وقال له تأهَّب لِخلافة المغرب، لكن بلكين أكبر ذلك، وقال: يا مولانا أنت وآباؤك الأئِمّة من ولد الرسول صلى الله عليه وسلم، ما صفا لكم المغرب، فكيف يصفو لي وأنا صنهاجي بربري، قتلتني يا مولانا بغير سيف ولا رمح، فما زال به المُعز، حتى أجاب شريطة أن يولي المُعز القضاء والخراج لمن يراه ويختاره ويثق به، فأحب المُعز ما قاله وشكره. فلما انصرف، قال أبو طالب بن القائم بأمر الله للمُعز: يا

(١) المقريزي، الخطط المقريزية، ج١، ص١٥٧-١٥٨.

مولانا، وتثق بهذا القول من يوسف (أي بلكين)، وإنه يقوم بوفاء ما ذكره! فقال المُعز: يا عمّنا، كم بين قول يوسف وقول جعفر، فاعلم يا عم أن الأمر الذي طلبه جعفر ابتداء هو آخر ما يصير إليه أمر يوسف، وإذا تطاولت المُدّة، سينفرد بالأمر، ولكن هذا أولاً أحسن وأجود عند ذوي العقل، وهو نهاية ما يفعله.

وهكذا، تم تنصيب بلكين كوالٍ على إفريقية في أواخر شهر ذي الحجة سنة ٣٦١هـ/ ٩٧١م، ليبدأ بذلك عهد الدولة الزيرية الصنهاجية، ومن ثم انتقل الخليفة المعز مطمئناً إلى عاصمته الجديدة القاهرة، واتّخذ بلكين مدينة أشير جنوب المهدية عاصمةً له.

وبالرغم من الولاء الذي أبداه بلكين للخلافة الفاطمية، إلا أن المُعز رأى أن يُبقي أنصار آخرين غير بلكين للفاطميين في بلاد المغرب، خوفاً من إعلان بلكين الاستقلال عن الخلافة الفاطمية بعد رحيل الخليفة إلى مصر، فقد أبقى صقلية خارج سلطة بلكين، وكان يتولاها أبي الحسن الكلبي، وكذلك طرابلس، التي كان يتولاها عبد الله بن يخلف الكتامي. كما عيَّن المُعز زيادة الله عبد الله بن القديم على الجباية لبلكين، وطلب زيادة الله من بلكين أن يُعيّن عاملاً يُساعده في تسيير الأمور، فولّى عبدالله بن الكاتب التميمي، الذي كان كاتباً بديوان الإنشاء، فرفض ابن القديم ذلك، ولكن استدعاه بلكين وهدده، ثم وقع بعد ذلك صراع بين العامِل الجديد والمسؤول عن الجباية، انتهى بقتل زيادة الله بن القديم، وبذلك تخلَّص بلكين من أحد كبار الموظفين الذين عيّنهم المعز قبل رحيله إلى مصر.



مجسم تخيلي لبلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي

الصراع بين صنهاجة وزناتة

كان تعيين بلكين والياً وأميراً على بلاد المغرب بمثابة تطوّر جديد على بلاد المغرب، وهو حُكم الأمازيغ لأنفسهم، ولكن هذا التطور أشعل الصراعات بين القبائل الأمازيغية، فنشب الخلاف بين فرعي القبائل الأمازيغية الكُبرى في بلاد المغرب، حيث اشتبكت القبائل الصنهاجية مع الزناتية، وكانت بعض أسباب الصراع هو تفضيل المُعز للصنهاجيين على حكم المغرب، مما أوغر صدور القبائل الزناتية التي كانت ترى نفسها أنها ذات زعامة وشكيمة قويّة لا تقل عن أبناء عمومتهم الصنهاجيين.

كما أدَّت تولية بلكين على المغرب إلى إثارة الغيرة لدى جعفر بن علي بن حمدون، زعيم القبائل الزناتية والزاب، الذي كان يتأرجح في ولائه بين الفاطميين والأمويين في الأندلس، حتى بلغت به الغيرة إلى حد شقّ عصا الطاعة بشكل نهائي للفاطميين، وإعلان التبعية المطلقة للخلافة الأموية بالأندلس، وتبعته الكثير من القبائل الزناتية التي أسقطت ولاءها للفاطميين وأعلنت ولاءها للأمويين.

عند ذلك، عزم بلكين على الانتقام من جعفر ومن تبعه من زناتة، إذا كان بلكين في الأصل على عداء شخصي مع زناتة، وعلى رأسهم جعفر بن حمدون الذي قتل والده زيري بن مناد، وبعث برأسه إلى الخليفة الأموي في الأندلس، كما ذكرنا سابقاً. كما وجد بلكين المباركة من الخليفة المعُز قبل رحيله للقاهرة لقمع القبائل الزناتية، حيث أوصاه بالشدّة والغلظة، وبوصية، جاء فيها: «إيّاكَ أن ترفع الجباية عن أهل البادية، ولا ترفع السيف عن البربر، ولا تولّي أحداً من أخوانك وبني عمَّك، فإنهم يرون أنّهم أحقّ بهذا الأمر منك، واستوصاه بالحضر خيراً»[1].

وبذلك، فقد بدأ بلكين عهده بشن حرب ضروس ضد الزناتيين الذين عادوا لثورتهم في المغرب الأوسط والأقصى على حدٍ سواء، وتمكَّن من دحرهم في المغرب الأوسط وتخريب تاهرت وتلمسان، مركزيّ التمرّد الرئيسيين، ونقل من وقع في يده

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج٦، ص٣٤.

منهم إلى مدينة أشير لمراقبتهم عن كثب. أمّا جعفر، فقد لجأ فيما بعد إلى الدولة الأموية في الأندلس، لكنه قُتل غيلةً على يد حاجب الدولة الأموية، المنصور، محمد بن أبي عامر، الحاكم الفعلي للخلافة الأموية في الأندلس في عهد الخليفة هشام المؤيد بالله (٩٦٦م-١٠١٣م)، وقد لاقت جهود بلكين هذه ارتياحاً لدى الخلافة الفاطمية، فأضاف إليه الخليفة الفاطمي آنئذٍ العزيز بالله برقة وطرابلس الغرب، وعيَّن بلكين عليها عامله يحيى بن خليفة الملياني.

وواصل بلكين حربه ضد الثورات الزناتية، ففي سنة ٣٦٦هـ استولى حزرون بن خزر الزناتي، زعيم قبيلة مغراوة الزناتية على سجلماسة، ونصَّب نفسه أميراً عليها، فسيَّر بلكين جيشاً إلى سجلماسة، وأعادها إلى حكمه بعد مقتل حزرون، وأخضع عِدّة مُدن أُخرى، مثل البصرة، أصيلا، وشالة. كما تمرَّد سُكّان تاهرت، فتحرك بلكين إليهم، فقضى على التمرُّد، وأخضع تاهرت وأعادها لحكمه، ومن ثم توجَّه إلى تلمسان، فشتت جموع الزناتيين، وقضى على تمرّدهم، كما توجّه نحو بلاد المغرب الأقصى، فحاصرها، ومن ثم دخل فاس سنة ٣٦٨ه، وعيّن عليها محمد بن عامر المكناسي.

توفي بلكين في عام ٩٨٣م/ ٣٧٣هـ بعد عودته من إحدى انتصاراته ضد القبائل الزناتية وحلفائهم الأمويين في قرطبة في بلاد ورلنغوا الواقعة بين سجلماسة وتلمسان، وتولَّى الخلافة بعده ابنه المنصور.

أبو الفتوح المنصور بن بلكين (ت ٩٩٥م/٣٦٨هـ)

تولَّى المنصور الحكم سنة ٩٨٣م/ ٣٧٤هـ بعد وفاة أبيه بلكين، كوالٍ للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب، حيث ثبّته الخليفة الفاطمي العزيز بالله على ولاية إفريقة وسائر بلاد المغرب وكان قبل ذلك والياً على آشير. واتّخذ المنصور عاصمة جديدة سمّيت باسمه «المنصورة»، وسلك مسلك أبيه في الحزم، كما لقي دعماً قويّاً من

الخليفة الفاطمي العزيز بالله. وولّى المنصور شقيقه حمّاد على آشير[1] والمسيلة، وذلك حتى يتصدَّى الآخير لقبائل زناتة التي كانت مُتحالفة مع الأمويين، كما ذكرنا، كما ولّى أخاه الآخر يطوفت على المغرب الأوسط، وعمّه (أبو البهار) على تاهرت.

بعد توليه الإمارة، وجد المنصور نفسه يواجه قوّتين، زناتة وكتامة في المغربين الأوسط والأقصى، فقد جمع القائد الزناتي، زيري بن عطية قبائل زناتة حوله، وبسط نفوذه على مُعظم بلاد المغرب الأقصى، بعد أن أزاح قبيلة مكناشة عن مضاربها، وتدخَّل في شؤون الدولة الزيرية، وقدَّم خدمات جليلة للمنصور بن أبي عامر، صاحب قرطبة في إخماد ثورة الأدارسة وأعوانهم الزناتيين من قبيلة بني يفرن، كما ذكرنا في الفصل الثاني من الكتاب، وأصبح زيزي يشكل تهديداً مُباشراً على الدولة الزيرية والفاطمية على حدٍّ سواء، لا سيما بعد أن قضم أراضٍ كانت تابعة للزيريين، كفاس وسلجلماسة. عند ذلك، أرسل المنصور شقيقه حمّاداً إلى المغرب الأقصى لاسترداد مدينتي سجلماسة وفاس من زناتة، لكنه فشل في هذه الحملة، وعاد أدراجه إلى آشير بعد أن تصدّت له زناتة بكل قوّة تحت قيادة زيري بن عطية.

وفي عهد المنصور، بدأت العلاقة تفتر مع الخلافة الفاطمية، بالرغم أن العلاقة كانت في أوج صفائها في عهد سلفه، إذ جعل المنصور تبعيته للخلافة الفاطمية اسمية فقط، وكان يرى نفسه أميراً على رأس دولة، لا والياً تابعاً للفاطميين، وقد عبَّر عن هذا الطموح لشيوخ القبائل الذين حضروا لتهنئته في القيروان عندما قال لهم: «إن أبي وجدّي أخذا الناس بالسيف قهراً، وأنا لا آخذهم إلا بالإحسان، وما أنا في هذا المُلك ممن يولَّى بكتاب ويُعزل بكتاب، لأنني ورثته عن آبائي وأجدادي الذين ورثوه عن آبائهم حِميَّر»[2].

---

(١) آشير: وتُعني المخلب، تأسست في عام ٩٣٦م/ ٣٢٤هـ على يد زيري بن مناد الصنهاجي، وفيما بعد اتّخذها بلكين عاصمة لإمارته لوفرة المياه فيها ولإطلالتها على سفوح الجبال المُحيطة بها. وتتمتَّع آشير بموقع استراتيجي في المغرب الأوسط (الجزائر) على سفح جبل التيطري (الكاف الأخضر) الذي يبلغ إرتفاعه حوالي ١٤٠٠ متر فوق مستوى سطح البحر. وبلغت آشير خلال الحكم الزيري الصنهاجي ذروة الإزدهار لتصبح مركزاً علميّاً مرموقاً ومقصداً للأدباء والعلماء.

(٢) ابن عذاري،ج١، ص٣٤٣، ابن الأثير ج١، ص١٢١.

وقد ساءت علاقة المنصور بالفاطميين بشكل مُتسارع، إذ بدت بوادر نيّة انفصاله عن الفاطميين جليّة، كما فقدت الخلافة الفاطمية بدورها الثقة به وقررت التخلُّص منه، ولكن بشكل غير مُباشر، لمعرفتها بعدم قدرتها على عزله، فأخذت بإثارة قبائل كتامة القويّة عليه. ففي سنة ٣٧٦ه أوفد الخليفة الفاطمي العزيز بالله قائداً يُدعى أبو الفهم الخراساني إلى قبائل كتامة لتحريضها على العصيان والتمرُّد على الإمارة الصنهاجية، وفعلاً نجح في إثارة أكثر الثورات صعوبة والتي هددت وجود الإمارة الصنهاجة، فعمل أبو الفهم على استمالة أعداداً كبيرة من هذه القبائل إليه، وأسس جيشاً قويّاً، وضرب النقود باسمة وقوية شوكته، وتلقّى دعماً قوياً من الخلافة الفاطمية. وبعد أن خشي المنصور من تزايد نفوذ أبو الفهم، الذي شكَّل تهديداً خطيراً على الإمارة الصنهاجية، أرسل إلى الخليفة الفاطمي العزيز باللّه يشكوه من تعاظم أمر أبي الفهم، لكن الخليفة الفاطمي نهاه عن التعرُّض إليه أو لقبائل كتامة بأي سوء. عند ذلك أغلظ المنصور القول للخليفة، وفي سنة ٣٧٨هـ جهّزَ جيشاً لمحاربة كتامة، وتمكَّن فعلاً من هزيمة أبي الفهم وتشريد جيوشه، وتخريب مدينة ميلة. وبالرغم من هذا الانتصار، واصلت قبائل كتامة تمردها بعد أن وقع نزاع بين المنصور وصاحب القيروان عبد الله بن القطب، زعيم كتامة، والذي كان مدعوماً أيضاً من الخلافة الفاطمية، لكن المنصور تغلّب عليه وألحق به هزيمة ماحقة وقتله، مما أزعج الخلافة الفاطمية في القاهرة، وتسبب ذلك بثورة عرمة لقبائل كتامة.

بعد هذه الحوادث، أحسَّ الخليفة الفاطمي العزيز بالله أن هذا الأُسلوب لا يُجدي نفعاً مع الصنهاجيين، فغيَّر من نهجه، وقرر اتّباع سياسة المهادنة معهم، ففي سنة ٣٨٤ه، أرسل لهم الهدايا الفاخرة، وبدت هُناك علاقة طيبة ظاهرياً بين الطرفين.

وفي عام ٩٨٩م/ ٣٧٩هـ ثار عم المنصور، أبو البهار، حاكم تاهرت، فسيّر المنصور إليه جيشاً، ففرَّ أبو البهار للمغرب، وأخذ يُغري الدولة الأموية في الأندلس على سلب حكم ابن أخيه، لكن المنصور تمكَّن من إخماد هذه الثورة، ومن قتل أبي البهار، وولّى

من بعده على تاهرت أخاه يطوفت، وفيما بعد عهد بحكم تاهرت إلى أخيه حمّاد. توفي المنصور سنة ٩٩٥م/ ٣٨٦هـ، بعد أن حكم لمدّة اثني عشر عاماً، شهدت فترة حكمه الكثير من الثورات والقلاقل، وخلفه على الحكم ابنه باديس بن المنصور.

باديس بن المنصور (٩٨٤م-١٠١٦م)

بعد وفاة المنصور، وليَّ ابنه باديس، بعد أن أقرّته الخلافة الفاطمية، وقد أسبغ الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله عليه لقب نصير الدولة. وبعد تسلّمه مقاليد الحكم، ثبَّت عمّه يطوفت على تاهرت وعمّه حمّاد على آشير والمسيلة. وقد استبدَّ باديس بالحكم حتى خافه الناس، ففي عهده فرّ الكثير من بلاد المغرب إلى الأندلس، ووقعت عِدّة فتن مع أعمامه ومع الخلافة الفاطمية، وبدت ملامح الاستقلال بالدولة الصنهاجية الزيرية تلوح بالأُفق من جديد، وعلى إثر ذلك، أوعز الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله آنئذٍ إلى واليه على برقة، يانس العزيزي يأمره بالاستيلاء على طرابلس - التي كانت تابعة لباديس، وهذا ما حصل، مما أوغر صدر الزيريون على الخلافة الفاطمية. وفيما بعد، تمكَّن باديس من استعادة طرابلس وهزم الجيوش الموالية للفاطميين هُناك، ومن ثم أعاد الحاكم بأمر الله الكرَّة من جديد، وأوعز إلى قبيلة زناتة التي احتلت طرابلس، لكن مالبث أن استعادها باديس للمرّة الثانية. وبعد فشل كُل هذه المحاولات، عادت الخلافة الفاطمية إلى سياسة المُهادنة مع الزيريين، فتبادل الحاكم بأمر الله الهدايا مع باديس، وشهدت العلاقة ودّاً ظاهرياً.

وفي فترة حكم باديس، عظم خطر زناته، وتهديدها للزيريين والفاطميين على حدٍ سواء، ففي أوائل سنة ٩٩٨م/ ٣٨٩هـ، زحف زيري بن عطية بن عبدالله بن خزر (ت ١٠٠١م)، زعيم قبائل مغراوة الزناتية في جيش عظيم إلى تاهرت التي كانت تحت ولاية يطوفت عم باديس، فحاصرها، فكتب يطوفت إلى ابن أخيه باديس يستغيث به، فبعث إليه محمد بن العرب في جيش كبير، فوصل إلى آشير، واتّصل بحمّاد بن بلكين للانضمام إليه لدحر الزناتيين عن تاهرت، وفِعلاً، تجهّز حمّاد وخرج بعد أيام

مع محمد ابن أبي العرب في عسكره، فوصلا إلى تاهرت، وتآزرت هذه القوات مع جيش يطوفت المُحاصر. وبالرغم من كثافة الجيوش الصنهاجية الثلاثة، تمكَّن زيري بن عطيّة، زعيم الزناتيين من دحرها وتحقيق نصر مؤزَّر. وكانت هذه أوَّل هزيمة مريرة يواجهها باديس، وهي سقوط تاهرت على يد القائد زيري بن عطية الزناتي. وعلى إثر هذه الهزيمة، انسحب عمّه يطوفت من تاهرت إلى آشير، ولكن بعد فترة من الزمن، نجح باديس في استعادة مدينة تاهرت.

وبعد وفاة زيري بن عطية سنة ١٠٠١م/ ٣٩١هـ، بايعت قبائل مغرواة الزناتية وسائر قبائل زناتة ابنه المُعز بن زيري بن عطية (ت ٤٢٢هـ)، حيث تصالح المُعز مع المنصور بن ابي عامر، حاجب الخليفة الأموي في قُرطبة، هشام المؤيد باللّه بعد أن ساءت العلاقة مع المنصور في أواخر حياة أبية نتيجة استئثار المنصور بالحكم دون الخليفة الأموي الشرعي.

وبدعم من الدولة الأُموية في قُرطبة، واصل المُعز بن زيري سياسة والده في مُحاربة الإمارة الزيرية الصنهاجية ومُعاداته للخلافة الفاطمية، فقد هاجم المغرب الأوسط، وأخذ يمدّ سلطانه على هذه المناطق. وبعد أن تعاظم خطر زناتة على الإمارة الصنهاجية، قرر باديس الوقوف بحزم ضد الزناتيين، ففي سنة ١٠٠٤م-١٠٠٥م/ ٣٩٥هـ أمر عمّه حمّاد وعامله على آشير بقتال الجيوش الزناتية الغازية، وأغراه بتوليته على المغرب الأوسط وجميع المُدن التي يفتحها مُقابل دحر الزناتيين. وفعلاً، نجح حمّاد في الانتصار على الزناتيين وإرجاع المُعز بن زيري وقواته للمغرب الأقصى. وكمكافأة له على هذه الانتصارات، وافق باديس على طلب عمّه حماد لبناء القلعة في المسيلة سنة ١٠٠٧م-١٠٠٨م/ ٣٩٨هـ، وشيَّد حمَّاد القلعة وحصَّنها بسور يمتدّ حول جبل كتامة[1] باستدارة تبلغ سبع كيلو مترات، وأصبحت القلعة فيما بعد عاصمة للإمارة الحمّادية الصنهاجية التي انفصلت عن الإمارة الزيرية.

---

(١) عُرف جبل كتامة بجبل عجيسة، وأصبح يُعرف فيما بعد بجبل عياض بعد أن غزته قبيلة عياض إحدى بطون القبائلِ الهلالية.

انقسام الإمارة الصنهاجية

بعد انتقال مقر الخلافة الفاطمية إلى القاهرة، أصبحت بلاد المغرب ولايات تابعة للخلافة الفاطمية، إلا أن هذه التبعية لم تكن بتلك القوّة، بل أخذت تضعف شيئًا فشيئًا إلى أن صارت تبعية شبه اسميّة. وكانت الإمارة الزيرية الصنهاجية في إفريقية والمغرب الأوسط من أهم الولايات بالنسبة للفاطميين، إذ أقرَّت الخلافة الفاطمية حُكم الأسرة الزيرية الصنهاجية وأحفادها على هذه المناطق، لا تنازعها إياها، مُقابِل محافظتها على التبعية للخلافة الفاطمية وتزويدها بالجباية والمُحافظة على استقرار الخلافة ومُحاربة أعدائها، ولكن ما لبث أن دبّت النزاعات والصراعات على الحكم بين أبناء العمومة في الأُسرة الصنهاجية في عهد باديس بن المنصور، الذي واجه ثورة عارمة قادها أعمام أبوه، ماكسن، وزاوي بن زيري (ت ١٠١٩م) وقخنين. فعندما كان باديس بمدينة المسيلة بصحبة عم أبيه أبي البهار بن زيري، أتاه خبر ثورة أعمام أبيه عليه، فأمر باديس عمّه حمّاد بقمع الثورة، وفعلاً وقعت حرب شرسة بين حمَّاد وماكسن، حيث قُتل ماكسن سنة ٣٩١ هـ، وثلاثة من أولاده، محسن وباديس وحباسة، أمّا زاوي وبقيّة أعمامه، فلجأوا إلى جبل ثنوة، ومن ثم فرَّوا إلى الأندلس، حيث تآمروا فيما بعد على غرناطة لفترة من الزمن، وتوارث بنو زيزري حكم إمارة غرناطة لغاية عام ٤٨٣هـ، حتى مجيء المرابطين.

الحرب بين باديس وحمّاد

ظلَّت العلاقة بين باديس وعمّه حماد حسنة لفترة طويلة، وبقي حمّاد مواليـًا لابن أخيه، ويصف ابن عذاري علاقة باديس بحمَّاد، «أنه في شهر آذار سنة ٩٩٧م/ ٣٨٧هـ، عقد باديس ولاية أشير لحمّاد بن أبي الفتوح، فخرج عاملاً عليها، وأعطاه خيلاً كثيرة وكسي جليلة.» ولكن فيما بعد أخذت العلاقة تفتر بينهما، فبعد أن بنى حمَّاد مدينة القلعة، استبدَّ بالحُكم، وعظم ملكه، وكثرت حروبه ضد زناتة من مغراوة وبني يفرن،

وسيطر على إمارة الزاب وجبل تيطري وبجاية وقسنطينة، والجزائر وأعمالها، وما فتحه من بلاد زناتة، وأصبح شبه مُستقل عن ابن أخية باديس.

عند ذلك، تسرَّب الشكّ لدى باديس حول مدى ولاء عمّ أبيه حمّاد، وزادت مخاوفه من استقلال حمّاد وانقسام الدولة الصنهاجية، لا سيما أن حمّاداً أخذ يتصرَّف بكثير من الاستقلالية دون الرجوع إلى باديس في كافّة قراراته، وكانت هُناك الكثير من المؤشرات تدل على نية تمرُّده، فأراد باديس أن يحسم هذا الجدل ويختبر ولاء حماد إليه، فأرسل إليه كتاباً يطلب منه التنازل عن مدينة قسنطينة وتيجس وبعض المدن المجاورة لها، وأن يُسلِّم له القصر الإفريقي، فأبى حمَّاد الرضوخ لطلبه، عند ذلك تيقَّن باديس من شكوكه. وكان رفض حمّاد لطلب باديس بمثابة القشّة التي قصمت ظهر البعير، وأدرك باديس أن حمّاداً قد نبذ الطاعة له، وساءت العلاقة بينهما إلى حدٍ بعيد.

ورأى باديس ضرورة استعادة سطوته على كافَّة البلاد الصنهاجية، فعزم على حربه لاستعادة وحدة الدولة، فجهّز جيشاً كبيراً، ودخل في حرب ضروس مع حمّاد. وبذلك، انقسمت الدولة الصنهاجية بشكل صريح إلى دولتين، دولة آل منصور بن بلكين (الدولة زيرية) في إفريقية، وعاصمتها القيروان، ودولة آل حمّاد (الدولة الحمادية) في المغرب الأوسط (الجزائر)، وعاصمتها القلعة في المسيلة، ثم بجاية فيما بعد. وأصبحت الإمارة الحمادية ثالث دولة مُستقلّة في المغرب الأوسط، حيث امتدّت من فاس غرباً إلى تونس شرقاً، ومن البحر إلى ورقلة، واشتملت على مناطق ذات أهمية استراتيجية، بما في ذلك قسنطينة وتيجس.

لم يتمكّن باديس من قهر حمّاد، الذي واصل العداء للإمارة الزيرية، وتصدّى كذلك لغارات قبائل زناتة التي تمرّدت عليه في عام ٣٩٥هـ. ووجد باديس من هذه الثورة فرصة سانحة لفتح جبهة جديدة عليه واستئصال شأفته، ففي شهر شوال من عام

٣٩٥هـ، سيَّر باديس جيشـاً إلى حمّاد بقيادة إبراهيم بن يوسف سيف الدولة بلكين، أخو حمّاد، لكنه خيّب أمله، فانضم إلى أخيه حمّاد بدلاً من محاربته.

ومن ثم استمر النزاع سجالاً بين الإمارتين الصنهاجيتين، الزيرية والحمادية، وفي سنة ٤٠٥ه، نبذ حمّاد مذهب الشيعة الإسماعيلي الفاطمي العبيدي، وأظهر مذهب السنة، ونادى بالدعوة للعباسيين في بغداد، عند ذلك لقي باديس دعمـاً قويـاً من الخلافة الفاطمية في حربه على حمّاد، وفي ذلك يقول ابن الخطيب في كتابه أعلام العلام: «استمر حمّاد في موالاة العباسيين حتى وفاته، وهو ما يؤكّد من أن ممثل العباسيين لدى الزيريين لجأ إلى القلعة سنة ١٠٥٤م-١٠٥٥م/ ٤٤٦هـ»[1].

وعندما أدرك الفاطميون أن الخلافة العباسية بدأت بسحب البساط من تحتها لتسيطر على الأقاليم التي عُرفت تاريخيـاً بأنها مسقط رأس الخلافة الفاطمية، أصدر الخليفة الفاطمي أوامره إلى باديس للقضاء على الإمارة الحمّادية، واستئصال شأفتها، وإعـادة ضم كافَّة أراضيها للخلافة الفاطمية. وعلى إثر ذلك، واصل باديس قتال حمّاد، ومن أكثر المعارك دموية بينهما، هي معركة وادي شلف سنة ٤٠٦هـ، حيث جهَّز باديس جيشـاً كبيراً، وسار لقتال حماد عند وادي شلف، وانتصر باديس في هذه المعركة، وانهزم حمَّاد بخمسمائة من فرسانه تاركـاً معسكرات جيشه التي سيطر عليها باديس، وقُتل بهذه المعركة العديد من الرجال، وأسرت النساء، وغنم باديس عشرة آلاف درقة وغنائم كثيرة.

بعد هذه المعركة، رحل باديس مزهوّاً بنصره من تامديت ومرَّ بمدينة دكمة، فخضع له عدد كبير من أحلاف حمَّاد، بعد ذلك نقم حمّاد على أهلها وأعمل السيف فيهم، فقتل ثلاثمائة رجل، فجاءه أحد فقهاء المدينة واسمه أحمد بن توبة، فخوّفه بالله ووعظه، وقال له: «يا حمَّاد، إذا لقيت الجموع هربت منها، وإن قاومت الجيوش

(١) السلماني، لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام، التحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية.

فررت عنها، إنما قُدرتك وسلطانك على أسير يكون بين يديك، لا نصير له عليك». فلما سمع كلامه، أمر بضرب عنقه، ثم خرج عليه شيخ صالح، وقال له: «اتّق الله، فإني حججت حججتين»، فرد عليه، «وأنا أزيدك عليها بالشهادة»، وأمر بضرب عنقه.

ثم واصل باديس حربه ضد الحماديين، فشنَّ حرباً بلا هوادة ضد حمّاد، الذي تراجع إلى مدينة أشير ليتحصَّن بها، ولكن والي المدينة هُناك، خلف الحميري، رفض فتح أبواب المدينة له مُعلناً الطاعة لباديس، عند ذلك اضطر حمَّاد لمواصلة السير إلى تاهرت. وهكذا استمرَّت المعارك بين باديس وحمّاد إلى أن توفي باديس في عام ١٠١٦م في المسيلة أثناء حصار قلعة حمّاد، وخلفه على الحكم ابنه المعز بن باديس.

المُعز بن باديس (١٠٠٨م-١٠٦٢م)

المُعز بن باديس الصنهاجي، شرف الدولة، من أهم أُمراء بني زيري الصنهاجيين، وكانت ولادته في مدينة المنصورة، وحكم إفريقية والقيروان لمدة ٤٧ سنة، مُنذ عام ١٠١٥م/ ٤٠٦هـ إلى ١٠٦١م/ ٤٥٣هـ، وكانت فترة حكمه من أطول فترات العهد الزيري، ونودي به أميراً على إفريقية يوم السبت، الثالث من ذي الحجة، سنة ١٠١٦م/ ٤٠٦هـ، بعد وفاة أبيه بثلاثة أيام أثناء حصار القلعة، وذلك بإقرار وموافقة الخليفة الفاطمي، حيث أبقى الخُلفاء الفاطميين على الأُسرة الزيرية الصنهاجية على تونس وإفريقية، وذلك لما أبلوه في خدمة الخلافة الفاطمية مُنذ نشأتها، على الرغم من برود العلاقة بين الفينة والأُخرى كما أسلفنا سابقاً.

عندما وليَّ المُعز الحُكم، كان صبياً يافعاً لم يتجاوز عمره وقتئذٍ سبع سنين، وبذلك فقد تم تعيين وصيّ عليه يُدعى كرامة بن المنصور، وهو من القادة الصنهاجيين البارزين والمخلصين للدولة الزيرية الصنهاجية، وأصبح المُعز فيما بعد من أكثر الزيريين مهابة وشجاعةً، وأسبغت عليه الخلافة الفاطمية لقب شرف الدولة. وفي عهده جرت أحداث كبيرة على إفريقية والقيروان وباقي بلدان المغرب، كالاستقلال بإفريقية

عن الخلافة الفاطمية، وما تبعها بعد ذلك من أهوال نتيجة تسيير القبائل الهلالية إليه للقضاء على إمارته.

وقد أمعن جهابذة المؤرخين والفلاسفة في وصف المعز بن باديس، فقال عنه الذهبي، صاحب إفريقية، المعز بن باديس بن منصور بن بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي المغربي، شرف الدولة، ابن أمير المغرب، «كان ملكـاً مهيباً، وسرياً شجاعـاً، عالي الهمّة، مُحباً للعلِم، كثير البذل، مدحه الشعراء». من أشهرهم أبي شرف القيرواني، وكان المعز أديباً مُثقفـاً، وله كتاب بعنوان: «عُمدة الكتّاب وغرة الألباب».

الصلح بين الإمارة الزيرية والحمّادية

بعد وفاة باديس، حاول حمّاد مُهاجمة الإمارة الزيرية مُستغلًّا صغر سن المعز بن باديس عند توليه الإمارة، وعدم درايته بعد بالحكم ودسائس السياسة، وكان من جملة الأخطاء التي وقعت بها الإمارة الزيرية هو رفع الحصار عن القلعة بعيد وفاة باديس، مما مكَّن حمّاد من تجميع قواته والخروج على رأس ألف وخمسمائة مُقاتِل لاستعادة بعض المناطق التي استولى عليها الزيريون، فالتقى مع كرامة بن المنصور، قائد الإمارة الزيرية، والذي كان يقود سبعة آلاف مُقاتِل.

وبالرغم من التفوّق العددي للجيوش الزيرية، إلا أن حمّاداً تمكَّن من دحرهم وتحقيق نصر مؤزَّر، ودخل آشير مُنتصراً، والتي كانت قد خرجت من سلطته فيما مضى، فقتل عدداً كبيراً من الموالين للزيريين، ولم يكتفِ باستعادة آشير، بل استولى على المسيلة، وهاجم مدينة باغية التي كان عليها أيوب بن يطوفت، وضرب عليها الحصار.

لقد كانت هذه الهزيمة بمثابة نكسة كبيرة للمعز بن باديس، فقرر استعادة هيبة الإمارة، ففي سنة ١٠١٧م/٤٠٨هـ، جهّزَ جيشـاً كبيراً وزحف به إلى الحماديين،

وأبلى بلاءً حسنـًا، فانتصر على حمّاد، وقتل العديد من جنوده وكبار قادته، وأسر أخاه إبراهيم، وجُرح حمّاد بهذه المعركة، لكنه تمكَّن من النجاة بنفسه.

بعد هذه الهزيمة للحمّاديين، مال حمّاد إلى السلم لإنهاء هذا الصراع الطويل بين أبناء العمومة، فأرسل إلى المعز يطلب الصلح، ورأى المعز أن هذه فرصة يجب اغتنامها، فوافق على الصلح شريطة أن يبعث حمّاد ابنه «القائد» كضمان، وهذا ما حصل، وتم الصلح على ذلك بينهما، والاتّفاق على تقاسم بلاد المغرب بين الأُسرتين الصنهاجيتين، بحيث تسيطر الأُسرة الزيرية على المغرب الأدنى، والحمّادية على المغرب الأوسط، واستقلَّ حمَّاد بموجب هذا الاتّفاق بطبنة والزاب وآشير وتاهرت، وما يفتحه من بلاد المغرب، ورضي الجميع وتصاهروا، حيث زوَّج المُعز أُخته أُم العلو بعبدالله بن حمّاد، وذلك في شهر رجب سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م.

وذكر ابن عذاري مناسبة المصاهرة هذه، حيث قال: «فلمّا كان يوم الأربعاء غُرّة شهر شعبان المُكرَّم...زُيّن الإيوان المُعظَّم للسيدة الجليلة أُم العلو، ودخل الناس خاصَّة وعامَّة، فنظروا إلى صنوف الجواهِر والأمتعة وأواني الذهب والفضّة، ما لم يُعمل مثله، ولا سمع أحد من الملوك قبله ...... وحُمِل المهر في عشرة أحمال على عشرة بغال، وعلى كل حمل جارية حسناء...، وزفّت العروس يوم الخميس، ومضى بين أيديها عبيد أخيها شرف الدولة وأخيها نصر الدولة، فكان يومـًا سارت الركبان بمحاسن أثاره وامتلأت البُلدان بعجائبه»[١].

وكان يُعلَّق على هذه المُصاهرة آمالاً كثيرة في سبيل تحقيق التقارب بين الإمارتين، الزيرية والحمّادية، وإنهاء الصراع بينهما، وقد استمرّت المودَّة بين أبناء العمومة لفترة زمنية طويلة نسبيـًا، قرابة ستة عقود، وتحقق استقرار نسبي على الرغم من تجدد الصراعات بين الطرفين فيما بعد، وهو ما سوف نتطرَّق اليه في الفصل الرابع من الكتاب. وفي شهر رجب سنة ٤١٩هـ/ ١٠٢٨م توفي حمّاد أثناء نُزهه خارج القلعة.

---

(١) مختار، د. حساني، تاريخ الجزائر الأوسط (الجزء الأول)، وزارة الثقافة، دار الهدى، الجزائر، ٢٠١٣م، ص٣٥.

تحوّل المعز إلى المذهب المالكي

بعد أن تولَّى المعُز الحُكم كان صبيّاً كما ذكرنا، فقام على توجيهه وتأديبة وزيره أبي الحسن بن أبي الزجال، ويذكر ابن عذاري أن أبا الحسن كان ورعاً وزاهداً، فعلَّم المُعز وأدّبه، ودلّه على مذهب مالك وأهل السنة والجماعة، وهذا ما ساعد على نشر المذهب المالكي المُعتدل الذي لقى قبولاً واسعاً في نفوس الأمازيغ. وكان الوزير أبو الحسن ظاهرياً على المذهب الشيعي الإسماعيلي الذي كانت تدين فيه غالبية سُكّان شمال إفريقيا التي تقع ضمن الخلافة الفاطمية، ولكنه كان يعتنق المذهب المالكي وأهل السنة والجماعة في السر، حيث لم يكن يجرؤ أي من الأُمراء أو الوزراء في شمال إفريقيا التصريح باعتناق أي مذهب غير المذهب الشيعي الإسماعيلي الفاطمي.

وفعلاً نجح الوزير في استمالة المُعز إلى المذهب المالكي، فبعد توليه الحكم، بدأ المُعز بالتحوُّل التدريجي عن المذهب الإسماعيلي بشكل سري، وذلك خشية من بطش الخليفة الفاطمي إذا ما علم بنيّته الحقيقية، فبدأ بإظهار مُعتقد السنة والجماعة. وأوعز فيما بعد للجنود بمنع كل من يسب الصحابة، وواصل التقرُّب إلى المالكيّة وفقهائها، مُبيتاً نيّته للانفصال عن الخلافة الفاطمية، فقرَّب فُقهاء المالكيّة إلى ديوان حكمه، والذين أثّروا في استمالة بعض الوزراء والأُمراء ورجال الدولة.

بعد ذلك بدأ المُعز في إظهار عدائه الصريح للإسماعيلية ولحُكّام مصر، حيث ظهر ذلك جليّاً عام ٤٣٥هـ عندما وسَّع قاعِدة أهل السنة في جيشه وديوانه ودولته، وبدأ بتطهير إمارته من المعتقدات المخالفة، فأوعز للجيش والعامَّة بقتل كُل من يشتم الصحابة، ولقي تأييداً واسعاً من أهل السُنّة، كما تحوَّلَت جموع كبيرة إلى المذهب السني.

يُعلل بعض المؤرخين سُرعة تحوّل إفريقية عن المذهب الإسماعيلي إلى المالكي إلى نشئة الأمازيغ الأصلية على الإسلام الذي اعتنقوه بعد الفتوحات الإسلامية لشمال إفريقيا، وكانت تبعية الصنهاجيين كغيرهم من القبائل الأمازيغية الأُخرى،

للدعوة الفاطمية لغايات سياسية بدون أن يكون للعوامل الاعتقادية الأُخرى شأن كبير لديهم، بدليل تغيُّر ولائهم حسب تغيُّر الأحوال. كما كانت هُناك العديد من الأسباب الجوهرية لهذا التحوُّل، فعندما تولَّى المُعز الحكم، كان الخليفة الفاطمي في تلك الفترة هو الحاكم بأمر الله الفاطمي (٩٩٦م/ ٣٨٦هـ-١٠٢١م/ ٤١١هـ) المثير للجدل بين أوساط الفُقهاء المسلمين، ففي عهده أفتى بعض الفقهاء المالكيين بتكفير من تشرَّق واتّبع الفاطميين حتى لو كان مُكرهـاً، وبسبب سيطرة الفُقهاء على العامَّة، فقد اندفع هؤلاء في منتصف شهر محرم عام ٤٠٧هـ إلى المُغالاة في معاداة الشيعة الإسماعيلية والحض على قتلهم، ثم امتدّ هذا الأمر إلى البوادي، ففرَّ السكان الشيعة إلى المدن الأُخرى، كالمهدية وتونس، وتفجَّرت هُناك فتنة طائفية واسعة النطاق، عند ذلك حاول المعز احتواء هذه الفتنة، فعزل والي القيروان منصور بن رشيق المُتّهم بالتعاطف مع أهل السنة، كما اضطر لقتل أبي علي بن خلدون، شيخ القيروان، والمتّهم بتحريض السنة على قتل الشيعة الإسماعيليين.

استقلال المُعز عن الخلافة الفاطميّة

بعد التحوُّل إلى المذهب المالكي، أخذ المُعز بن باديس بتقليص نفوذ الإسماعيليين في إمارته بشكل تدريجي، ومن ثم أعلن بشكل صريح المذهب المالكي كمذهب رسمي لإمارته، وأخذ في التقرُّب إلى العامَّة وعُلماء أهل السنة، وواصل تخطيطه للانفصال التام عن العُبيديين في مصر، ولكن بالرغم من ذلك، استمرَّت العلاقة بين الزيريين والفاطميين ودّية ظاهرياً في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، فبالرغم مما فعله المعز بالإسماعيليين الشيعة في المغرب، إلا أن الحاكم بأمر الله تغاضى عن ذلك، وقرر بأن لا يقطع شعرة معاوية مع الأمير الصنهاجي القوي. فبعد بضعة أشهُر من مذبحة الشيعة في افريقية والمغرب، أنعمَ الحاكم بأمر الله على المُعز لقب شرف الدولة وعضدها، وفي عام ٤١١هـ بعث له بهدايا ثمينة، وكان هذا يعكس اقتناع الخُلفاء الفاطميين باستحالة القضاء على القوّة الصنهاجية وانتزاع السلطة منهم، وفضّلوا

مهادنتهم وعلى بقائهم تابعين للخلافة الفاطمية، حتى لو كان اسمياً في حقيقة الأمر، واستمرَّت العلاقة كذلك بعد وفاة الحاكم بأمر الله واعتلاء ابنه الظاهر المُعز لدين الله كرسي الخلافة.

ولكن بالرغم من هذه المُجاملات، إلا أن المعز قرر في نهاية المطاف قطع علاقته بالخلافة الفاطمية والإستقلال التام عنها، لا سيما بعد استلام الحسن بن علي اليازوري (ت ١٠٥٨م/ ٤٥٠هـ) الوزارة الفاطمية، الذي كان المُعز يكن لها العداء، كما كان يرى أن أفضل وسيلة لتعزيز المذهب السني المالكي في بلاد المغرب هو قطع العلاقة نهائياً بالخلافة الفاطمية في القاهرة وإعلان الدعوة للخلافة العباسية في بغداد، التي تدين بالمذهب السني، والذي أخذ بالتغلغل في نفوس المغاربة، كما لم يكن يخشى المُعز من هيمنة العباسيين على إمارته لبعدهم الجغرافي.

وفي سنة ١٠٤٩م/ ٤٤٠هـ، وفي عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، أعلن المُعز استقلاله التام عن الخلافة الفاطمية، فقطع الخطبة عن الخليفة الفاطمي وحرَّق بنوده الخضراء، رمز وشعار الفاطميين، وأمر بنزعها عن المساجد، مُقابِل الدعوة للخليفة العباسي في بغداد[1]. وهكذا انقطعت شعرة معاوية التي كانت تربط الإمارة الزيرية الصنهاجية بالخلافة الفاطمية.

وبالرغم من التهديد والوعيد الذي بعث به الخليفة الفاطمي المُستنصر، إلا أن المُعز لم يأبه بذلك، فأرسل برسول إلى بغداد ليستحضر الخلع والألوية السوداء، شعار العباسيين، فاستجاب له الخليفة العباسي، وأرسل إليه أبا غالب الشيرازي رسولاً من طرفه ومعه العهد واللواء الأسود، لكنه وقع أسيراً بأيدي الروم الذين سلّموه إلى الخليفة الفاطمي، الذي قام بحرق العهد واللواء، فقرر المُعز عند ذلك أن يعد لواءً أسود ويرفعه، وألبس رجال دولته السواد، ثم صعد المنبر ودعا للخليفة العباسي في

(١) ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار المغرب، بيروت، ١٩٥٠م، ج١، ص ٣٤٩.

بغداد، أبي جعفر عبدالله القائم بأمر الله، ثم أخزى بني عبيدالله الفاطميين ولعنهم، كما ألغى من الأذان عبارة «حي على خير العمل»، وأمر برفع دعاء أهل السنة[1].

كما ألغى المُعز العملة التي كان عليها أسماء وشعار الخلافة الفاطمية بعد أن كانت متداولة في شمال إفريقيا لقرابة قرن ونصف من الزمان، وبدلاً منها، أمر بسكّ عُملة جديدة، كُتب على وجهها عِبارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وعلى وجهها الآخر الآية الكريمة «ومن يتّبع غير الإسلام ديناً فلن يُقبل مِنه وهو في الآخرة مِن الخاسرين» (آل عمران ٨٥). كما عمل على إنهاء كافَّة المذاهب المُخالفة لأهل السنة والجماعة، كالصفرية، النكارية، المعتزلة، والأباضية. وفي سنة ٤٤٣هـ، انضمَّت برقة كُلها إلى المُعز بعد أن أعلن أميرها جبارة بن مُختار الطاعة له والدعوة لبني العباس، أمّا حمّاد بن بلكين، فكان قد سبق المُعز في قطع علاقته بالخلافة الفاطمية، كما أسلفنا ذكره، وبهذا، انشقّت بلاد المغرب نهائياً عن الخلافة الفاطمية.

وبذلك، فقد كان انفصال الصنهاجيين عن الخلافة الفاطمية في عهد المعز بن باديس من أكثر الأحداث إثارة في تاريخ الإمارة الزيرية الصنهاجية، حيث كان المُعز من أكثر الأُمراء الصنهاجيين تطرُّفاً تجاه الخلافة الفاطمية، فبالرغم من التململ وسوء العلاقة بين أبيه باديس وقبله جدَّه المنصور مع الفاطميين، إلا أن ذلك لم يصل إلى حدّ إعلان الاستقلال الكامِل، وكان المُعز هو من نفّذ ذلك، واستقلّ بشكل كامِل مُنهياً ردحاً من الزمن من تبعية إمارته للخلافة الفاطمية، وهذا ما جلب عليه كوراث لا حصر لها بعد أن أطلقت الخلافة الفاطمية جموع قبائل بني هلال وسليم لتفتك بإمارته، وهذا ما سنتناولة بالتفصيل في الفصل السادس من هذا الكتاب.

ويرى بعض المؤرخين أن تبعية المعز بن باديس للفاطميين في بادئ الأمر كان فيها عبء عليه وغرم، وجرّت عليه نقمة الناس في القيروان وغيرها من كبريات المدن في افريقية، مثل تونس، التي كان شيخها يُجاهر بالدعاء عليه حين بلغه أن المعز هدد الناس

(١) ابن عذاري، مرجع سابق،ج١، ص٤١٥.

إثر مقتل بعض أتباع الفاطميين، وفي الوقت نفسه كان التحوّل الشرس عن المذهب الشيعي الإسماعيلي إلى السني المالكي من الأخطاء الشنيعة التي وقع بها المُعز، إذ أنه لم يكتفِ من تغيير المذهب، بل قاد حملة شعواء فيما بعد ضد الشيعة الإسماعيلين أدّت إلى عمليات جرائم وقتل بربرية ضدّهم، فقد حدثت هُناك حملات واسعة ضد الشيعة في إفريقية والمغرب بتشجيع من المُعز، وروي بأن المُعز كان يمشي في القيروان والناس يُسلّمون عليه ويدعون له، فاجتاز بجماعة كانت هُناك، فقيل له: هؤلاء رافضة يسبّون أبا بكر وعُمر، فقال المُعز: «رضي الله عن أبي بكر وعمر[1]. فانصرف العامَّة من فورها إلى درب المقلي بالقيروان، وهو موضع يجتمع فيه الشيعة، وأخذوا بمقاتلتهم، وهذا ما جعل الشاعِر القاسم بن مدران يقول مُنتشياً:

وسوف يُقتلون بُكلِ أرضٍ
كما قُتلوا بأرض القيروان

وقال آخر:

يا مُعز الدين عِش في رفعةٍ
وسرور واغتباط وجزل
أنت أرضيت النبي المُصطفى
وعتيقاً في الملاعين السفل
وجعلت القتل فيهم سنّةً
بأقاصي الأرض في كُل

لا شك أن مثل هذا التغنّي الجاهِل بقتل فئة كبيرة من أبناء شعوب إفريقية وبلاد المغرب يعكس ضيق أُفق وانحسار العقل، وهمجية أخذت تتغلغل في تلك الفترة،

(١) سعدي، عثمان، الجزائر في التاريخ، الطبعة الأولى، دار الأصالة المعاصرة للنشر والتوزيع، طرابلس، ليبيا، ٢٠١١م، ص ٢٦٧.

وكان أوَّل من قاد حملة التطهير ضد الإسماعيلية في طرابلس وحارب مُعتقدهم هو العلّامة علي بن محمد المنتصر، وكنيته أبو الحسن المتوفي سنة ٤٣٢هـ.

تميم بن المعز بن باديس (ت ١١٠٨م)

ولد تميم بن المعز بن باديس في المنصورية، وولاه أبوه على المهدية سنة ٤٤٥هـ، ثم أسند إليه ولاية إفريقية، وكان تميم فارساً شهماً وشُجاعاً، وورث الشجاعة وحُسن القيادة عن والده، فقد ضم أراضٍ جديدة لدولته، واستعاد الأراضي التي فُقدت في عهد والده، ففي سنة ٤٨٤هـ، ضم مدينة قابس، وولّى عليها أخاه عمر بن المعز، وفي عام ٤٩٣م، انتزع مدينة صفاقس من حمود بن فلفل البرغواطي وضمّها لدولته، وفي مناسبة فتح قابس، يقول الشاعر ابن خطيب السوسة:

ضحك الزمان وكان يلقى عابساً

لما فتحت بسيفك قابسا

الله يعلم ما حويت ثمارها

إلا وكان أبوك قبل الغارسا

من كان في زرق الأسنّة خاطباً

كانت له قلل البلاد عرائسا

فابشر تميم بن المعز بفتكه

تركتك من أكناف الناس قابسا

ولَّوا فكم تركوا هناك مصانعاً

ومقاصراً ومخالداً ومجالسا

فكأنها قلب وهن وساوس

جاء اليقين، فذاد عنه وساوسا

وفي عهد تميم، تعرَّضت الإمارة الزيرية لهجمة صليبية شرسة جاءت عبر البحر، حيث لم تكن الدولة الصنهاجية قادرة على مواجهة هذا الغزو، فاضطر تميم إلى ابرام صُلح مع المغيرين، ودفع مائة ألف دينار للغُزاة الذين عادوا مُحمّلين بعدد كبير من الأسرى والسبايا، وأحدثت هذه الغزوة دوياً واسعاً بالعالَم الإسلامي.

وفي عام ٤٩٨هـ، عاد الصليبيون الهجوم على المهدية بأسطول كبير، لكنهم فشلوا هذه المرة في اقتحامها، فقد وجدوا أمامهم أسطولاً بحرياً مُجهزاً تمكَّن من دحرهم وقتل الكثير منهم وإغراق سفن العدو، وفي تلك الحقبة، وجّه الزيريون جهودهم نحو البحر، فأسسوا أسطولاً كبيراً، وصاروا يهاجمون شواطئ أوروبا وجُزر البحر الأبيض المتوسِّط للرد على الغارات الصليبية، وقد بلغت غارات الزيريين أوجها في عهد تميم.

يحيى بن تميم بن المعز (ت ١١١٦م)

بعد وفاة تميم في عام ١١٠٨م، تولَّى ابنه يحيى حُكم الإمارة الزيرية، الذي عمل على تعزيز الأسطول البحري لإفريقيه والانتشار في البحر، مما أثار الذعر بين البحارة الأوروبيين الذين أُجبروا على كف التحرُّش بإفريقية، وفي عهده استولت الإمارة الزيرية على قليبية، التي كانت قد استقلَّت عن إفريقية، كما أعاد يحيى الاستقرار لمدينة صفاقس التي كانت قد تمرّدت، وفي عهده تحسَّنت علاقة الزيريين بالخلافة الفاطمية في عهد الخليفة الفاطمي، الآمر بأحكام الله. توفي تميم في شهر نيسان عام ١١١٦م، وقيل إنه قُتل على يد إخوته الذين كان قد نفاهم، وقد تولَّى الحُكم بعده ابنه علي، الذي بدأت في عهده ضُعف الإمارة الزيرية.

ضُعف الإمارة الزيرية الصنهاجية وسقوطها

في عهد علي بن يحيى بدأت بوادر الضُعف تنخر بجسد الدولة الزيرية بعد أن انهكتها الحروب مع الحماديين، ودخول القبائل الهلالية إلى إفريقية مُنذ عهد المُعز بن باديس، كما ازدادت المخاطر بعد تزايد الحملات الصليبية عليها، حيث كان البابا

فيكتور يُشرف بنفسه على تكوين مجموعة من البحارة الصليبيين للإغارة على سواحل إفريقية ردّاً على غارات الزيريين، وكانت الخلافات والاضطرابات المحلّية إحدى الأسباب التي أضعفت الدولة الزيرية، فعلى سبيل المثال، ففي سنة ٤٤٤هـ، أدَّى النزاع الذي نشب في جزيرة صقلية بين القادر باللّه صاحب طرابنش (ترابانى) وصهره القائد ابن الحواس، صاحب قطانيا وسرقوسة، إلى استنجاد القادر بالنورمانديين الذين كانوا موجودين بقلورية، وكانت النتيجة سقوط صقلية بأيدي النورمانديين، وبعد احتلال الجزيرة استنجد قادتها بالمعز بن باديس، الذي حاول انقاذها، ولكن هبَّت عاصفة هوجاء أغرقت أسطوله وهو في عرض البحر عند قومرة، وهذا أضعف الإمارة الزيرية بسبب فقدانها أسطولها الحربي الذي طالما كان صمام الأمان لصدّ هجمات الفرنجة.

وأمام المشاكل الداخلية بالمغرب، عجزت الإمارة الزيرية عن مواصلة سيطرتها على عموم إفريقية، إذ أخذت بالتفتت لعِدّة دويلات صغيرة، فبعد وفاة علي بن يحيى، تولَّى الحُكم بعده ابنه الحسن بن علي، الذي كان ضعيفـًا، وأصبحت الدولة الزيرية في عهده هزيلة تعتمد على المساعدة من النورمانديين وبعض القبائل الهلالية الموالية لها لحمايتها، ففي سنة ٥٣٠هـ، حاصر صاحب بجاية يحيى بن عبدالعزيز باللّه المهدّية برّاً وبحراً، مما دفع الحسن بن علي للاستنجاد بروجار النورماندي، الذي أمدّه بعشرين سفينة، كما استنجد الحسن ببعص قبائل بني هلال الموالية له، فأنجدوه براً، مما اضطر يحيى لرفع الحصار عن المهدّية والعودة إلى بجاية.

ومُنذ ذلك التاريخ، تطلَّع ملك صقلية إلى السيطرة على شواطئ إفريقية، فبدأ باحتلال المُدن التي تمرَّدت على الحسن بن علي، مثل جزيرة جربة سنة ٥٣١هـ، وفي سنة ٥٣٦ه، أغار جرجي الأنطاكي على مرسى المهدّية بخمس وعشرين سفينة من نوع الغراب، واستولى على السفن الراسية بالميناء، وفي سنة ٥٣٨هـ هاجمهم أسطول صقلية مدينة سفاقس، وسيطر عليها وأتبعها لدولة النورمان، وفي السنة نفسها سيطر على عنابة وجيجل، كما استولى في سنة ٥٣٩هـ على برشك، وعلى قرقنة في سنة

٥٤٠هـ. وبعث الحسن بن علي برسالة إلى روجار عاتبه فيها على احتلال المدن في إفريقية، فردّ عليه أنه لم ينقض المعاهدة، وانما سيطر على المُدن التي خرجت عن الطاعة الزيرية.

وفي سنة ٥٤١هـ هاجم النورمان مدينة طرابلس بقيادة جرجي الأنطاكي وسيطروا عليها بعد أن دبّ الخلاف بين القوات المدافعة عنها، وبعد أن تأكّد ملك النورمان في صقلية من ضعف صاحب المهدية وتجريده من سائر مدن دولته، نقض المعاهدة وتوجّه بأسطول من أهل جنوة وبيزة، يتألف من ثلاثمائة سفينة مُحمّلة بثلاثين ألف جندي للإغارة على المهدية عاصمة الزيريين، واستولت قوّاته على المهدّية وزيلة ودمّروهما، وأضرموا النار في أحياء المهدية، مما جعل الشاعر أبو الحسن الحوار يقول:

غزا حمانا العدو في عدد
هم الدبا كثرة أو النغف
عشرون ألفاً ونصفها ائتلفوا
من كُل أوب لبئسما ائتلفوا
جاؤوا على غرة إلى نفر
قد جهلوا في الحروب ما عرفوا

بعد سقوط المهدية، فرَّ الحسن بن علي إلى جزائر بني مزغنة في المغرب الأوسط وأقام بها إلى أن فتحها الموحدون سنة ٥٤٧ه بقيادة الخليفة الموحدي عبدالمؤمن بن علي الكومي (٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م–٥٥٨هـ/ ١١٦٣م)، حيث صحب عبدالمؤمن في تحرير المهدية من النورمان سنة ٥٥٥هـ، فأكرمه عبدالمؤمن وأسكنه بعاصمة ملكه السابق، ولكن بدون أيّة سُلطة سياسية. وبسقوط الدولة الزيرية الصنهاجية في إفريقية، ضعفت معها هيبة المُسلمين بالبحر الأبيض المتوسط.

شكل (٣-١) قائمة الأمراء الزيريين الصنهاجيين

الحاكم		(فترة الحكم (ميلادية
اللقب	الاسم	
أبو الفتوح سيف الدولة	بلكين بن زيري	٩٨٣-٩٧٣
أبو الفتح	المنصور بن بلكين بن زيري	٩٩٥-٩٨٣
أبو قتادة ناصر الدولة	باديس بن منصور	١٠١٥-٩٩٥
شرف الدولة	المعز بن باديس	١٠٦١-١٠١٥
أبو طاهر	تميم بن المعز	١١٠٨-١٠٥٠
أبو طاهر	يحيى بن تميم	١١١٦-١١٠٨
أبو الحسن	علي بن يحيى	١١٢١-١١١٦
أبو الحسن	الحسن بن علي	١١٤٨-١١٢١

الفصل الرابع

الإمارة الحمّادية الصنهاجية

تناولنا في الفصل السابق من هذا الكتاب انشقاق الإمارة الصنهاجية إلى دولتين، زيرية في إفريقية وحمّادية في المغرب الأوسط، وذلك بعد أن تمرّد حمّاد على ابن أخية باديس، وأعلن نفسه أميراً على الأراضي التي كان يسيطر عليها، والتي عُرفت بالإمارة الحمّادية، وعمل حمَّاد على توطيد حكمه في المغرب الأوسط، فحارب قبائل زناتة، واختط مدينة القلعة بجبل كيانة سنة ١٠٠٧م / ٣٩٨هـ، كما ذكرنا سابقـاً، وأحاطها بالأسوار، وأصبحت قِبلة للعُلماء والأُدباء، ثم احتل مدينة قسنطينة وعِدّة مُدن أُخرى، ومن ثم نقض التبعية للفاطميين واستقلَّ عنهم، كما استولى على باجة.

وبالرغم من هذا التوسّع، واصل حمّاد الحروب على جبهتين، مع زناته ومع أبناء عمّه الزيرين الصنهاجيين، كما ذكرنا في الفصل السابق، فعندما خلع حمّاد الطاعة للخلافة الفاطمية وإعلان التبعية للخلافة العباسية في بغداد، كان الزيريون في تلك الفترة على وئام مع الخلافة الفاطمية وتابعين لها ظاهريـاً، فأوعز الخليفة الفاطمي للزيرين لقتال الحماديين لاستعادة إمارتهم تحت الخلافة الفاطمية. وفعلاً، كان من ضمن أهداف الزيريين في حربهم مع الحماديين في بداية الأمر هو اجبار الحماديين على استرجاع الدعوة للفاطميين، والخطبة لهم على منابر المغرب الأوسط، ولكن في نهاية المطاف أنهى كل من الزيريين والحماديين تبعيتهم للخلاف الفاطمية وتحولوا للخلافة العباسية في بغداد، كما وضّحنا ذلك في الفصل السابق. توفي حماد سنة ١٠٢٨م/ ٤١٩هـ، فخلفه ابنه القائد.

القائِد بن حمّاد (ت ١٠٥٤م)

تولّى الأمير القائِد بن حمّاد الحكم بعد وفاة والده سنة ١٠٢٨م/ ٤١٩هـ، واستمر في الحكم لسنة ١٠٥٤م/ ٤٤٦هـ، وسار على نهج أبيه، وثبَّت أركان الدولة، ووسّع حدودها. وبعد توليه الحكُم عيَّن إخوته على عِدّة ولايات، فعيَّن يوسف على المغرب الأقصى، وقلان على سوق حمزة، بينما حافظ على ولاة أبيه في بقيّة الولايات.

ولعب القائِد دوراً أساسياً في تحسين العلاقة مع أبناء عمومته الزيريين والمصالحة معهم، حتى أن المُعز بن باديس طلب النجدة من بني حمّاد لمواجهة القبائل الهلالية الغازية، وفي ذلك يقول ابن خلدون: «أن المُعز بعث بالصريخ إلى ابن عمّه صاحب القلعة القائِد بن حمّاد، فكتبه كتيبة من ألف فارس سرّحهم إليه»[1]. وفي هذه الفترة، كان المُعز مُنشغلاً بعلاقته التي ساءت بالخلافة الفاطمية، التي عاقبته من خلال تسيير القبائِل الهلالية من صعيد مصر إلى بلاد المغرب.

وواصل القائد حروبه ضد زناتة، ففي سنة ١٠٣٩م/ ٤٣٠هـ تمكَّن من تحقيق نصر على حمامة بن زيري بن عطية، أمير زناتة في المغرب الأقصى وهزمه، لكنه عاد واسترضاه فيما بعد. وفي عهد القائِد، أُضيف إلى حكم آل حمّاد مرسى الدجاج، بلاد زواوة، مقرة، دكانة، بلزمة، وسوق حمزة. توفي القائد سنة ١٠٥٤م، وخلفه بعد ذلك ابنه مُحسن.

مُحسن بن القائِد (ت ١٠٥٦م)

كان مُحسن بن القائِد طائشاً، قليل الدراية بالسياسة وسيء التدبير، فبعد توليه الحُكم، عزل جميع أعمامه، فثار عليه عمّه يوسف بن حمّاد الذي كان عامِلاً على المغرب الأقصى في عهد القائِد، وكان قد أسس قلعة سماها الطيارة في جبل منيع، فجمع جيشاً عظيماً وهاجم اشير وأعمل السيف بها، فسار مُحسن إليه لصدّه عن

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج٦، ص٣٢.

المُدن التي أخذ باستباحتها، وفي طريقه، واجهه أعمامه، مدني وقلان ومناد وتميم، الذين كانوا ولاة على بعض الأقاليم، فظهر عليهم وقتلهم جميعـًا، ثم كتب مُحسن إلى عمّه يوسف واستدعاه، فلم يُلبي دعوته.

وفيما بعد، ثار ابن عمّه، بلكين بن محمد بن حمّاد، الذي كان عامِلاً على أفريون، فتغلَّب على المُحسن وقتله سنة ١٠٥٦م، وفتك بعدد من أُمراء بني حمّاد، وبذلك، كانت فترة حُكم مُحسن قصيرة، سوى تسعة أشهر، وهي من أقصر فترات حُكم آل حمّاد.

بلكين بن محمد بن حمّاد (ت ١٠٦٢م)

بعد قتل المُحسن، تولَّى ابن عمُه بلكين بن محمد بن حمّاد السُلطة، وكان بلكين شهمـًا كريمـًا، إلا أنه كان أيضـًا حازمـًا سفّاكـًا للدماء، وكانت فترة توليه الحُكم في الوقت الذي اشتدَّ فيه الصراع بين الزيريين والقبائل الهلالية، فترك الزيريون الميدان لبلكين ولم يتدخلوا في شؤون دولته. وفي الوقت نفسه، شهدت المنطقة الغربية بداية التوسُّع المُرابطي على حساب الإمارات الزناتية في المغرب الأقصى، والتي كانت في الماضي في صراع مع الحماديين مُنذ عهد مؤسسها حمّاد بن المنصور[١].

وقد تحالف بلكين بن محمد مع بعض القبائل الهلالية، كالأثبح وعُدي، في حربه ضد القبائل الزناتية في المغرب الأقصى، وكان كثيراً ما يغزو المغرب، ففي سنة ٤٥٤هـ، توغَّل في المغرب الأقصى ونزل بفاس وتمكَّن من هزم المُرابطين، الذين فرَّوا إلى الصحراء. وكان بلكين يُغيّر من تحالفاته حسب مصلحته، ففي الوقت الذي تحالف فيه مع بعض البطون الهلالية لمحاربة الزناتيين في المغرب الأقصى، فقد حاول في المُقابل مواجهة التوسّع الهلالي في المغرب الأوسط من خلال التحالف مع بعض القبائل الزناتية.

---

(١) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ط ج، لجنة التأليف والترجمة، ١٩٣٨، ص١٥٨، الملي تاريخ الجزائر العام، ج١، ص٣٦٨.

نهاية بلكين بن محمد

كان لبلكين بن محمد أخ يُسمى مُقاتِل، توفي فجأة، فشكّ بلكين أن مقتل أخيه كان بتدبير من زوجة أخيه تايمرت، فأمر بقتلها، وكانت تايمرت هذه هي ابنة عمّه علناس، وأُخت القائد الحمّادي القوي، الناصر بن علناس، الذي ثار بعد مقتل اخته، وأضمر على قتل بلكين، وتحيَّن الفرصة حتى سنحت له أثناء عودة بلكين من مدينة فاس عند نواحي تلمسان سنة ١٠٦٢م، فترصّده مع مجموعة من الفرسان وقتله، ليعلن الناصر نفسه حاكِماً بعده للإمارة الحمّادية.

الناصر بن علناس (ت ١٠٨٨م)

تسلَّم الناصر بن علناس إمارة بني حمّاد سنة ١٠٦٢م/ ٤٥٤هـ، فاهتم بالعمارة والبناء، وبمدينة بجاية على وجه التحديد، حيث وسَّع عمرانها، وبنى قصراً خارجها، سماه قصر اللؤلؤة، كما أقام مدينة موازية لبجاية، أطلق عليها اسم الناصرة، ثم انتقل إليها سنة ٤٦١هـ واتّخذها عاصمة لدولته. وامتاز الناصر بدهائه وحنكته، فثبّت أركان دولته ووسّعها، وخاض عِدة حروب، ويقول فيه الشاعر أبو القاسم عبد الخالق بن إبراهيم القرشي هذه الأبيات:

قالت سُعاد وقد زمّت ركائبنا

مهلاً عليك فأنت الرائح الغادي

فقلت تالله لا أنفك ذا سفر

تجري به الفلك أو يحد ولي الحادي

حتى أقبل ترب العز منتصراً

بالناصر بن علناس بن حمّاد

كما اتّبع سياسة تصالحية مع كافة الأطراف المُعادية للدولة الحمّادية، فبعد مقتل بلكين بن محمد، استباح الناصر أموال بلكين، ووزعها على قبائل بني هلال وقبائل زناتة ليستميلهم إليه، ثم تصالح مع باقي القبائِل الصنهاجية، وأعاد تنظيم الدولة الحمادية، وولّى اخوته على مُختلف الولايات، فولّى أخيه كباب على المغرب، وأخيه رومان على حمزة، كما عقد قسنطينة لأخيه بلبار، وولى ابنه عبدالله على الجزائر ومرسى الدجاج، وابنه يوسف على أشير، وولى أخيه خزر على نقاوس، وأصلح سورها، الذي كان قد هُدم على يد المُعز بن باديس الصنهاجي أثناء حربه مع الحماديين.

ثم عمل الناصر على تحقيق الاستقرار الداخلي للدولة الحمّادية، فقمع ثورة بسكرة، وتخلُّص ممن كان يشك بولائهم، فقتل وزيره خلف بن أبي حيدره، الذي كان يرغب بتتويج معمر أخ بلكين بن محمد بدلاً من الناصر، وولّى مكانه أحمد بن جعفر بن أفلح، المعروف بأبي بكر بن أبي الفتوح[1].

انتكاس العلاقة بين الإمارتين الزيرية والحمّادية

بالرغم من انتهاج الناصر بن علناس سياسة تصالحية، إلا عن العداء التاريخي مع أبناء عمومته الزيريين ما لبث أن تجدد، واشتعلت الحرب من جديد بينهما في الفترة التي مازال عليها المُعز بن باديس، إذ استغل الناصر ضُعف الإمارة الزيرية بعد أن فتكت بها جموع القبائِل الهلالية في معركة حيدران[2] التي وقعت في الرابع عشر من نيسان سنة ١٠٥٢م وانهزام المعز بن باديس شر هزيمة. وبذلك، ضم الناصر العديد من المناطق التي خرجت عن سُلطة الدولة الزيرية، منها سفاقس، التي أعلن أميرها حمو بن مليل البرغواطي الطاعة للناصر، كما ضم الناصر قسطيلة، وعقد عليها ليوسف بن خلف وهو من صنهاجه، حتى خضعت تونس هي الأُخرى للحماديين. وفي هذا يقول ابن

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج٦، ص ٣٥٣-٣٥٤.

(٢) للمزيد من التفاصيل حول معركة حيدران بين القبائِل الهلالية والمُعز بن باديس الصنهاجي، راجع الفصل السادس من الكتاب.

عذاري: «ضعفت الدولة المهدية عن حمايتهم، فمشى أشياخ من أهلها إلى الناصر بن علناس وهو إذ ذاك في القلعة، دار ملكهم وناظم سلكهم، فاستدعوا منه النظر إلى مدينتهم وتقديم والى من قبله إليهم، فأمرهم أن يختاروا شيخاً منهم، فاستعفى وتوقَّف، وولاها من قبل الناصر عبد الحق بن عبد العزيز ابن خراسان»[1].

ولكن بالرغم من هذا الانتصار على الإمارة الزيرية، إلا أن الحرب استمرَّت سِجالاً بينهما عندما دخلت القبائل الهلالية في سلم الأحداث، والتي فاقمت من النزاع بين الإمارتين الصنهاجيتين، إذ عادت الإمارة الزيرية في عهد تميم بن المعز بقوّة بعد أن تحالفت مع بعض بطون القبائِل الهلالية من زغبة ورياح وألحقت هزيمة ماحقة بالناصر بن علناس وقبيلة الأثبج المُتحالفة معه في معركة سبيبة في عام ١٠٦٥م، والتي سوف نتناولها بالتفصيل في الفصل السابع من الكتاب. توفي الناصر بن علناس سنة ١٠٨٩م (٤٨١هـ) بعد أن دام حكمه زهاء ثلاثين عاماً، وخلفه ابنه المنصور، والذي شهد حُكمه الكثير من الفتن والقلاقل والحروب.

المنصور بن علناس (ت ١١٠٤م /٤٩٨هـ)

تولَّى المنصور الأمر بعد وفاة أبيه الناصر بن علناس، حيث يقول ابن الأثير أنه عندما تسلَّم الحُكم، وصلته كُتب الملوك ورسلهم بالتعزية والتهنئة بالمُلك، ومن ضمن هذه الكُتب، كان كتاب من يوسف بن تاشفين (ت ١١٠٦م)، زعيم المرابطين، وتميم بن المُعز وغيرهم[2]. ويقول ابن الخطيب: «أن المنصور كان قائماً على أمره حميد الخلال، الذي كان ضابطاً لأموره»[3]. وسار المنصور على نهج والده الناصر

(١) مختار، د. حساني، تاريخ الجزائر الأوسط (الجزء الأول)، وزارة الثقافة، دار الهدى، الجزائر، ٢٠١٣م، ص١٤٤.

(٢) مختار، د. حساني، تاريخ الجزائر الأوسط (الجزء الأول)، وزارة الثقافة، دار الهدى، الجزائر، ٢٠١٣م، ص ٥٠.

(٣) ابن الخطيب، أعمال الأعلام نقلاً من الأصالة، العدد الخاص بمؤتمر الفكر الإسلامي المنعقد في بجاية، والمقال بجاية عبر العصور، ص ٩٤.

بن علناس، حيث اهتم بالبناء وتعمير المدن، فقد بنى جامع بجاية وبنى القصور، وهذا ما يؤكده ابن خلدون، حيث يقول: «كان المنصور مولعـاً بالبناء وتشييد القصور»[1].

وفي بداية ولاية المنصور، همّ أخوه بلباز والي قسنطينة بالاستبداد وحبك الدسائس، فقد بعث برسائل إلى تميم بن المعز بن باديس، الغريم السابق للدولة الحمادية، وقدَّم له منطقة بونة مُقابِل أن يكون تميم عونـًا له ضد المنصور، وفعلاً بعث تميم ابنه أبو الفتوح إلى بونة واستولى عليها، مما أوغر صدر المنصور على أخوه بلباز، فسيّر المنصور أحد قادته الذي كان يُكنّى ابن محض بن العابد إلى قسنطينة، وفعلاً استطاع بن محض السيطرة على قسنطينة والقبض على بلباز وإرساله إلى القلعة ليُسجن هُناك. بعد ذلك، وفي سنة ٣٨٧ه، أصبح بن محض واليـًا على قسنطينة وبرقة. وفي عهد المنصور استولى المرابطون على الناحية الغربية من مملكة الحماديين، وهي مناطق تنسى، وونشريس، ووادي الشلف، ثم الجزائر، وبعدها عاد المرابطون إلى تلمسان واتخذوها قاعدة لهم.

حروب المنصور مع زناتة

استمر التوتّر بين الدولة الحمّادية وبعض القبائل الزناتية في عهدي الناصر بن علناس وابنه المنصور، ولكن في عهد المنصور انقلبت العلاقة إلى صراع وحروب مريرة مع الزناتيين، ويذكر ابن خلدون أن قبيلتي «بنو وماتوا» و»بنو يلومي» الزناتيتين كانتا أشدَّ بطون زناتة شوكة، ففي عهد الناصر بن علناس زادت قوّة هاتين القبيلتين بالمغرب الأوسط، مما جعل الناصر يهادنهما، فزوَّج ابنه المنصور من أُخت الأمير ماخوخ، شيخ قبيلة «بني وماتو». وفي عهد المنصور اغتنمتا هاتان القبيلتان التوسُّع المُرابطي في بلاد المغرب الأوسط، فنزعتا الحلف مع الحماديين وانضمتا للمرابطين.

وبالرغم من أواصر المصاهرة بين ماخوخ وبني حمّاد، إلا أن نيران الضغينة والعداوة اشتعلت فيما بينهما، ووجد المنصور نفسه مضطرّاً لحرب هذه القبائِل الشرسة، فتوجّه

(١) ابن خلدون، العبر، ج٦، ص٣٥٨.

إلى مضارب زناتة على رأس جيش كبير وباغتها، ووقعت معركة شديدة، حيث تمكَّن في بداية الأمر من تحقيق بعض النصر، إلا أن زناته سرعان ما قلبت ميزان المعركة، وتمكَّن القائد الزناتي ماخوخ من إلحاق هزيمة ماحقة بالمنصور، الذي انهزم وتحصَّن في عاصمته آنئذٍ بجاية، وفور دخوله بجاية، قام بقتل زوجته التي كانت أُخت ماخوخ، كما أسلفنا، مما زاد من تعقيد وتأزَّم العلاقة بينهما بعد هذه الحادثة. فسار ماخوخ إلى تلمسان، وطلب من قبائل متونة الانضمام إليه، وحذّرهم من بني حمّاد، كما تحالف مع تاشفين بن تنيغمر المسوقي، وبعدها زحف على بلاد بني حمّاد فقتل المئات وخرَّب البلاد، ومن ثم واصل زحفه إلى جبل تيطري وخرَّب مُدن اشير ومتيجة والجزائر، واستولى على العديد من المناطق التي تتبع للدولة الحمادية. توفي المنصور سنة ١١٠٤م/ ٤٩٨ه، حيث خلفه ابنه باديس.

باديس بن المنصور (١١٠٥م)

بعد وفاة المنصور، تسلَّم دولة الحماديين ابنه، باديس بن المنصور بن الناصر بن علناس. وبالرغم أن باديس كان شُجاعـاً وشديد البأس وبعيد النظر، لكنه استبدَّ في الأمر، فبعد تسلّمه الحُكم، قام بتصفية ممن كانوا موالين لأبيه، فقتل عبد الكريم بن سلمان، وزير أبيه، وقتل عامِل بجاية، وعزل أخاه عبد العزيز عن الجزائر، ونفاه إلى جيجل، ولكن أيام حُكمه لم تطل، فقد توفي سنة ٤٩٩هـ، بعد أقل من عام في حُكم الدولة الحمّادية.

العزيز بن المنصور (ت١١٢١م)

عندما توفي باديس، كتب كبير الدولة القائد علي بن حمدون إلى أخي باديس، عبد العزيز بن المنصور يحثّه على القدوم إلى بجاية، وكان عبد العزيز وقتها منفيّاً في جيجل كما ذكرنا. وفعلاً، سار عبد العزيز إلى بجاية وتمَّت مبايعته أميراً على الدولة الحمّادية، وسلك سياسة مُغايرة لسياسة أخيه، فاستعمل اللين مع مناوئيه بالجانب

الغربي من المغرب الأوسط، وصالح قبائِل زناتة، ومنها قبيلة «بني وماتو» وزعيمها ماخوخ، وكذلك قبيلة «بني يلومي».

يحيى بن عبد العزيز ونهاية الدولة الحمّادية

بعد وفاة عبد العزيز سنة ١١٢١م (٥١٥هـ)، خلفه ابنه يحيى الذي كان مُنحلاًّ، لا يهتم بشؤون الحُكم والرعيّة، فكان مُنصرفاً للهو والترف، وفي عهده ضعفت الدولة الحمادية وتداعت، وأخذت تعصف بها القلاقل والثورات، إلى أن انتزعها الموحدون في عام ٥٤٧ه، ودخلوها بزعامة أميرهم القوي عبد المؤمن بن علي، الذي تمركز في مدينتي بجاية والقلعة.

وهكذا أُسدل الستار على الدولة الصنهاجية بفرعيها، الزيري في المغرب الأدنى والحمّادي في المغرب الأوسط، بعد أن دام حُكمهما قرابة قرنين من الزمن، ووصل نفوذهما حتى الأندلس، حيث حكمت إحدى بطونها من بنو حبوس بن ماكس إمارة غرناطة والبيرة لمدّة ثمانين عاماً تقريباً.

آثار الإمارتين الصنهاجية والحمّادية في تاريخ بلاد المغرب

بالرغم من الصراعات السياسية والحروب الدموية بين الإمارتين الصنهاجيتين، الزيرية والحمّادية، إلا أنهما حققتا ازدهاراً زراعياً وتجارياً مع الاندلس والبُلدان الإفريقية، كما اشتهرتا بصناعة الأسلحة والشمع. وبوجه عام، فقد شيّد الصنهاجيون المُدن وأحاطوها بالأسوار، وبنوا القصور والمساجد، كمدينة اشير، القلعة، بجاية، المنصورة، قصر المنار، اللؤلؤة والكرب.

وإلى الجانب حركة البناء، فقد ازدهرت الحركة الثقافية عند الزيريين والحماديين، وكان لقربهما الجغرافي والسياسي من الأندلس، منارة الحركة الثقافية في تلك الآونة، الأثر البالغ في تعزيز الثقافة في هاتين الإمارتين، وأصبحتا، لا سيما بجاية، مركزاً لتوافد

العُلماء والأُدباء، أمثال يوسف الورجلاي، والحسن بن رشيق (٣٨٥هـ-٤٦٣هـ)، الذين يُعدون من أشهر الشُعراء والأُدباء في العصر الصنهاجي، فقد نظم بن رشيق العديد من القصائد، أشهرها قصيدة مدح فيها المعز بن باديس، مطلعها:

يــابــن الأعـــزة مـــن أكـــابــر حِــمــيَّــر

وســلالــة الأمـــلاك مـــن قــحــطــان[1]

ومن أشهر الشُعراء في إمارة بني حمّاد في المغرب الأوسط، هو ابن النحوي أبو الفضل يوسف (ت سنة ٥١٣هـ)، الذي اشتهر باسم التوزري القلعي، نسبة لقلعة بني حمّاد، ومن أشهر أشعاره:

اشــتـــــــدي أزمـــــة تـــــنفرجي

قـــد أذن لـــيـــلـــك بـــالـــبـــلـــج

وظـــــلام الــلــيـــل لـــه ســـرج حتـى

يـــغـــشـــاه أبـــــو الــــســـرج

وهُناك العديد من الشُعراء الذين تركوا أثراً في الأدب في بلاد المغرب، مثل ابن حمديس الصقلي (ت٥٢٧هـ)، الذي ولد بسرقوسة بصقلية، ثم هاجر للأندلس بإشبيلية في حضرة المعتمد بن عبّاد. ومن الشُعراء البارزين في تلك الحقبة، أبو الحسن علي الطبني، وعبد الملك أبو مروان الطبني (ت٤٥٧هـ)، وابن القافي ميلة، وعبد الله بن سلامة، وأبو الحسن الأشوني الجزائري (ت٥٣٧هـ). كما برز هُناك العديد من شُعراء الزُهد، مثل ابن اليدوخ الطبيب، وحمّاد بن علي، وكذلك شُعراء الغزل، مثل علي بن اسماعيل القلعي، المعروف بالطمش، وتنافس الشُعراء والأُدباء والعلماء والمغنون

(١) تناولنا في الفصل الثالث من الكِتاب نسب القبائِل الصنهاجية، إذ يرى البعض، ومنهم أُمراء صنهاجة أنفسهم بأنهم ينتسبون إلى قبائِل حِمير اليمنية التي هجرت الجزيرة العربية، وانتقلت إلى شمال إفريقيا في الأزمان القديمة.

للوصول إلى منصات قصور الحُكّام الصنهاجيين، سواءً في المهدية أو بجاية أو قلعة بني حماد، أو غرناطة، والتي كان يحكمها آنذاك آخر أُمراء غرناطة الصنهاجيين، عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس، الذي عُزل عام ٤٨٣هـ عندما سيطر يوسف بن تاشفين المُرابطي على الأندلس.

كما عُرفت الدولة الحمّادية بتسامحها الديني، فقبلت كافَّة المذاهب الإسلامية، وعاش في كنفها المسيحيون واليهود، الذين ساعدوا الدولة بأعمال التجارة والشؤون المالية وصباغة الصوف، وعملوا كذلك بمهنة الطب.

شكل (٤-١) قائمة الأمراء الحماديين

الحاكم	فترة الحكم
حمّاد بن بلكين	١٠٠٨-١٠٢٨
القايد بن حمّاد	١٠٢٨-١٠٤٥
محسن بن قايد	١٠٤٥-١٠٤٦
بلكين بن محمد بن حمّاد	١٠٤٦-١٠٦٢
الناصر بن علناس بن حمّاد	١٠٦٢-١٠٨٨
المنصور بن الناصر	١٠٨٨-١١٠٥
باديس بن منصور	١١٠٥-١١٠٥
عبد العزيز بن منصور	١١٠٥-١١٢١
يحيى بن عبد العزيز	١١٢١-١١٥٢



خارطة الإمارتين الصنهاجيتين، الزيرية والحمّادية

الفصل الخامس

الهلاليون والقرامطة

تناولنا في الفصول السابقة الأرضية والشعوب والإمارات الأمازيغية التي قامت في شمال إفريقيا، والتي شكَّلت الإطار العام الذي دارت فيه أحداث التغريبة الهلالية، فقد خالط الهلاليون هذه الشعوب وقاتلوها، ومن ثم اندمجوا معها فيما بعد بنسيج واحد مُتكامِل. وننتقل بهذا الفصل والفصول التي تليه للغور في تفاصيل هذه العلاقة ومُجريات الأحداث والوقائع بين القبائِل الهلالية والإمارات الأمازيغية، وكذلك نشأة هذه القبائل وارتحالها من الجزيرة العربية إلى صعيد مصر، ومن ثم لبلاد المغرب وحروبها مع الإمارات الصنهاجية والزناتية بدءاً قبل أن تندمج معها فيما بعد لتصبح جُزءاً أصيلاً من مجتمعات بلاد المغرب الإسلامي.

وقبل تناول التغريبة الهلالية بحيثياتها وتفاصيلها، لا بدّ من دراسة حركة القبائِل الهلالية ما قبل التغريبة، وتحديداً منذُ شيوع الحركة القرمطية المارقة، إذ تقترن القبائل الهلالية ارتباطاً وثيقاً بالقرامطة، فقد شكّلت القبائل الهلالية وبنو سليم وقبائل البادية الأُخرى محور الجيوش القرمطية، التي قامت بكل أنواع الفساد والتدمير وأرهقت الخلافتين العباسية والفاطمية، فقد أحلَّت المُحرّمات، وقتلت الحجيج، وانتزعت الحجر الأسود من مكانه لمدة عشرين عاماً، ونتيجة لهذا الرابط الروحي ببين الهلاليين والقرامطة، فقد أفردنا هذا الفصل لدراسة الحركة القرمطية ودور القبائل الهلالية فيها، كون الهلاليين هُم أحد مكونات الحركة القرمطية.

أصل حركة القرامطة وعقيدتها

اسم القرامطة مأخوذ من الداعية الإسماعيلي العراقي حمدان بن قرمط بن الأشعث، الذي عاش في القرن الثالث الهجري، وكان من المُستجيبين للداعي حسين الأهوازي

الذي كان يدعو للإسماعيلية الشيعية في جنوب العراق. وقد ولِدت حركة القرامطة من رحم الدولة الفاطمية الإسماعيلية، فعندما بدأت دعوة مؤسس الخلافة الفاطمية الإمام عبيدالله المهدي العلنية لإمامته عام ٨٩٩م/ ٢٨٦هـ، أصبح بعدها كافَّة الخُلفاء الفاطميين أئمة، إلا أن قسماً من الإسماعيليين رفض هذه الدعوة، وتمسَّكوا بمبادئ الإسماعيلية الأصلية، كما ذكرنا في الفصل الأول من الكتاب. ومنذئذٍ، أصبح اسم القرامطة يُطلق على القسم الذي تمسَّك بالمبادئ الأساسية للعقيدة الإسماعيلية، عدا قرامطة البحرين[١]، الذين نحو منحىً آخر.

وبذلك، فقد حدد القرامطة أئمتهم بسبعة، بدءاً من الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، حتى محمد بن إسماعيل، والاعتقاد بأنه المهدي، حسب العقيدة الإسماعيلية القرمطية. وخلال العقد الآخير من القرن التاسع الميلادي، الثالث الهجري، طوَّر القرامطة نظامهم العقائدي، حيث اعتبروا أن التاريخ مرَّ بسبع حِقب نبوية، بدأت كل حقبة بـ «ناطق» أي رسول مُبشِّر داعياً إلى رسالة، ويتضمَّن الجانب الظاهِر من هذه الرسالة الشريعة، وفي الحِقب الست التالية كان النُطقاء هم الأنبياء آدم، نوح، ابراهيم، موسى، عيسى، ومحمد عليهم السلام، وخلف كل «ناطِق» وحي يُدعى «أساس» أو الصامِت الذي يُفسِّر الرسالة الموحاة ضمن فترته، وكل وحي خلقَ سبعة أئمة حفظوا الشرائع والكُتب المقدَّسة بجانبيها الظاهر والباطِن، وفي كل دور يصعد الإمام السابع إلى مرتبة الناطِق للدور المُقبِل، حيث ينسخ الشريعة السابقة، ويبدأ بشريعة جديدة. وهكذا، كان الإمام السابع في الدور المُحمدي هو الإمام محمد بن إسماعيل، الذي ذهب في غيبة، وعند عودته، سوف ينسخ الشريعة، ويبدأ الدور العالمي الآخير، حسب العقيدة الإسماعيلية القرمطية.

---

(١) كان يُطلق اسم البحرين على كافّة مناطق الإحساء في شرق المملكة العربية السعودية حالياً.

صراع القرامطة مع الدولة الفاطمية

بالرغم من ولادة العقيدة القرمطية من رحم العقيدة الشيعية الإسماعيلية العبيدية الفاطمية، كما أسلفنا، إلا أن العلاقة بينهما لم تكن على وئام في كافة مراحل الخلافة الفاطمية، واختلف المؤرخون حول شكل العلاقة بين الفاطميين والقرامطة، فيرى المستشرق م. ج. دي خويه، وجود توافق تام بين الطرفين، فيما يرى أغلب المؤرخين عدم وجود ذلك التوافق، وهذا ما تؤكّده الأحداث التاريخية من حروب ومنازعات بين الطرفين.

وكان القرامطة يتنقلون في عدائِهم بين الفاطميين والعباسيين، فنجدهم أحياناً في وئام مع الخلافتين، وفي أحياناً أُخرى في نزاع وحروب معهم، وهذا ربما يعود إلى طبيعة هذه الحركة الإجرامية التي يصعب الركون والاعتماد عليها كحليف، وكذلك للأفعال الشنيعة للقرامطة، والتي كانت بعيدة كُل البعد عن الشريعة الإسلامية السمحة.

وقد بدأت النزاعات بين القرامطة والفاطميين مُنذ عام ٩٠٢م/ ٢٨٩هـ، حينما ثار أحد قادة القرامطة، وهو زكرويه بن مهدويه، ضد ولاة الدولة الفاطمية في الشام، بعد أن استمال قبائل بني كلب في الشام إلى جانبه، كما استمال القرامطة العديد من القبائل البدوية، كما ذكرنا، كالقبائل الهلالية وبنو سليم، الذين شكّلوا عِماد جيوش القرامطة، بالإضافة للقبائل الأُخرى من الجزيرة العربية والشام، وقد سلَّم زكرويه قيادة هذه القبائل لأبنائه، الذين تمكّنوا من قتل أقارب الإمام عبيدالله المهدي وكل من يواليه في بلاد الشام.

وبعد موت زكروية ومقتل أبنائه، تسلَّم الزعامة داع قُرمطي هو أبو حاتم زوتي، حيث حرَّم أكل بعض الخضار وذبح الحيوانات، وسُميَّ أتباعه بـــ «الباقليه»، ثم شمل هذا اللقب جميع القرامطة في العراق، ومن بين قادة القرامطة الآخرين البارزين، عيسى بن موسى، ومسعود بن حريثي.

واستمرَّ القرامطة، بما فيهم القبائل الهلالية والبدوية، بمُهاجمة عِدّة مناطق في الشام وترويع الأهالي، ومهاجمة قوافل الحجاج وسلبها، ففي عام ٩٦٩م/ ٣٥٨هـ. شنَّ القرامطة غارات متُقطّعة جديدة على بلاد الشام، وفي عام ٩٧١م/ ٣٦٠هـ، زادت التحالفات القبلية مع القرامطة، منها بطون جديدة من بني هلال وسليم، وكذلك الحمدانيين ضد الدولة الفاطمية، حيث أصبح القرامطة قوّة كُبرى تمكَّنوا من انتزاع دمشق والرملة من الفاطميين، وضمّهما للخلاقة العباسية، وسب الخليفة الفاطمي المعز على المنابر. وبالرغم أن القبائل الهلالية كانت على عقيدة القرامطة الشيعية الإسماعيلية، إلا أن المُحرِّك الأساسي لها في التُحالفات والحروب هو ما تجنيه من الغزو والسلب والنهب.

وفي بعض المراحل التاريخية، رأت بعض الأطراف في الخلافة الفاطمية إحتواء القرامطة ومهادنتهم بدلاً من محاربتهم، لا سيما أن هُناك عامِلاً مشتركاً، وهو المذهب الإسماعيلي الشيعي، وهذا ماحصل، فقد اتّفق الفاطميون على تقديم دعم مالي للقرامطة مُقابِل وقف هجماتهم على تخوم دولتهم، ولكن فيما بعد، نقض القرامطة هذا الاتّفاق كدأبهم دائماً، وواصلوا هجماتهم على الأراضي الخاضعة للفاطميين.

وفي عام ٩٧٨م/ ٣٦٨هـ، سيَّر لهم الخليفة الفاطمي العزيز بن المعز جيشاً جراراً كان هو على رأس قيادته، وألحق بهم هزيمة مدوية، ولاحق فلولهم، وقضى على كثير منهم. ولكن بالرغم من ذلك، تمكَّن القرامطة من توحيد صفوفهم ومعاودة الإغارة على أطراف الدولة الفاطمية، واستمرّت غاراتهم على أطراف الدولة الفاطمية حتى عام ٩٩٢م/ ٣٨٢ه عندما أعاد قرامطة البحرين تحالفهم الإسمي مع الخليفة الفاطمي.

إقامة الدولة القرمطية (٨٩٩م-١٠٧٦م)

تمكَّن القرامطة من إقامة دولتهم القويّة في البحرين سنة ٨٩٩م، والتي شملت منطقة الإحساء وشرق الجزيرة العربية، وكانت عاصمتها هجر، ويعود الفضل لإقامة هذه

الدولة للقائد القرمطي أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي الهجري (أبو القاسم) نسبة إلى جنابة من بلاد فارس، وقد ادّعى أبو سعيد أنه يُمثِّل المهدي المُنتظر الذي سيظهر عام ٩١٣م/ ٣٠٠هـ، حسب ترهاته.

كما توسّعت الحركة القرمطية لتُسيطر على أماكن أُخرى في الجزيرة العربية وغيرها من المناطق، ففي عام ٩٠٣م/ ٢٩١هـ امتدّت هذه الحركة إلى اليمن بعد أن تمرَّد ابن الفضل على الدولة الفاطمية، وسيطر على صنعاء وادّعى أنه المهدي المُنتظر.

واستطاع القرامطة الصمود بالرغم من الهزائم التي الحقتها بهم الدولة العباسية في العام نفسه، ولكن بعد وفاة ابن الفضل، تشتت القرامطة في اليمن، لكنهم حققوا انتشاراً خارج الجزيرة العربية، حتى وصلوا إلى ما وراء النهر في آسيا الوسطى وخراسان وبلاد الري.

وبالرغم من تراجع قوّة القرامطة في العقد الرابع الهجري (٩١٢م-٩٢٣م)، إلا أن الهجمات التخريبية لقرامطة البحرين تزايدت بحلول عام ٩٢٣م/ ٣١١هـ، وذلك بعد استبدال أبو القاسم سعيد بأخيه الأصغر، أبي طاهر سليمان الجنابي (ت ٩٤٤م/ ٣٣٢هـ)، الذي شنَّ هجمات على الحجيج وجنوب العراق وعاث فساداً، وكان أبو طاهر يتنبأ بظهور المهدي عند اقتران كوكب المشتري مع زحل في عام ٩٢٨م/ ٣١٦هـ، حيث تنبأ بانتهاء دور الإسلام، ليبدأ بعد ذلك الدور السابع والآخير حسب مذهب القرامطة.

ومن أبشع ما قام به أبو طاهر والقبائل الهلالية والقيسية المُتحالفة معه، هو الهجوم على مكّة المُكرَّمة المُشرّفة خلال موسم الحج عام ٩٣٠م/ ٣١٧هـ، وقتل الحجيج وسلبهم، وسرقة كسوة الكعبة، واقتلاع الحجر الأسود، وحمله إلى عاصمة القرامطة في الإحساء، ظناً من أبي طاهر أن ذلك هو نهاية الإسلام، وكان هذا أبشع حدث تاريخي لطَّخ صورة القرامطة عبر التاريخ.

كما هاجم القرامطة جنوب العراق وساحل الخليج العربي وروّعوا الناس، وفي شهر رمضان من عام ٣١٩هـ، عيَّن أبو طاهر شاب من أصفهان على البحرين بدلاً منه، متوقعاً أن يكون هو المهدي المُنتظر، وما كان من هذا الشاب إلا أن عمل على استعادة ديانة فارسية عُرفت بـــ «المانوية»، فأمر بعبادة النار، وشتم الأنبياء، وكان على صلة بالزرداشتية التي أعاد إحياءها، ومن ثم أخذ بقتل كل من يُعاديه من وجهاء القرامطة، فكره الناس أفعاله وثاروا عليه، حتى اضطر أبو طاهر لخلعه وقتله.

بعد هذه الحوادث والخروج الصريح عن ثوابت الإسلام، تضعضعت ثقة الناس بمذهب القرامطة، وأخذ بعضهم بموالاة أعدائهم، وحدث هُناك انقسام بين القرامطة أنفسهم، فقد قطع عيسى بن موسى، أبرز دُعاة القرامطة في العراق، علاقته مع أبي طاهر، مُقابل الدعوة إلى مهدوية محمد بن اسماعيل. توفي أبو طاهر في عام ٩٤٤م/ ٣٢٣هـ.

بعد ذلك تفاوض العباسيون مع القرامطة على استعادة الحجر الأسود، حيث دفع العباسيون مبلغاً كبيراً من المال لهم حتى أعادوا الحجر الأسود طوعاً في مكانة بمكّة المكرَّمة في عام ٩٥١م/ ٣٣٩هـ، وكان زعيمهم في تلك الفترة محمد بن الحسن.

سقوط الدولة القرمطية

كانت دولة القرامطة مُقامة على الهرطقة ومُخالِفة عمّا يُجمع عليه عموم المسلمين، فكرِههم الناس، ولم يحضوا بثقة جيرانهم، وكانت ولاءاتهم تتنقَّل بين الفاطميين والعباسيين والبويهيين، وذلك حسب مصالحهم، كما أسلفنا، فعندما دخل بنو بويه الشيعيون إلى بغداد عام ٣٣٥هـ وسيطروا على الخلافة العباسية، بدَّل القرامطة ولاءهم من الفاطميين إلى البويهيين، مما أشعل نيران الحرابة بين القرامطة والفاطميين، وأدَّت هذه النزاعات إلى إيقاع هزائِم بالقرامطة في عِدّة مناطق في بلاد الشام. بعد ذلك، دخل القرامطة في عداء مع البويهيين والفاطميين معاً، ولجأ الفاطميون لإغراء القبائل القيسية من بين هلال وسليم لإبعادهم عن صف القرامطة وإلحاقهم بمصر إضعافاً

للقرامطة، ولتقوية الدولة الفاطمية من خلال استغلال هذه القبائل للحرب في صفوفها كجنود مُرتزقة مُقابِل المال والغنائِم.

وفي ظل هذه الأحداث، اعترت دولة القرامطة في البحرين حالة من الضعف والتدهور نتيجة للهجمات والخسائر التي تعرّضوا لها من قِبل البويهيين والفاطميين، هذا إضافةً إلى التمرُّد والثوارت التي أضعفت دولتهم، فتمّ مُلاحقة وقتل أبناء أبي طاهر وأتباعه في الأرجاء كافّة والقضاء عليهم، حتى سقطت دولة القرامطة نهائيًا على يد العيونيين(١) في عام ١٠٧٦م، بدعم قوي من الخليفة العباسي القائم بأمر الله والسلطان السلجوقي، ملك شاه، ومما لا شكّ فيه أن انهيار الدولة القرمطية كان نتيجة لفجروهم وزندقتهم وابتعادهم عن الدين الصحيح حتى كرههم الناس.

اللحمة القرمطية الهلالية

شكّلت القبائِل الهلالية وبنو سليم عِماد الجيوش القرمطية رأس الحربة في جيش القرامطة، كما ذكرنا، ومن أشهر هذه القبائل التي انضوت تحت راية القرامطة بالإضافة لبني هلال وبني سليم، هُم بنو معقل، وبنو كلب، وفزارة، وأشجع. وبالرغم من تفرّع هذه القبائل، إلا أنه غلب عليها جميعًا اسم «بنو هلال»، وذلك كون بني هلال كانوا من بين أكبر القبائِل البدوية دموية، ومنخرطة بشكل كبير في جيوش القرامطة.

وكان المال هو الحافز الأساسي لانضمام هذه القبائِل للقرامطة، فقد اتّجهت الكثير من قبائِل الصحراء البدوية إلى الجيوش القرمطية تحت إغراءات المال، وما تسلبه من قطع طرق قوافل الحجيج وسلب ونهب المناطق الآمنة وترويع الأهالي، وبالرغم من انتشار الإسلام في عموم أقطار الجزيرة العربية وخارجها في تلك الفترة، إلا أن الكثير من قبائِل الصحراء البدوية في حقيقة الأمر ظلَّت على عاداتها القائمة على الغزو والسلب والنهب دون أي حرج، بل وتعتز بذلك، وتعتبر الغزو والسلب والقتل من

(١) قامت دولة العيونيون لثلاثة عقود فقط (١٠٧٤م-١١٠٧م)، على يد مؤسسها عبد الله بن علي بن محمد المري العبدي العيوني من قبيلة عبد القيس.

خصال الشجاعة والبطولة، ولم تتمكَّن الخلافة الإسلامية عبر التاريخ من لجم هذه القبائل وتهذيب طباعِها، إذ لم تكن هذه القبائِل تعترف بالانتماء إلى أُمّة أو دولة أو دين، بل تجمعها عصبية القبيلة والدم والثائر، وكانت تدين فقط لأمير القبيلة، مُعتمدة في حياتها الاقتصادية على الرعي والسلب والنهب، وكانت تأنف حياة الحضر أو العمل الزراعي أو التجاري.

وبما أن الغزو والسلب كان أحد أهم مواردها الاقتصادية، فلم تكن تتورَّع هذه القبائِل عن التحالف مع أي من كان في سبيل تحقيق ذلك، فقد اعتمدت الكثير من الدول في عصر صدر الإسلام على هذه القبائل في جيوشها، من خلال إغرائهم بالمال. ونتيجةً لحياتها القاسية في الصحراء وتمرّسها على الغزو والقتل، فقد اتّسمت قبائِل البادية عُموماً بالشجاعة والإقدام، وكانت تفتك وتقتل وتسلب، ثم تنطلق في الصحراء بحثاً عن غنائم أُخرى. وهكذا استخدم القرامطة هذه القبائِل في غزواتهم، وأصبحت الكثير من القبائل البدوية الحربة في يد القرامطة، كما تشيّعت القبائِل الهلالية، وأصبحت على مذهب القرامطة، بالرغم أن استجابتها للتشيُّع كان لا يُعني لها شيئاً سوى المصلحة للمشاركة في الغزوات.

لمحة عن القبائِل الهلالية قبل التغربية

بنو هلال هُم مجموعة قبائل عربية هوازنية قيسية مضرية عدنانية، أقاموا في الجزيرة العربية، وبذلك فهم قيسيون، ينتسبون إلى «قيس عيلان»، وكان شأنهم شأن القبائِل القيسية الأُخرى، وهم على عداء مع القبائِل القحطانية، وكان بنو هلال وسليم على عداوة مع الأزد لمجاورتهم إياهم في نجد والحجاز، وكانت الحروب والعداوات قائمة بينهما.

أمّا السيرة الشعبية فلا تنسب كافّة الفروع الهلالية إلى القبائِل القيسية، فمثلاً تنسب السيرة قبائِل زغبة، إحدى الفروع الهلالية القوية والأساسية، إلى القبائِل الحميرية

اليمانية، ولكن يُجمع أغلب المؤرخين إلى أن القبائل الهلالية بما فيهم زغبة هي قبائل قيسية عدنانية. كما تزعم بعض الروايات أن الجدّ الأول للهلاليين، وهو هلال بن عامر، قدِم إلى النبي صلى الله عليه وسلم في وفد لمبايعته، ولكن ليس هُناك ما يؤكّد هذا الزعم.

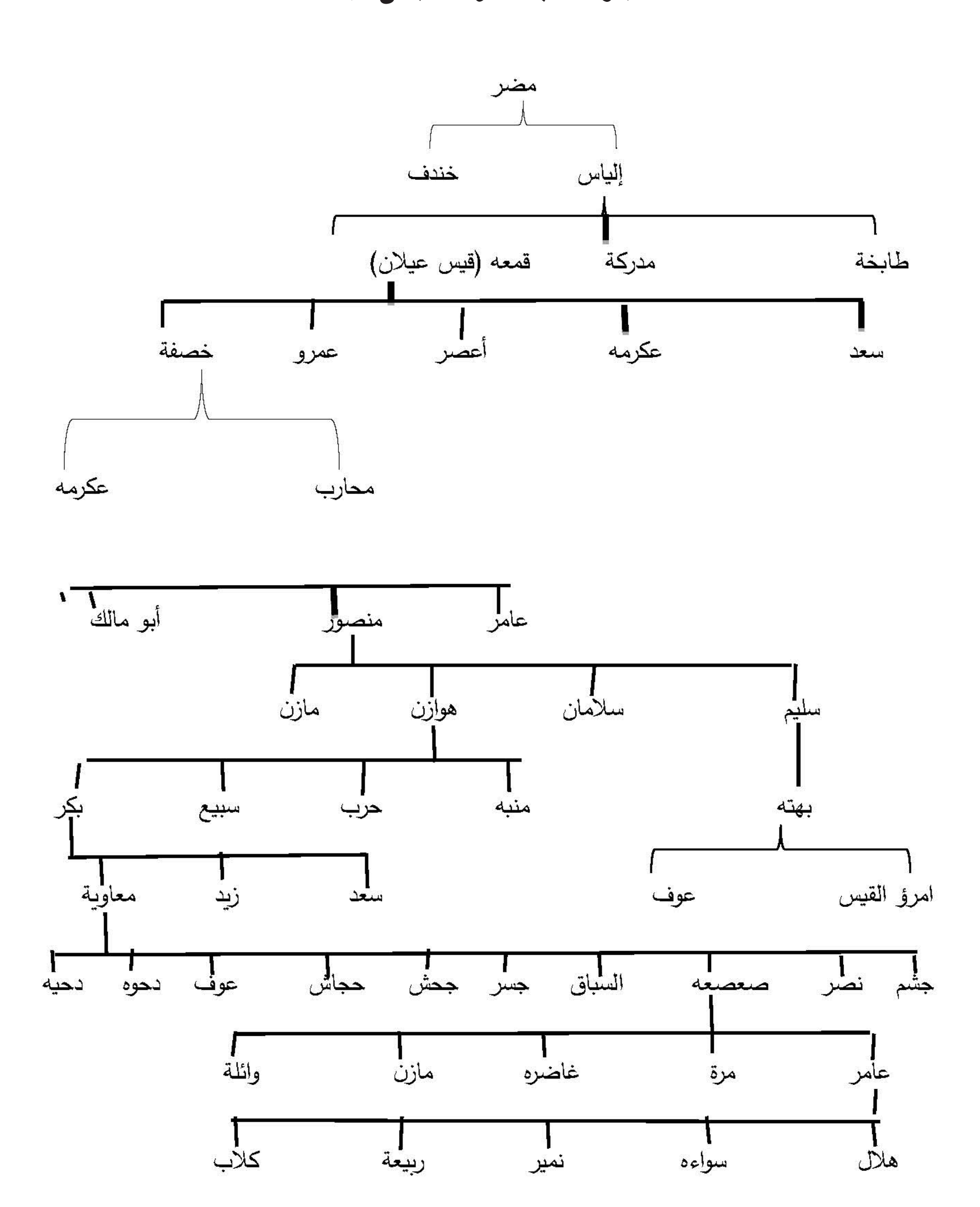
وهذا لا ينفي أن هُناك العديد من القبائِل العربية اتّحدت فيما بعد مع القبائِل الهلالية وشاركتها في مصيرها وحروبها، مثل قبائِل بني سليم، كما ذكرنا، والتي كانت من القبائِل المضرية الكثيرة العدد وقوية المراس، ولم تقلّ عن القبائِل الهلالية عدداً وقوّةً. وفي أثناء التغريبة الهلالية، اشتركت بعض القبائِل العربية الأُخرى، القيسية وغير القيسية، كالقحطانية واليمانية، على الرغم من العداء التاريخي بين القيسية واليمانية، وغلب اسم بني هلال على كافَّة القبائِل التي اشتركت في الأحداث السياسية في تلك الآونة، وقد يكون سبب ذلك هو أن الزعامة عند التغريبة كانت في بني الأثبج من بني هلال، وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون: «وكان فيهم من غير هلال كثير من فزارة وأشجع من بطون غطفان وجشم بن معاوية بن بكر بن هوازن وسلول بن مرة بن صعصعة بن معاوية والمعقل من بطون اليمنية وعمرة بن أسد بن عامر بن صعصعة وعدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان وطرود بطن بن فهم بن قيس»[1]. ونوضِّح في الشكلين التاليين (٥-١) و (٥-٢)، شجرة النسب الهلالية، وأهم بطون الهلاليين على التوالي.

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص ٦٢.

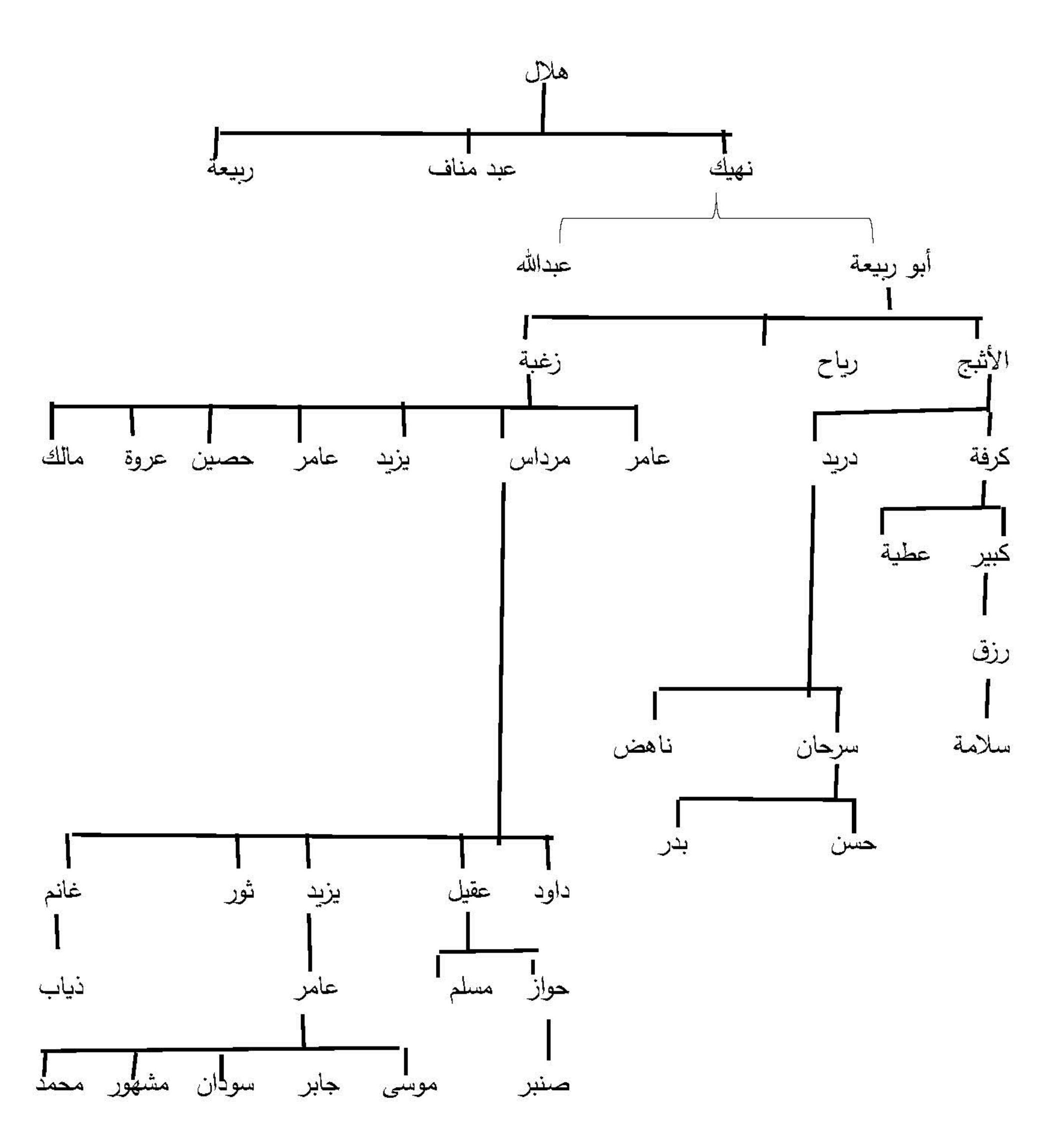
شكل (٥-١)

شجرة نسب أُصول القبائل الهلالية



شكل (٥-٢)

شجرة نسب البطون الهلالية الأساسية



مواطن القبائِل الهلالية

اختلف المؤرخون في مكان وجود الهلاليين في الجزيرة العربية، فحسب ابن خلدون، أنهم كانوا يعيشون في بادئ الأمر مع قبائل بني سليم في نجد، وفي أحياء ناجعة من قفر الحجاز، ومنتشرين في جبل غزوان عند الطائف، وربما كانوا يطوفون رحلة الشتاء والصيف وأطراف العراق والشام، ومنازلهم تشمل: العلا، يريك، دوس، الفتق، القريحة، غروش، ومران، صريحة، وعكاظ، ومن أوديتهم: جلذان، زبيه، وتربه بالقرب من مكّه، وهي غاية في الخصب، يشاركهم فيها ضباب وعامر بن ربيعة.

ويضيف ابن خلدون، أن جميع بنو عامر بن صعصعة، وهم فرع أساسي في بني هلال، كانوا في بسائط الطائف، في حين ذكر الأصمعي أن جُل بني هلال كانوا في الحجاز، كما جاء في تاريخ الطبري، أمّا بعض المؤرخين المحدثين، كفؤاد حمزة (١٣٥٢هـ)، فحدّد مناطق بني هلال عند ساحل البحر الأحمر جنوب القنفدة في المملكة العربية السعودية، كما أشار أبو إسحق الحربي (ت ٢٨٥هـ) إلى أن موطنهم في الجزيرة العربية كان في منطقة «تُربة وذات عرق».

ومُنذ الفتح الإسلامي، انتشرت بعض القبائِل القيسية، ومنها الهلالية، في بادية العراق، وعُرفت بعض المناطق هُناك بديار مضر وديار ربيعة، كما كان لبني هلال وسليم وجود في حواضر العراق، وقد ذكر الطبري أن فريقاً من بني هلال وسليم قد سكن في بوادي الكوفة حوالي ١٢٠هـ، وكان بهذا الموضع مسجداً، يُعرف بمسجد بني هلال، كما نزلت جُموع من بني هلال في الموصل، وانتشر قسم منهم في الشام، وهُناك جبل في منطقة حوران يُسمى بـ «جبل بني هلال».

كما أقامت قبائل من بني قرة، والذين يتنسبون إلى بني هلال، في الشمال الغربي لدلتا النيل وفي شرق ليبيا، وكان بنو قرة قد سبقوا التغربية الهلالية بسنوات طويلة في القدوم إلى مصر، ومن ثم إلى برقة في شرق ليبيا، وقد ساندوا أبا ركوه في شق عصا

الطاعة للعبيديين، كما كان لهم دور بارز في التغريبة الهلالية، من خلال ترغيب البطون الهلالية الأُخرى بالانسياح إلى شمال افريقيا.

وكانت أغلب القبائِل الهلالية بطبيعتها البدوية ظاعنة لم تتحضَّر، وتتنقَّل في حركة مُستمرَّة ما بين الحجاز وبلاد الشام والعراق في رحلة الشتاء والصيف، وكانوا أثناء ترحالهم يغيرون على أطراف هذه البلاد ويفتكون بها، ويخرّبون العمران، وينهبون المدن، ويقطعون الطرق على قوافل الحجاج، لا سيما في أوائل العهد العباسي، إذ عجزت الخلافة العباسية عن وضع حدّ لغاراتهم.

علاقة بني هلال بالإسلام

كان بنو هلال قبل الإسلام وثنيون يعبدون صنماً يطلقون عليه اسم «ذو الخصلة»[١] مع خثعم وبجيلة، كما كانت سليم تعبد صنماً اسمه «ضمار»، وكانت هوازن، القبيلة الكبرى التي تنتسب لها القبائل الهلالية، تعبد صنماً يُدعى «جهار».

وبعد الإسلام، كانت هوازن آخر من اعتنق الإسلام، فقد ناصبت هي وبنو سليم العداء للمسلمين، لا سيما بعد فتح مكّة المُكرّمة بأيدى المسلمين، والذي أحدث دوياً في الجزيرة العربية، فقد زحفت هوازن إلى مكّة بقيادة مالك بن عوف، واجتمعت معها بنو سليم، بما فيهم ثقيف كُلّها، ونضر، وجشم، ووقعت معركة حنين، إحدى أعنف المعارك التي خاضها المسلمون، والتي كادت أن تنتصر بها هوازن والقبائِل المتحالفة معها لولا تدارك المسملين للمعركة.

كما كانت العديد من البطون القيسية من أوائل القبائِل التي ارتدّت عن الإسلام بعد وفاة الرسول محمد صلى الله علية وسلم، وحتى بعد اعتناقها الإسلام، ظلّ العديد منها، مثل بني هلال وسليم، على كثير من عاداتهم الجاهلية من حيث القتل والسلب والنهب.

---

(١) «ذو الخصلة»: صنم على شكل أُنثى، كانت القبائل تقصده لاستطلاع الغيب، والخصل في اللغه هو نبات طيّب الرائحة له حَبّ كعنب الثعلب.

علاقة القبائِل الهلالية بالدولة الإسلامية

بعد قيام الدولة الإسلامية، كانت القبائِل القيسية، وعلى الأخص (بنو هلال وسليم)، من أكثر القبائِل المتمرّدة على الدولة الإسلامية، فلم تكن تألف نظام الدولة، ولا تعير للدولة أي اهتمام، وكانت سرعان ما تنضم مع الثائرين من أجل المال والغنائم، ففي العهد الأُموي، تمرَّدت القبائِل القيسية على الخلافة الأموية مُنذ نشأتها، لا سيما في عهد مروان بن الحكم، عندما تحالفت هذه القبائِل مع عبدالله بن الزبير، وفي عام ٦٤هـ، حارب بنو سليم وعامر وغطفان، وكُلّهم من قيس، تحت راية الضحاك الفهري الشيباني عند مرج راهط في غوطة دمشق.

وفي العهد العباسي، ظلَّ بنو هلال وسليم على عداء مع الخلافة العباسية، وواصلوا حروبهم وغاراتهم على الأهالي الآمنين، ففي عام ٢٣٠هـ أغاروا على المدينة المنوّرة وألحقوا دماراً بها، فقتلوا ونهبوا، ولم يقوَ الوالي العباسي على ردّهم، فجهّز لهم الخليفة الواثق بالله بن المعتصم (ت ٢٣٢هـ/ ٨٤٧م) حملة قادها القائد القوي «بغا التركي» (ت ٨٦٢هـ)، وحاصرهم في المدينة، وتمكَّن من هزيمتهم بعد عناء طويل.

وهكذا، ظلّت هذه القبائل، كما ذكرنا، تؤرِّق الأنظمة الحاكمة سواءً بعد انضمامها إلى صفوف الحركة القرمطية المارقة، وصولاً لعلاقتها المُتأرجحة مع الفاطميين، والتي بقيت بين شدٍّ وجذب، وقد واصلت هذه القبائِل عداءها للإمارات الإسلامية القائمة بعد غزوها إفريقية والمغرب الأوسط، إذ ألحقت دماراً هائلاً بالإمارات الإسلامية الأمازيغية القائمة، وفتكت بالسكان، ونهبت وقتلت، لا يردعها رادع سوى الإغراء بالمال.

بروز بني هلال على الساحة السياسية

ظهر اسم القبائِل الهلالية على مسرح الأحداث السياسية مع قيام الخلافة العباسية، وفي الفترة الممتدة من أواخر القرن الثالث الهجري وخلال القرنين الرابع والخامس

الهجري، نتيجة استقطاب هذه القبائِل من قِبل الدول والكيانات السياسية، التي كانت قائمة في تلك الفترة، كالقرامطة والخلافة الفاطمية، كما سنبيّن ذلك في الفصول اللاحقة.

فبعد تكاثر بني هلال وسليم على مرّ الأيام، لعبوا دوراً سلبياً في الدولة الإسلامية، مُسببين لها هزّات عنيفة، مما غيَّر من أوضاعها، وقوَّض بعض نظمها وتقاليدها، فعند ظهور الدعوة القرمطية انضم إليها بنو هلال وبنو سليم، كما وضَّحنا ذلك سابقًا، وحاربوا إلى جانبها في المعارك التي خاضوها في الإحساء والبحرين وعُمان وبلاد الشام، وعندما قهرهم المُعز لدين الله الفاطمي والعزيز بالله القرامطة، وسيطرت الجيوش الفاطمية على بلاد الشام، انسحب القرامطة، بما فيهم بنو هلال وبنو سليم إلى الإحساء ليشكّلوا إحدى أركان الدولة القرمطية المارقة.

الفصل السادس

التغريبة الهلالية في التاريخ

بعد أن تطرّقنا في الفصل السابق لأوضاع القبائِل الهلالية ما قبل التغريبة وعلاقتها بالقرامطة وتمرّدها على نظام الدولة الإسلامية، ننتقل بهذا الفصل إلى شرح أكبر الأحداث التي رسمت تاريخ الهلاليين، وهي الهجرات الجماعية لهم وللقبائِل المتحالفة معهم، والتي وسمت بما يُسمى «بالتغريبة الهلالية»، نتيجة للانتقال الجماعي لهذه القبائِل البدوية من المشرق العربي إلى بلاد المغرب، مروراً ببلاد الشام ومصر، ونبحث في هذا الفصل مُسببات هذه التغريبة، والمرحلة الأولى من الهجرة إلى صعيد مصر، ومن ثم اجتياح تونس، وإسقاط الدولة الزيرية الصنهاجية، وتقليصها إلى دويلة صغيرة، ومشاركة الهلاليين في الحروب الداخلية مع القبائِل الأمازيغية الأُخرى كالزناتيين وبني حمّاد في إفريقيه والجزائر ومختلف المناطق في شمال إفريقيا.

أهمية التغريبة في التاريخ

التغريبة الهلالية من أكبر الهجرات القبليّة وأبعدها مسافة لقبائِل البادية العربية في التاريخ، والتي تمثَّلت بالهجرة المعروفة من الجزيرة العربية إلى صعيد مصر، ومن ثم الانزياح الكبير إلى شمال إفريقيا وبعض مناطق القارة السمراء، وقد ذاع صيت هذه التغريبة في أرجاء البلدان العربية كافّة، سواء في الجزيرة العربية، أو بلاد الشام ومصر، وفي شمال إفريقيا، ونسج الرواة عنها خُرافات وأساطير، وذلك على الرغم من وجود هجرات كانت مُعتادة ضمن الجزيرة العربية وجوراها من بلاد الشام والعراق بحثاً عن الكلا والماء، ولكن الهجرة الهلالية إلى شمال إفريقيا اتّسمت بطابع مُختلف، وذلك لبعد المسافة بين الجزيرة العربية وشمال إفريقيا، أي بأكثر من ٥ ,٤ ألف كيلو متر، وهذا بحاجة إلى مسيرة تستغرق عِدَّة سنوات مشياً للوصول إلى تلك المناطق.

وقد نتج عن هذه الهجرة تغيّرات ديموغرافية في شعوب شمال إفريقيا، ما لم تستطع تحقيقه الفتوحات العربية الإسلامية السابقة، فبالرغم من وحشية القبائل الهلالية، إلا أنها غيّرت من تركيبة المُجتمع في بلاد المغرب الإسلامي، فعلى مدى القرون اللاحقة للتغريبة، تسببت هذه الهجرة في تكوين نوع من الاندماج ما بين القبائِل العربية والأمازيغية، وفي تشكيل مُجتمع جديد مُتماسِك، ومتشابه بعاداته وتقاليده ولهجته الخاصّة به، فكلا المُجتعين العربي والأمازيغي أثّرا في بعضهما، ففي الوقت الذي ساهم فيه الهلاليون بتعريب شمال إفريقيا، وفي الاندماج مع الإمارات الأمازيغية هُناك، أثّر الأمازيغ أيضاً في تهذيب طبائع هذه القبائِل وسلوكها على مدى السنوات التي تلت التغريبة.

مُسببات التغريبة الهلالية

نستطيع تقسيم مُسببات التغريبة الهلالية إلى شقّين، مُسببات طاردة، وأُخرى جاذبة:

المُسببات الطاردة

تنقسم المُسباب الطاردة إلى عوامل طبيعية وسياسية:

أولاً: العوامل الطبيعية

العوامِل الطبيعية للهجرات القبلية بوجه عام، هي عوامِل طاردة التي كانت تُجبر القبائِل على التنقُّل والترحال، كالمحل والجفاف، وهذه صفة أساسية لتنقُّل القبائِل البدوية على مرّ التاريخ، وهذه العوامل ساهمت إلى حدٍ كبير بهجرة أغلب القبائِل القيسية، بما فيها بنو هلال وسليم، فكانت هجرتهم في الدرجة الأولى بسبب القحط والفقر، ويتّفق المؤرخون أن القحط الذي عمَّ البلاد خلال العقد الخامس من القرن الخامس الهجري كان من أسباب هجرة العديد من القبائِل، ويذكر ابن فهد (٨١٢هـ-

٨٨٥هـ) في كتابه «اتحاف الورى بأخبار أم القرى»[1] أنه في سنة ٤٤٠هـ كان بمكّة المكرَّمة غلاء وبلاء وجوع، واستمرَّت هذه الأوضاع لمدَّة عشر سنوات، أي حتى عام ٤٥٠هـ، وحدثت خلال هذه الفترة الهجرة الهلالية إلى مصر وشمال إفريقيا، ولم تكن هذه الهجرة دُفعةً واحدة، بل على شكل أفواج وعبر فترات زمنية مُختلفة.

وقد بدأت هجرات القبائل العربية بوجه عام مُنذ القرن الأول والثاني الهجري، وكانت هناك هجرات لبعض القبائِل القيسية إلى مصر مُنذ عهد الدولة الأُموية، فمثلاً كانت هجرة قبائِل بني قرّة، وهي قبائِل قيسية هلالية، إلى غربي الدلتا والجبل الأخضر مُنذ العهد الأموي، وقد أتت إليها قبائِل قيسية من بني هلال وسليم، ونزلت بالحوض الشرقي من النيل في عهد الخليفة الأُموي هشام بن عبدالملك (٦٩١م/ ٧١هـ- ٧٤٣م/ ١٢٥هـ)، وعندما سكنت مضر وربيعة في أسوان ووادي العلاقي وعيذاب بعد عام ٢٣٨هـ، زاد التواصل بين البطون المُتجانسة قبليًا، وواصلت هجراتها هُناك.

ومُنذ القرن الثالث الهجري وحتى الخامس الهجري، تزايدت حِدة هجرة القبائِل خارج جزيرة العرب، وكانت بداية جُزءاً من الحركة العامَّة للقبائِل القيسية التي كانت مُنتشِرة في تلك الأصقاع شرقًا وغربًا، وكان الهلاليون يشكّلون جُزءاً أساسيًا من القبائِل القيسية المُهاجرة، كما كان بنو سليم يُمثّلون أغلبية القبائِل القيسية التي هاجرت إلى مصر.

وفي بداية هذه الهجرات، كان عدد المُهاجرين محدوداً، لا يتجاز عددهم ثلاثة آلاف، ثُم تضاعف العدد في السنة التالية إلى سبعة آلاف وخمسمائة، وكانت هذه الهجرات تسير وفق مسارات مُختلفة، فمثلاً، كانت بعض القبائِل تتّجه صوب العراق، وبعد فترة تتحوَّل وتتجّه نحو الشام، ثم إلى غزّة، ومن ثم تعبر سيناء إلى مصر، وتقيم في صعيد مصر مع القبائِل الهلالية التي سبقتها هُناك.

---

(١) بن فهد، عمر بن محمد، اتحاف الورى بأخبار أم القُرى (تحقيق فهيم محمد شلتوت)، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٣هـ.

ثانياً: العوامل السياسية

بالإضافة للعوامِل الطبيعية، شهدت الجزيرة العربية عوامِل طاردة أُخرى تمثَّلت بنزوح وفرار المُجتمعات نتيجة ويلات الحروب، فقد كان لصراع بعض القبائِل القيسية والقرامطة مع الخلاقة العباسية أحد أسباب هجرة القبائِل القيسية، ففي عام ٢٣٠هـ، أرسل الخليفة العبّاسي الواثق بن المُعتصم قائِده «بغا الكبير» إلى قبائِل بني هلال وسليم والقبائِل القيسية الأُخرى، فقتل وأسر أعداداً كبيرة منهم، نتيجة مهاجمة هذه القبائِل المدينة المنورة، كما ذكرنا آنفاً في الفصل الخامس.

وأثناء خلاقة الواثق، ترتَّب على تعسُّف الأخيضريين[1]، وقسرهم الناس على مذهبهم الشيعي الزيدي إلى جلاء قطاعات كبيرة من القبائِل الموجودة في قلب الجزيرة العربية إلى مصر والسودان، ومختلف المناطق في إفريقيا، وقد عبرت هذه القبائِل النيل الأعلى وغربي البحر الأحمر في مصر والسودان.

المُسببات الجاذبة

بالإضافة للمُسببات الطاردة، كانت هُناك أسباب جاذبة للقبائِل الهلالية للهجرة من أوطانها، تتمثَّل بالترغيب في تغيير الديار من قِبل إخوانهم الذين سبوقهم إلى تلك البلاد، والإغراء بالظروف والرفاهية، كالمراعي الوفيرة والمساقي الجمّة، وكذلك للتكاتُف والتآزُر، وقد دفعت مثل هذه الظروف العديد من القبائِل القيسية إلى المُغادرة إلى باديتيّ العراق والشام، حيث أصبحت لمضر ديار هُناك، وقد استوطنت قبائِل من بني هلال وسليم وادي الكوفة مُنذ عام ١٢١هـ، وظلَّت هذه القبائِل على تواصل مع القبائل الهلالية الأُخرى التي لم تهاجر بعد، يحفزونها على الهجرة، كما قدّمت الخلافة الفاطمية المال للقبائِل الهلالية لغزو إفريقية، وسنأتي لتناول هذا الموضوع بالتفصيل في سياق هذا الفصل.

---

(١) الدولة الأخيصرية (٨٦٦م-١٠٩٣م)، هي دولة إسلامية زيدية شيعية، تأسست في إقليم اليمامة على يد الأمير محمد بن يوسف الأخيصر الحسني الهاشمي، حيث تمرَّد الأخيصريون على الخلافة العباسية في تلك الفترة، وأقاموا إمارتهم على غرار دولة القرامطة في البحرين.

الهلاليون وشُكر الشريف

هُناك قصص تُروى على ألسنة الرواة في السيرة الشعبية حول علاقة بني هلال بشريف مكَّة المكّرمة «شكر» قبل رحيل الهلاليين من الجزيرة العربية، وكيف تم خطف الجازية الهلالية من زوجها شكر للاستعانة برأيها أثناء هذه التغريبة، وبالرغم من الطابع الأسطوري للعديد من هذه الروايات، إلا أن ما يُعنينا هُنا، هو التأطير التاريخي للأحداث، وتنقيتها من الأساطير والخرافات.

وحسب ما أورد جهابذة التاريخ أن شُكر، ويُكنّى بأبي الفتوح، هو شُكر بن الحسن بن جعفر بن محمد بن الشريف الحسين الموسوي، المُلقَّب بتاج المعالي، كما يُكنّى بأبي عبدالله، وهو آخر الحُكّام الموسويون، تولَّى إمارة مكَّة المُكرّمة سنة ١٠٣٨م / ٤٣٠هـ في ظلّ الخلافة الفاطمية، بعد عزل أبيه الذي كان قد تمرَّد على الفاطميين، ودامت ولايته ثلاثاً وعشرين سنة حتى عام ٤٥٣هـ، وقوي أمره، فحكم ما بين جبلي طيء إلى سراة الحجاز، وكانت فترة إمارته مُعاصرة لجلاء بني هلال، وكان ايضاً أديباً وشاعراً، ومن شعره:

وصلتني الهموم وقل هواك

وجفاني الرقاد مثل جفاك

وحكى لي الرسول أنك غضبي

يا كفى الله شرّها ما هو حاك

ومن شعره أيضاً:

قوِّض خيامك عن دار أُهنت بها

وجانب الذل إن الذل مجتنب

وارحـــل إذا كـانـت الأوطـــان مطيعـةً

فـالـمـنـزل الـرحـب في أوطـانـه حـطـب[1]

بدأت أحداث بني هلال قبل التغريبة مع شُكر الشريف، كما ذكرنا، فجمعتهم علاقة مصاهرة، بعد أن تزوَّج شُكر من «نور بارق»، المعروفة بالجازية، أخت أميرهم حسن بن سرحان من أُمراء الأثبج من بني هلال، وبالرغم من علاقة النسب هذه، إلا أن شُكر خاض عِدَّة معارك ضد الهلاليين دفاعـاً عن الحجيج ومكّة المكرَّمة، فقد كانت قبائِل بني هلال وسليم والقرامطة تستغل موسم الحج للإغارة على الحجيج لسلب أمتعتهم وقتلهم، وقد أمعنت هذه القبائل إلى جانب القرامطة في مُهاجمة الحجيج، كما بيّنا ذلك في الفصل الخامس من الكتاب. وقد أسبغت الخلافة الفاطمية على شكر الشريف لقب «تاج المعالي»، وذلك لما تمتَّع به من شجاعة في تأديب القبائِل المُتمرِّدة، فاستطاع ردّ إعتداءات الهلاليين وبني سليم عن قوافل الحجاج في أكثر من موقع.

وبذلك، وقف شكر الشريف بكلّ شجاعة وحزم ضد القبائِل الهلالية لحماية الحجيج، مما وتّر العلاقة بينهما بالرغم من أواصر المُصاهر، وعندما هجر بنو هلال الجزيرة العربية اختطفوا زوجته الجازية، بعد أن تحايلوا عليه، وفي ذلك يؤكِّد ابن خلدون في مقدمته على تلك العلاقة التي كانت قائِمة بين بني هلال وشكر الشريف بالنص التالي: «... ولهؤلاء الهلاليين في الحكاية حين دخولهم إلى إفريقية طرق في الخير يزعمون أن الشريف بن هاشم صاحب الحجاز، ويسمونه شكر بن أبي الفتوح، وأنه أصهر إلى الحسن بن سرحان في أخته الجازية، فأنكحه إياها، وولدت منه ولداً اسمه محمد، وأنه حدث بينهم وبين الشريف مغاضبة وفتنة، وأجمعوا الرحلة عن نجد إلى إفريقية، وتحيّلوا عليه في استرجاع الجازيه، فطلبته في زيارة أبويها، فأزارها إياهم، وخرج بها إلى حللهم، فارتحلوا بها، وكتموا رحلتها عنه، وموّهوا عليه بأنهم يباكرون للصيد والقنص ويروحون إلى بيوتهم بعد بنائها، فلم يشعر بالرحلة إلى أن فارق موضع

---

(١) البلادي، عاتق بن غيث، الإشراف على تاريخ الأشراف، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٢م.

ملكه، وصار إلى حيث لا يملك أمرها عليهم، ففارقوه، ورجع إلى مكان من مكة، وبين جوانحه من حبها داء دخيل، وأنها بعد ذلك كلفت به مثل كلفه، إلى أن ماتت من حبه»[1]. توفي شكر الشريف في شهر رمضان عام ١٠٦١م / ٤٥٣هـ بعد حياة حافلة بالأحداث.

حشد الهلاليين في مصر

بالرغم من الحروب السابقة التي خاضها الفاطميون ضد القبائِل الهلالية، إلا أنهم لم يستطيعوا ردعها بشكل كامِل، بل استمرَّت هذه القبائِل في تقويض الأمن والسلم لكافّة المناطق الواقعة ضمن الخلافتين الفاطمية والعباسية، وفي نهاية المطاف، لم ترَ الخلافة الفاطمية من مناص سوى مُهادنة هذه القبائِل المارقة والتقرُّب منها، عند ذلك، غيّر الفاطميون من نهجهم تجاه هذه القبائِل من سياسة الحرب إلى الاحتواء والمُهادنة.

وكان من ضمن سياسات الخلافة الفاطمية تشجيع الهلاليين على القدوم إلى مصر ليكونوا تحت رقابتها، وكانت الخطة هو تجميعهم في مكان مُحدد، وهو صعيد مصر ليكونوا تحت رقابة الفاطميين بشكل مُباشِر، ولاستخدام هذه القبائِل ضد أعداء الدولة عند الحاجة.

وبدأت فترة نزوح القبائِل الهلالية والسلمية والقبائِل العربية الأُخرى المتحالفة معهما إلى مصر في أواخر القرن العاشر الميلادي، أي في عهد الخليفة الفاطمي العزيز بالله، الذي أخذ بتشجيع نقل المزيد من قبائِل بني هلال وسليم إلى صعيد مصر، لكي يُجنّب بلاد الشام من غاراتهم وشرورهم، ولدرء خطرهم عن مُهاجمة أطراف الدولة، وقتل الحجيج، حيث كان الهلاليون القوّة الضاربة في جيوش القرامطة، التي كانت تُهاجم وتقتل الحجيج والآمنين من الأهالي، كما ذكرنا ذلك في الفصل الخامس.

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ٤١١.

وهكذا، ونتيجةً للعوامِل سالفة الذكر وبتشجيع من الفاطميين، بدأت أفواج من بني هلال وسليم بالزحف إلى صعيد مصر قادمين من الجزيرة العربية عبر الشام، فغزّة، فسيناء، وفي ذلك يقول ابن خلدون: «إن العزيز باللّه العبيدي (٣٦٥هـ-٣٨٦هـ) نقل بني هلال وسليم إلى مصر، فأنزلهم بالعدوة الشرقية للنيل وبالصعيد، وكانت القبائِل الهلالية تضمّ عشائِر: جشم، الأثبج، زغبة، رياح، ربيعة، وعدي»[1].

وفي أواخر عهد العزيز باللّه نزحت المزيد من بطون سليم وهلال بسبب حروبهم مع قبيلة بني المتّفق، وهي إحدى القبائل القيسية قوية الشكيمة، التي كانت تقطن في السهل الساحلي من الجزيرة العربية، حيث زاحمت بني هلال وسليم، مما دفعهم إلى الهجرة.

وهكذا، نستطيع تلخيص مُسببات الهجرة الهلالية بعامِلين، هُما: عامِل الطرد المتمثِّل بشح الموراد والقحط الذي ألَمَّ بالجزيرة العربية، والعامِل الثاني هو عامِل الجذب، المُتمثِّل بالإغراءات التي قدّمتها الخلافة الفاطمية لاستقدام هذه القبائِل إلى صعيد مصر، لتكون تحت رقابتها ولاستخدامها في الجيوش الفاطمية عند الضرورة، وكانت السلطات الفاطمية تحظر على القيسية بشرق النيل الانضمام لإخوانهم بغرب النيل درءاً للإضطرابات.

وفيما بعد استئنست هذه القبائل الحياة في صعيد مصر تحت كنف الدولة الفاطمية، لا سيما أن هذه القبائل كانت تنتمي أيضـاً للشيعة الإسماعيلية، مذهب الدولة الفاطمية، بالرغم أن الانتماء المذهبي والديني لهذه القبائِل كان شكلياً، فلم تكن تتوانى عن ارتكاب المُحرّمات وقتل الأبرياء ومهاجمة قوافل الحجاج وسلبهم وقتلهم.

---

(١) مقدمة ابن خلدون.

مسارات نزوح القبائل الهلالية الى مصر

تُجمع المُصنفات الجُغرافية أن هجرة القبائِل الهلالية لمصر بدأت من الجزيرة العربية إلى الشام، ومن ثم إلى السهل الساحلي، مروراً بعسقلان، فغزَّة، ثم رفح، فالشجرتين، فالعريش، ثم اخترقت جزيرة سيناء، لتصل في نهاية المطاف إلى صعيد مصر.

وتجدر الإشارة إلى أن هُناك قبائِل عربية أُخرى كانت قد سبقت الهلاليين إلى صعيد مصر، مثل بني قرة من بني هلال، كما ذكرنا آنفًا، وكذلك قبائِل من عرب جنوب الجزيرة العربية، فقد نزل الصعيد الأعلى عند أسوان، وما بعدها بنو جهينة، إحدى بطون قضاعة، وانتشروا في اقليم النوبة، ونزلت الصعيد الأعلى أقوام بن بني ربعية من معد وغيرهم، واتّجهت بعض القبائل الى السودان والحبشة.

انسياح الهلاليين نحو تونس وبلاد المغرب

بعد أن تجمَّعت قبائِل بني هلال والقبائِل العربية الأُخرى المُتحالفة معها في صعيد مصر، تزايد خطرها في حقيقة الأمر على الخلافة الفاطمية في مصر، على عكس ما كان يرنو إليه الفاطميون، لا سيما أن أغلب القبائِل الهلالية في مصر كانت تعيش حياة البداوة والفقر، ولم يستطع هؤلاء الأعراب الخروج عن طبائِعهم، فنقلوا إلى الديار المصرية ما اعتادوا عليه من حياة الصحراء في الحروب والثارات، فسرعان ما دبّت الحروب فيما بينهم، لا سيما الحروب الطاحنة بين زغبة ورياح، كما تزايدت عمليات السلب والنهب، فاستمرَّ الهلاليون بالإغارة على الآمنين من أهل مصر، وقطع الطُرقات، وامتهنوا اللصوصية والهجوم على القوافل التجارية، حتى أصبحت الخلافة الفاطمية تضيق ذرعـًا بالهلاليين من شرق مصر وغربها، لا سيما بعد أن نشأ هُناك تواصل بين الهلاليين في مصر وأبناء عمومتهم من بني قرة في برقة الذين سبقوهم بسنوات في الهجرة، وأخذوا يشجعونهم ويرغبونهم بالقدوم إلى برقة.

وتزايدت المخاطر على حاضرة الخلافة الفاطمية في القاهرة في عهد الخليفة المُستنصر الفاطمي (٤٢٨هـ-٤٨٧هـ)، فبعد أن دخلت هذه القبائِل في حروب ونزاعات فيما بينها في مصر ومُهاجمتها الآمنين، أصبحت تُشكِّل عبئًا ومُسببة قلاقل تُرهق الدولة الفاطمية، كونها قبائِل بدوية كثيرة العدد لا تعرف الخضوع لنظام الدولة، ولا تحفظ عهداً أو ميثاقًا، ولا تجيد أي عمل غير رعي الإبل والغزو والإغارة على بعضها بعضًا وعلى القبائِل الأُخرى، بغرض السلب والنهب والتخريب والقتل.

وقد واكب تلك الفترة خروج الإمارة الزيرية الصنهاجية في إفريقية في عهد الأمير الصنهاجي المعز بن باديس (١٠٠٨م-١٠٦٢م) عن طاعة الخلافة الفاطمية، وإعلان المُعز تبعية إمارته للخلافة العباسية في بغداد، كما شرحنا ذلك في الفصل الثالث من الكتاب، وكانت الدولة الفاطمية تعتبر أن بلاد المغرب ما زالت جُزءاً منها، وكان إعلان الإمارة الزيرية الصنهاجية إنهاء التبعية للفاطميين بالأمر الجلل، الذي أزعج الخلافة الفاطمية، لكنها لم تكن في تلك الفترة قادرة على تسيير جيوش بنفسها لاستعادة إفريقية.

وكان لوزير الدولة الفاطمية في تلك الحقبة، أبي محمد الحسن اليازوري (ت ١٠٥٨م) ضغائن شخصية على المعز بن باديس صاحب إفريقية؛ لأن اليازوري لم يكن من أهل الوزارة، وإنما من أهل الفلاحة، ولم يكن المُعز يخاطبه كما كان يخاطب قبله من الوزراء، حيث كان يخاطبهم «بعبده»، في حين كان يخاطب اليازوري «بصنيعته» احتقاراً له، مما زاد حنق اليازوري على المُعز، وأخذ يُقنع الخليفة الفاطمي المُستنصر بإطلاق الأعراب الهلاليين إلى تونس لإسقاط الدولة الزيرية الصنهاجية هُناك، وقد كانت الخلافة الفاطمية قبل ذلك تمنعهم من التوجّه غربًا، وبدفع الهلاليين نحو تونس، تكون الخلافة الفاطمية بذلك قد حققت هدفين بضربة واحدة، وهُما:

أولاً: التخلُّص نهائيًا من هذه القبائِل في مصر، حاضرة الخلافة الفاطمية، حيث أن

وجودها في صعيد مصر أصبح يُرهق الدولة الفاطمية، ويشكل تهديداً لأمنها، كما أسلفنا.

ثانياً: الانتقام من الدولة الزيرية الصنهاجية، وإحداث متاعب للأُمراء الصنهاجيين في إفريقية، عقاباً لهم على خروجهم على الخلافة الفاطمية، وإلحاق تبعيتهم بالخلافة العباسية في بغداد، كما أسلفنا ذكره.

فاستحسن الخليفة المُستنصر هذه الفكرة، واقتنع بها، ووجدها أفضل وسيلة للانتقام من بني زيري، أُمراء صنهاجة في المغرب، وعلى رأسهم المعز بن باديس الصنهاجي، فأوفد وزيره إلى قبائِل بني هلال وسليم، وزوّده بالمال والهدايا، وأوصاه بأن يصلح أولاً بين هذه القبائِل، ويدفع سائر الديّات المُعلَّقة بينهم لينزع الخلاف فيما بينهم، وتوحيد الهدف، وهو غزو تونس وباقي بلاد المغرب التي خرجت عن الخلافة الفاطمية، وفعلاً، تمكَّن الوزير من الإصلاح بين القبائِل، ومن ثم شجَّعهم على الرحيل إلى تونس وبلاد المغرب، ومنح كلّ فرد ديناراً، وبعيراً لكل أسرة، لعبور النيل والتوجّه إلى بلاد المغرب، وجهزهم بما يلزم لتلك المسيرة الطويلة.

ولم يكتفِ الوزير بذلك، بل جلب مشايخ بني هلال والقبائِل القيسية الأُخرى، والتي كانت فيها الزعامة للأثبج من بني هلال، ومنحهم حقّ اكتساب تلك البلاد وخيراتها، ويقول ابن خلدون في ذلك: «كان المستنصر الفاطمي لما أرسل الهلاليين إلى بلاد المغرب الإسلامي قد عقد على أمصارها وثغورها لشيوخ القبائِل، فعقد لموسى بن يحيى المرداسي على القيروان وباجة، وعقد لزغبة على طرابس وقابس، وعقد لحسن بن سرحان على قسنطينة». كما ويورد ابن خلدون أن اليازوري قال لشيوخ بني هلال: «وقد أعطيتكم المغرب ومُلك المعز بن بلكين الصنهاجي الآبق، فلا تفتقرون»». ثم كتب إلى المُعز بن باديس الصنهاجي قائِلاً: «أما بعد... فقد أرسلنا اليكم خيولاً، وحملنا عليها رجالاً فحولاً، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً»[1].

---

(١) ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ج٤، ص١٣١.

وهكذا، وفي عام ٤٣٧هـ توافدت جموع الأحلاف الهلالية للمسير إلى العدوة الغربية من نهر النيل، وبدأت بالزحف بداية على برقة، وواصلت الخلافة الفاطمية بتقديم الإغراءات للأعراب المُتبقيين بالشرق والصعيد للحاق بإخوانهم المتقدمين إلى إفريقية، كما استمرَّ الترغيب من جانب الطلائع الهلالية لإخوانهم، حتى أتى الترغيب أُكله، واجتازت أعداد كبيرة منهم غرب النيل، وكان الوزير الفاطمي اليازوري على يقين بما سيفعله الهلاليون في إفريقية وبلاد المغرب، كونهم لا يقدرون على العيش من دون الغزو والنهب والتخريب.

وأصبحت بلاد المغرب بالنسبة للهلاليين عالماً خيالياً، كونه عالماً يزخر بالثروات، وواصلت الهجرات نحو أغلب المناطق في المغرب الأدنى، والتي استنهضتها أيضاً بعض فروع القبائِل القيسية التي سبقتهم إلى تلك الأراضي في عصري الفتح الإسلامي وحكم الأغالبة، مثل بني أسد وبني تميم وبني سعد للانضمام إليها والاستيلاء على إفريقية، ومع ذلك، فقد بقيت جماعات من القبائِل الهلالية بصعيد مصر وغربي البحر الأحمر عقب الانسياح الكبير.

وتُشير بعض التقديرات إلى أن أعداد أفراد الأحلاف العربية الإجمالية التي زحفت نحو بلاد المغرب في تلك الفترة كان ما بين مئتي ألف ونصف مليون، وكان الفرعان الرئيسيان هُما بنو هلال وسليم، حيث اتفقتا بأن تكون المشارق لسليم والمغارب لبني هلال، ومن أبرز زُعماء بني هلال عند دخول تونس: حسن بن سرحان، وأخوه بدر، وموسى بن يحيى المرداسي، وفضل بن ناهض، وماضي بن مُقرَّب، وبنونة بن قُرّة، وسلامة بن رزق (أبو زيد الهلالي)، وذياب بن غانم، وملحان بن عبّاس.

القبائِل الهلالية تستبيح تونس

عبرت جموع قبائِل بني هلال وسليم نيل مصر بإبلها وخيولها وماشيتها على شكل أفواج مُتتالية عابرةً الصحراء الليبية، بينما عبرت جموع أُخرى باتّجاه السودان،

ووصلت جموع من الهلاليين منطقة برقة، التي كانت تشمل مناطق واسعة من شرق ليبيا، فانضموا إلى أبناء عمومتهم من بني قرة الهلاليين، الذي سبقوا التغريبة الهلالية بسنوات طويلة، كما ذكرنا سابقـًا، وكان لهم الأثر الأكبر في جذب الهلاليين الآخرين، كما قوية شوكة الهلاليين بأبناء عمومتهم.

وهكذا أصبحت برقة المحطة الأولى للتغريبة الهلالية، وقد كانت مسافة المسير من صعيد مصر إلى برقة تستغرق حوالي ثلاث سنوات، ونتيجةً للهجرات المتتالية، أخذت برقة تكتظ شيئـًا فشيئـًا بالقبائِل الهلالية والعربية القادمة من صعيد مصر، وحسب ابن خلدون فإن أشهر القبائِل الهلالية التي اجتازت النيل هي زغبة، رياح، الأثبج، بالإضافة إلى بني قرة الذين سبوقوا إخوانهم الهلاليين بفترة طويلة هُناك. أما أشهر القبائِل غير الهلالية، فشملت عدي، المعقل، وفزارة وأشجع من بطون غطفان، وكذلك جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن، وسلول بن مره بن صعصعة بن معاوية.

وعندما وصل الهلاليون برقة، وجدوها خالية من صنهاجة وزناتة، حيث كان المعز بن باديس قد حارب قبائِل زناتة التي كانت تقيم بها وشتت شملها، وبذلك كانت برقة صيداً سميناً وسهلاً بالنسبة للهلاليين، فغاروا على الأهالي، وسلبوا وعاثوا فساداً، وغنموا مالاً كثيراً، وأرسل أُمراؤهم إلى من بقي من بطونهم في مصر يحثّونهم على اللحاق بهم، وفعلاً سُيّرت جموع كبيرة من قبائِل بني هلال وسليم من صعيد مصر للحاق بمن سبوقهم، وكانت غايتهم هذه المرة مواصلة المسير إلى القيروان للقضاء على الدولة الصنهاجية هُناك.

حاول المعز بن باديس الصنهاجي في بداية الأمر تجنُّب دخول حرب خاسِرة مع هذه القبائِل الهمجية، وحسب ابن خلدون، فإن المعز بن باديس استقبل العربان الهلاليين في البداية بودّ، وحاول الاستعانة بهم في تسوية خلافاته مع أبناء عمومته الحماديين في القلعة، فمنحهم حقّ الدخول إلى القيروان وزوَّج بناته الثلاث لثلاثة من أُمراء الهلاليين، وهم فارس بن أبي الغيث، وأخوه عائذ، والفضل بن أبي علي المرداسي.

وبالرغم من هذه المصاهرة، غير أن أعمال السلب والنهب والتخريب من جانب العربان الهلاليين تحت زعامة موسى بن يحيى المرداسي تزايدت حتى بلغت ضواحي القيروان، عند ذلك عدَل المُعز عن استمالة الأعراب الهلاليين، ولم يجد مفرّاً من حشد القوات الصنهاجية والاستعانة ببعض القبائل الأماريغية الأخرى، كزناتة، للتصدّي للقبائِل الهلالية المُعادية، فحشد لهم جيشاً ضخماً للدفاع عن القيروان، حاضرة الإمارة الزيرية الصنهاجية.

معركة حيدران

معركة حيدران هي أول معركة جرت بين الهلاليين والصنهاجيين، حيث وقعت بتاريخ ١٤ نيسان عام ١٠٥٢م/ ٤٤٣هـ، وحسب ابن عذاري، فقد دارت المعركة في اليوم الثاني من عيد الأضحى، وقُدِّر قوام المحاربين الهلاليين بثلاثة آلاف، فتصدَّى لهم المُعز بن باديس بجيش قوامه ثلاثون ألف، حيث جمع المعز الحشود من صنهاجة وبعض أُمراء زناته، وقبائِل عرب الفتح الإسلامي.

والتحم جيشه مع قبائِل الهلاليين من رياح وزغبة وعُدّي قُرب قابس، بمكان يُعرف بحيدران في جنوب شرق تونس، وكان أبرز قادة الهلاليين في هذه المعركة، هم ذياب بن غانم من زغبة، زياد بن عامر، فارس بن أبي الغيث، والفضل بن أبي علي المرادي، وبالرغم من القوَّة التي أبداها المُعز وقواته النظامية كثيرة العدد، إلا أنه لم يتمكَّن من التغلُّب على همجيّة هذه القبائِل الشرسة، لا سيما بعد أن خذله عرب الفتح الإسلامي الذين كانوا في صفوف جيشه، لكنهم تركوه وانضموا إلى القبائل الهلالية بفعل العصبية القبلية التي تربطهم.

وهكذا تمكَّن الهلاليون ومن آزرهم من عرب الفتح الإسلامي السابقين هُناك، من إلحاق هزيمة ماحقة بالصنهاجيين في موقعة حيدران، فانهزم جيش المُعز إلى القيروان، وقُتل من جيشه أكثر من ثلاثة آلاف وثلاثمائة قتيل[1].

---

(١) إبراهيم، إبراهيم إسحق، هجرات الهلاليين من جزيرة العرب إلى إفريقيا وبلاد السودان، الطبعة الثانية، هيئة الخرطوم للصحافة والنشر، السودان، ٢٠١٣م، ص٤٣.

وحول هذه المعركة قال بن رزق الرياحي من بني هلال في قصيدته يصف بها المعركة:

لـقـد زار وهـنـا مـن أمـيـم خـيّـال

وأيـدي الـمـطـايـا بـالـزمـيـل عجـال

وان ابـن بـاديـس لأفـضـل مـالـك

لـعـمـري، ولـكـن مـا لـديـه رجـال

ثـلاثـون ألـفـًا مـنـهـم هـزمـتـهـم

ثـلاثـة آلاف وذاك ضـلال

معركة القيروان

بعد معركة حيدران، انطلق الهلاليون وحلفاؤهم في زحف جارف، فبدأت مُدن تونس وبعض مُدن الجزائر تسقط الواحدة تلو الأُخرى، فاستولوا على تونس، باجة، قابس، عنابة، وقسنطينة، وفي عام ١٠٥٧م/ ٤٤٩هـ حاصرت القبائِل الهلالية القيروان، وأثناء الحصار، أخذ الهلاليون بسلب ونهب الضواحي والقُرى، حتى فرَّ الأهالي إلى المهدية، ولم تقوَ أسوار القيروان على الصمود، وسرعان ما دخلها الهلاليون، وعاثوا فيها فساداً، واستباحوا وسلبوا كل شيء في المدينة بعد أن أصبحت خارج سُلطة المعز، ففتكوا بالسكان، ونبهوا كُل ما فيها من الذخائر والنفائس، وهدموا الحصون والقصور، وقطّعوا الثمار، وأتلفوا الأنهار، ومن ثم انتشروا في الضواحي يقطعون الطُرق ويفرضون الأتاوات، كما فعلوا ذلك في كافَّة المُدن الأُخرى التي اقتحموها، مثل: باجة وتونس وقسنطينة، ومن ثم اقتسموا البلاد، فكان لزغبة طرابلس وما يليها، ولمرداس بن رياح باجة وما يليها، ثم حاصروا المهدية التي انتقل لها الصنهاجيون، وأصبحت عاصمتهم بدلاً من القيروان.

وبالرغم من هذه الأحداث الدموية، استمرَّت الأُسرة الزيرية الصنهاجية بالحُكم بعد أن قرَّبت بعض بطون القبائِل الهلالية إليها، من خلال إغرائهم بالمال، لكنها لم تعد كسابق عهدها، بل ضعفت وتشرذمت، فبعد سقوط القيروان، نقل الزيريون عاصمتهم إلى المهدية، وتقلَّصت دولتهم إلى شريط ساحلي ضيّق حول مدينة المهدية وسفاقص وجزيرة جربة، كما أُجبر أبناء عمومتهم الحمّاديون أيضاً على دفع جزية سنوية للهلاليين، مُقابِل عدم الإعتداء عليهم، وضمان بقاء إمارتهم.

وهكذا، حقق الفاطميون هدفهم، وانتقموا من المُعز بن باديس شر انتقام، ومات المعز حزيناً سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م، أي بعد عشرة أعوام من غزو الهلاليين لبلاده، ودُفن في رباط المستير، وقد رثاه الشاعر أبو علي الحسن بن رشيق المسيلي، المعروف بالقيرواني (٣٩٠هـ-٤٥٦هـ) في كافيّة رائعة، جاء فيها:

لكُل حي وإن طال به المدى هلك

لا عزّ مملكة يبقى ولا ملك

ولّى المُعزَّ على أعقابه فرمى

أو كاد ينهدّ من أركانه الفلك

ما كان إلا حُساماً سلّه قدر على

الذين بغوا في الأرض وانهمكوا

راح المُعز وروح الشمس قد قبضا

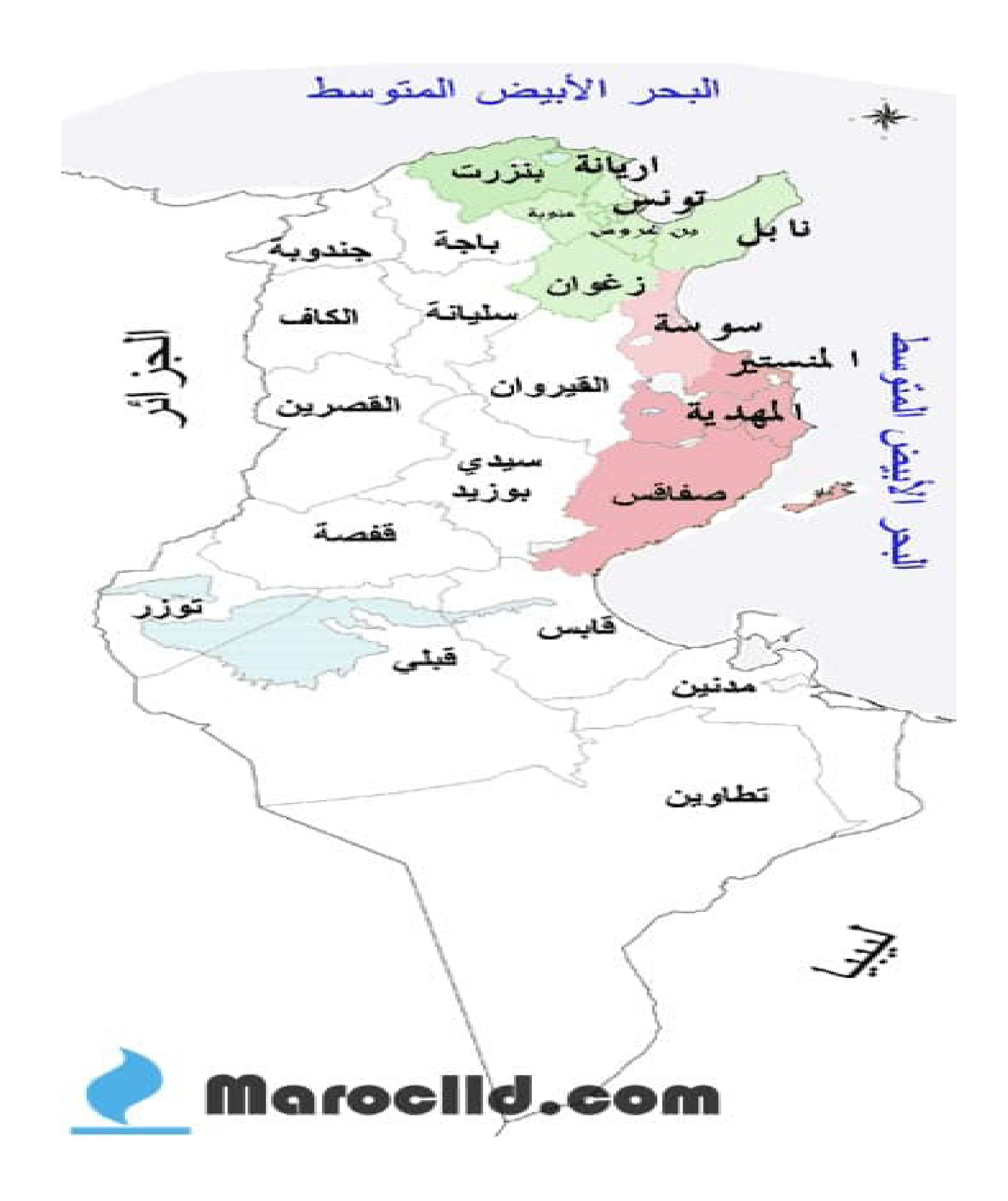
فانظر بأي ضياء يصعد الفلك

وكانت القبائِل الهلالية في بداية تواجدها في بلاد المغرب تخرج من المدن بعد عمليات القتل والسلب والنهب، وتنطلق في الصحراء، فلم تكن تألف حياة المُدن، فبقيت في البوادي وأطراف المُدن، وكانت تعاود بين الحين والآخر إلى المُدن، وتفتك

وتسلب كُلّما دعت الحاجة، فقد عادت وعاثت فساداً في القيروان في عهد تميم بن المعز بن باديس، كما سارت إلى المهدية وما وراءها حتى دخلت ديار زناتة.

ولم يزل هذا دأب الهلاليين، فغلبوا كُل من صنهاجة وزناتة على نواحي إفريقية والزاب وعدّة مناطق في المغرب الأوسط (الجزائر) وتونس، فمثلاً تغلَّبت رياح على باجة وقسنطينة، وتغلَّب عائذ بن أبي الغيث على مدينة تونس وسلبها، وملك أبو مسعود أحد زعمائهم مومة. وكتب ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) من الأندلس، بعد تسعة عشر عاماً من الزحف الهلالي على بلاد المغرب، بأن الرياحيين الهلاليين قد أفسدوا إفريقية.

وبعدئذٍ تفرَّقت فروعهم، وامتدَّت في المغربين الأوسط والأقصى، وكانوا يقاتلون ملوك الطوائف البربرية حيناً، وأحياناً يتقاتلون فيما بينهم، كما اكتسحوا البوادي من الزاب إلى مراكش، ودخلوا موريتانيا الحالية، وهيمنوا عليها، وينقل القلشندي (ت٨٣١هـ) عن ابن خلدون (ت٨٠٨هـ)، بأن خلقاً كثيرة من زغبة والرياحيين حلُّوا ببلاد زناتة في المغرب، ثم يروي عن أبي سعيد (ت ٦٨٥هـ)، بأن مساكن رياح امتدَّت إلى قسنطينة والمسيلة والزاب، وكانت بادية قبيلة رياح تزخر بالسائمة، حتى أن الرجل منهم قد يسعى بستين ألف بعير.



خارطة توضُح بداية اجتياح القبائِل الهلالية للدولة الصنهاجية الزيرية



صورة حديثة لسور مدينة القيروان القديم بعد الترميم والتحديث، حيث كانت القيروان مسرحـًا لحروب الهلاليين، وكان لهذا السور الأثر البالغ في حماية حاضرة الإمارة الزيرية الصنهاجية لفترة وجيزة من الزمن من غارات الهلاليين، لكن القبائِل الهلالية وسليم تمكّنت فيما بعد من اقتحام السور، وأعملت السيف في رقاب سكَان القيروان، فقتلت ونهبت، وخرّبت.

آثار غزو بني هلال لشمال إفريقيا

اعتبر بعض المستشرقين أن الهجرة الهلالية كانت هجرة تدميرية لا تختلف عما قام به الوندال في العصور القديمة عندما سيطروا على إفريقية، فقد نجم عن غزو بني هلال لتونس وبلاد المغرب خراب كبير للإنسان، والعمران والمُمتلكات، بالرغم أن بعض المؤرخين يرى غير ذلك، وأن مسألة التغريبة، التي وصمت بالغزوة الهلالية، ضُخِّمت من قِبل عناصر شعبوية في المغرب المُعاصِر بتأثير من المؤرخين الأوروبيين، بهدف

القضاء على الإنتماء العربي لبلاد المغرب. ولكننا لا نذهب إلى هذا الرأي، فالتخريب والدمار الكبير الذي ألحقه الهلاليون في شمال إفريقيا موثَّق على ألسنة جهابذة التاريخ، وأصحاب أُمهات الكُتب، أمثال ابن خلدون وابن الأثير وابن حزم، الذين عاصروا هذه الأحداث أو كانوا في أزمنة قريبة من حدوثها، وقد اكتسب الهلاليون ظاهرة التخريب والدمار من القرامطة، إذ كان الهلاليون محور الجيوش القرمطية، كما ذكرنا في الفصل الخامس، وحاربوا في صفوفهم بالعراق والشام والجزيرة العربية، وأمعنوا في القتل والسلب والنهب، لا يردعهم عن ذلك مبدأ أو عقيدة.

وبالرغم من سطوة القبائِل الهلالية وتمكّنها من اسقاط العديد من الإمارات التي كانت قائِمة هُناك، فلم يؤسس الهلاليون دولة لهم، وذلك بسبب الطبيعة البدوية لهذه القبائِل القائِمة على التنقُّل والسطو والغزو، فالعمران يتناقض مع طبيعة حياتهم في الصحراء تحت الخيام، والأرض لا قيمة لها بالنسبة لهم سوى بقدر ما تحويه من مراعٍ لمواشيهم، وبذلك، كانوا يأنفون الاستقرار، ويألفون حياة الخيام والصحراء والتنقُّل، فتبعيتهم وولاؤهم للقبيلة لا للأرض، وبالإضافة لعدم رغبتهم في الحكم، وإقامة الدول، فلم تكن لهم دراية ومعرفة بالسياسة والحكم والنظام، فبعد تحقيق انتصاراتهم، وسلب ما يُمكن سلبه، كانوا سرعان ما يتركون المُدن التي يدخلونها وينطلقوا إلى الصحارئ وأطراف الدول، يقطعون الطرق وينشغلوا في الحروب فيما بينهم.

وكدليل على أن عرب بني هلال لم يأتوا للمغرب ليؤسسوا مملكة لهم، هو استمرار حُكم الأمازيغ لإماراتهم، فعلى سبيل المثال، واصل بنو زيري الصنهاجيون الاحتفاظ بالمهدية وما حولها، كما استمرَّ بنو حماد في بجاية، وبعض الزناتيين في إماراتهم.

ولكن في المُقابِل، أحدث الهلاليون تغيّراً جيوسياسي في هذه الدول، فقد تقلّصت بعض الإمـارات، وتم إضعاف بعضها، وتقوية الأُخـرى، وسعت بعض الإمـارات والولايات الأمازيغية لجذب الهلاليين للقتال في صفوفها، وكان لهذه التحالفات الأثر البالغ في تغيير موازين القوى بين الإمارات المُتصارعة، فمثلاً استقلَّ حمو بن مليل

البرغواطي[1] عن الإمارة الزيرية الصنهاجية بعد أن تحالف مع الهلاليين من زغبة ورياح وعدي والأثبج في صفاقس، واستقل بنو خرسان بتونس سنة ٤٥٨هـ، وكذلك استقل حاكم قفصة الزيري أيضـاً بها بعد أن تحالف مع بعض قبائِل بني هلال.

وكان بإمكان الهلاليين، لو توفَّرت لهم الإرادة والحنكة السياسية، اكتساح بلاد المغرب، وتأسيس دولة كبيرة على غرار الدولة الفاطمية، لكنهم اكتفوا بالأطراف والصحراء، فنجد فقط موسى بن يحيى المرداسي من قبيلة رياح الهلالية هو من استقلَّ بقاب عند دخول الهلاليين إلى إفريقية.

اندماج الهلاليين مع الأمازيغ

بالرغم من الخراب والدمار الذي ألحقه الهلاليون في شمال إفريقيا، إلا أنّهم تركوا فيما بعد بعض البصمات الإيجابيات، تمثَّلت في تعريب شمال إفريقيا، ودمج العرب بالأمازيغ، وقد تشكَّل هذا الاندماج بعد فترات طويلة من التغريبة الهلالية بعد أن تحضّرت القبائِل الهلالية، على الرغم من الخراب والدمار الذي تسببوا به عند دخولهم بلاد المغرب. يقول الشيخ البشير الإبراهيمي: «إن بني هلال خرّبوا ولكنّهم عرّبوا»، ويقول المؤرِّخ المصري السيد عبدالعزيز سالم: «كان لغزو الهلاليين للمغرب، رغم مضاره ومساوئه الكثيرة، فضل كبير في تعريب البلاد، وتخفيف حِدّة اللهجات المحلّية في القُرى البربرية، التي لم تصل إليها الحضارة العربية»[2].

ومن أسباب الاندماج بين المُجتمعين الأمازيغي والعربي، هي علاقة المصاهرة التي نشأت بين شيوخ الهلاليين وأُمراء الأمازيغ، فقد تزاوج العرب مع الأمازيغ، ونيطت بزعامات الهلاليين في البوادي مسؤوليات النظام وحراسة أطراف تلك الدول

---

(١) كان حمو بن مليل البرغواطي والياً للإمارة الزيرية على صفاقس خلال الفترة ١٠٥٩م-١٠٦٣م، تولَّى صفاقس بعد أن قتل واليها وابن عمّه منصور البرغواطي، وكان منصور هذا قد تولَّى صفاقس بأمر من المعز بن باديس الصنهاجي. استقلّ حمو في صفاقس بدعم من بعض بطون القبائِل الهلالية، من زغبة ورياح وعدي والأثبج، وكان ذلك في عهد تميم بن المعز بن باديس، أمير الدولة الزيرية الصنهاجية.

(٢) سالم، السيد عبد العزيز، كتاب المغرب الكبير، ج ح، القاهرة ١٩٦٦م، ص٦٧٢-٦٧٣.

وجباية الضرائب. وبعد فترة من الزمن، تسبب هذا الاندماج في تحضّر بعض الهلاليين، فخمدت شوكتهم، وانضم بعضهم كجنود وقادة في الحرس السلطاني والجيش النظامي في الإمارات الأمازيغية القائِمة في تلك الفترة، وأصبحت القبائِل الهلالية والعربية جُزءاً من كيان المغرب العربي لا تنفصل عنه، حتى أصبحت تتناقل الرواية الشعبة للتغريبة الهلالية في مجالس سمر كُلّ من الأمازيغ والعرب على حدٍّ سواء، كما تناقلها الرواة في مصر والجزيرة العربية وبلاد الشام[1].

ولعل سياسة الترويض والمُعايشة التي انتهجتها بعض الإمارات الأمازيغية، لا سيما الحمّاديون، ساهمت إلى حدٍ كبير في ترويض القبائِل الهلالية، إذ شكَّلت هذه السياسة أساساً في العلاقة مع القبائِل الهلالية والقبائِل العربية الأُخرى، وسار عليها كذلك الموحّدون. ولعل القارئ يعجب من هذا الاندماج في فترة ما بعد التغريبة الهلالية، والذي نبحثه في الفصل السابع من الكتاب، حينما انقسمت القبائِل الهلالية في تحالفاتها بين الإمارات الأمازيغية المُتصارعة في تلك الفترة، وأصبحت تُحارب إلى جانبها، فهناك عِدّة حروب لتحالفات أمازيغية-هلالية ضد تحالفات أمازيغة-هلالية أُخرى، إذ أُلغيت عصبية القومية، وأصبح المُجتمع العربي الأمازيغي مجتمع واحد مُتكامل.

(١) إبراهيم، إبراهيم إسحق، هجرات الهلاليين من جزيرة العرب إلى إفريقيا وبلاد السودان، الطبعة الثانية، هيئة الخرطوم للصحافة والنشر، السودان، ٢٠١٣م، ص٤٥.

الفصل السابع

حروب بني هلال بعد التغريبة

بحثنا في الفصل السادس التغريبة الهلالية، والتي تضمَّنت هجرات القبائِل الهلالية من الجزيرة العربية في صعيد مصر بتشجيع من الخلافة الفاطمية، ومن ثم اجتياحهم إفريقية وباقي بُلدان المغرب الإسلامي بتحريض من الفاطميين للانتقام من الأُمراء الصنهاجيين، الذين نكثوا بيعتهم للخلافة الفاطمية وبايعوا العباسيين في بغداد، حيث تناولنا الغزو الوحشي للقبائِل الهلالية للإمارة الزيرية الصنهاجية، الذي تمخَّض عن تدمير وسلب وإحراق المُدن، كالقيروان، تونس، باجة، قابس، عنابة، وقسنطينة.

أمّا هذا الفصل، فيبحث بالحروب ما بعد التغريبة الهلالية، والتي كان الهلاليون طرفاً أساسياً بها، فبعد أن نزل الهلاليون إفريقية وبلاد المغرب، تواصلت الحروب والمعارك، لكنها بشكلٍ آخر، لم تعد حروب صرفه بين الهلاليين والأمازيغ، بل تحالفات بين أطراف النزاع المُختلفة والإمارات القائِمة التي تحارب بعضها، إضافة إلى صراعات بين القبائِل الهلالية نفسها. وقد لجأت كُل إمارة من الإمارات الأمازيغية إلى عقد تحالفات مع القبائِل الهلالية المُختلفة من خلال إغرائهم بحافز المال، ولم تتوانَ هذه القبائِل عن الانضمام لطرفي النزاع.

حرب بني هلال مع الإمارة الحمّادية الصنهاجية

بعد الغزو الهلالي للإمارة الزيرية الصنهاجية في تونس والانتصار على أميرها المُعز بن باديس، والفتك بهذه الإمارة، واصلت القبائِل الهلالية زحفها على الإمارة الحمّادية الصنهاجية في المغرب الأوسط (الجزائر)، وكان على رأس الإمارة الحمّادية في تلك الفترة الأمير بلكين بن محمد بن حمّاد (ت ١٠٦٢م)، الذي عُرف بالحكمة والدهاء، ففي بداية الأمر اتَّبع سياسة المُهادنة مع بعض الفروع الكُبرى للقبائِل الهلالية، فعقد

تحالف مع الأثبج وعدي لمحاربة الزناتيين في المغرب الأقصى. وكان بلكين بن محمد يُغيّر من تحالفاته حسب مصلحته، ففي الوقت الذي تحالف فيه مع بعض القبائِل الهلالية، فقد حاول في المُقابِل مواجهة التوسّع الهلالي في المغرب الأوسط (الحزائر)، من خلال عقد تحالفات مع بعض القبائِل الزناتية هُناك ضد بعض بطون الهلاليين، ومما يؤكِّد اشتراك الزناتيين في مواجهة القبائِل الهلالية، رواية ابن خلدون، حيث يقول: «فاجتمع لذلك بنو يعلي ملوك تلمسان من مغراوة، وجمعوا من كان إليهم من بني واسين هؤلاء من بني نرين وعبد الوادي وتوجين وبني راشد، وعقدوا على حرب الهلاليين، فكان لهم مقامات في حروبهم ودفاعهم عن ضواحي الزاب والمغرب الأوسط»[1].

وفيما بعد عظم أمر خطر الهلاليين على كيان الدولة الحمّادية، ففي عهد العزيز بن المنصور الحمّادي، اكتسحت قبائِل بني هلال مدينة القلعة، حاضرة الإمارة الحمّادية، وألحقوا دماراً هائِلاً بها، فقتلوا وسلبوا وخرّبوا المدينة، وانهزم أميرها عبد العزيز وفلوله، وتحصَّن في مدينة بجاية، وحكم من هناك. وفيما بعد، شهد حكمه بعض الاستقرار بعد أن تصالح مع زناتة، وتزوج من ابنة أميرها ماخوخ.

النزاع بين الهلاليين وحروبهم مع أطراف الإمارات الصنهاجية

عندما حلَّت القبائِل الهلالية في بلاد المغرب، أخذت تتحارب فيما بينها، كونها قبائِل همجية لا تعرف الأمن والاستقرار، كما أسلفنا، فإذا لم تجد من تُقاتله، فإنها تُقاتِل بعضها بعضاً. فمن ضمن النزاعات التي وقعت فيما بينها، هي تلك المعارك التي دارت رحاها بين رياح وزغبة، والتي استمرَّت طيلة فترة عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، منذ عام ١٠٣٦م وحتى ١٠٩٤م، وكان سبب النزاع هو الخلاف على النصيب من الزراعة، فكان أبو بكر بن زغلي، زعيم بني سعد، إحدى بطون قبيلة زغبة، على خلاف مع قبيلة رياح، التي غلبته على مناطق الداهوس من حمزة، وحرمته

(١) ابن خلدون، العبر، ج٧، ص١٢٨.

وقبيلته من ألف غرارة من الزرع، عند ذلك استنجد بنو سعد بأبناء عمومتهم، بنو عامر، إحدى فروع زغبة ذات البأس والقوّة، وفعلاً، أرسل بنو عامر المُساعدة إلى أبي بكر بن زغلي، فجاءه أولاد شافع وعليهم صالح بن بالغ، وبنو يعقوب وعليهم داوود بن عطاف، ودخلوا في حرب ضروس ضد رياح حتى استعادوا مناطق نفوذ بني سعد، وتواصلت الحروب والنزاعات بين هاتين القبيلتين، كما حدثت هُناك صراعات بين قبيلة رياح، والأثبج التي كان يتزعمها حسن بن سرحان الدريدي.

ونتيجة لهذا النزاع، أخذت بعض البطون الهلالية تتحالف مع الإمارات الأمازيعية، فقد تحالفت قبيلة الأثبج مع الدولة الحمّادية في عهد أميرها القوي الناصر بن علناس، لقتال أبناء عمومتهم من قبيلة رياح الهلالية، وفي المُقابِل، تحالفت رياح مع الإمارة الزيرية الصنهاجية.

الهلاليون ومعركة سبيبة[1]

تناولنا في الفصلين الثالث والرابع النزاع الذي كان قائماً بين الإمارتين الصنهاجيتين، الزيرية والحمّادية. فبالرغم من محاولات الصلح بين الإمارتين، إلا أن الصراع كان ما يلبث وأن يتجدد، لا سيما بعد الغزو الهلالي لبلاد المغرب، وانقسام الهلاليين في تحالفهم بين طرفيّ النزاع. ومن أشهر هذه المعارك تلك التي دارت بين الإماراتين الصنهاجيتين والتي كانت قبائِل بني هلال طرفاً أساسياً في النزاع، هي معركة سبيبة، بين الأمير الناصر بن علناس، أمير الدولة الحمّادية، والأمير تميم بن المعز بن باديس، أمير الدولة الزيرية.

أسباب المعركة

وحول أسباب هذه المعركة، يذكر ابن خلدون أن خروج الناصر لمهاجمة تونس كان بسبب الحرب الناشبة بين بطون القبائِل الهلالية، حيث أن قبيلة الأثبج التي كانت

(١) تقع سبيبة اليوم في ولاية القصرين في الجزء الوسط الغربي من تونس، وتبعد عن مركز الولاية حوالي سبعين كيلو متراً.

تحارب قبيلة رياح طلبت منه المساعدة، فأجابها، بينما يرى ابن الأثير أن تميم بن المُعز سمع بأن الناصر كان يذمّه في مجلسه، وأنه عازم على المسير إليه ليحاصره بالمهدية، وأنه قد تحالف مع بعض البطون من بني هلال وصنهاجه وزناتة ليعينوه على حصار المهدية[1].

تحالفات المعركة

حشد الناصر بن علناس جموع قبائِل الأثبج وعدي الهلاليتين المُتحالفتين معه بالإضافة إلى آلاف الصنهاجيين والزناتيين في جيش جرار. وفي المُقابِل، جمع تميم قبيلتي رياح وزغبة الهلاليتين، وقبائِل سليم، ومن تحالف معه من القبائِل الصنهاجية والزناتية لمُحاربة الناصر ودحره عن المهدية. وقيل أن تميماً أرسل إلى أُمراء بني رياح، وقال لهم: أنتم تعلمون أن المهدية حصن منيع أكثره في البحر، ولا يُقاتل منه في البرّ غير أربعة أبراج يحميها أربعون رجلاً، وإنما جمع الناصر العساكر إليكم، فقالوا له الذي تقوله حق، فأعطاهم المال والسلاح. ومن أبرز القادة الزناتيين الذين تحالفوا مع تميم هو زعيم مغراوة القوي المُعز بن زيري بن عطية المغراوي الزناتي (ت ٤٢٢هـ)، أمير فاس والمقرَّب من المنصور بن أبي عامر، حاجب الأندلس، كما أسلفنا ذكره في الفصل الثاني من الكتاب، والذي كان له الأثر الكبير في ترجيح كفّة المعركة لصالح الإمارة الزيرية وحلفائها الهلاليين، رياح وزغبة.

مُجريات المعركة

في سنة ١٠٦٥م، خرج الناصر بن علناس على رأس جيش كبير لاحتلال المهدّية والقضاء على مُلك تميم بن المعز ومؤازرة حلفائه من قبيلة الأثبج الهلالية ضد رياح وزغبة، ونزل الأربس، والتقى الجمعان بمنطقة سبيبة، وكانت موقعة عظيمة من أعنف المعارك وأبشعها التي شهدتها شمال إفريقيا، وفتكت القبائِل الهلالية من رياح وزغبة

(١) ابن عذاري، البيان، ج١، ص١٠١.

بالناصر والمتحالفين معه، حيث قّتل وجُرح الآلاف من الفريقين، وقد استبسل تميم بن المعز وقبائِل رياح وزغبة وسليم وصنهاجة وزناتة المتحالفة معه في الدفاع عن المهدية عاصمة إفريقية.

وعلى الرغم من الحشد الكبير للناصر، كانت الغلبة في نهاية المعركة لتميم بن المعز، والقبائِل الهلالية التي تحالفت معه من رياح وزغبة، وبني سليم. وهزُم الناصر شرَّ هزيمة، وقُتل من جنده خلق كثير، ونُهبت أمواله، كما قُتل أخوه القاسم، وقدّر النويري وابن الأثير عدد القتلى بهذه المعركة بأربعة وعشرين ألفـًا، وذكر صاحب كِتاب الاستبصار أن القاسم أخا الناصر بن علناس قد ضحَّى بنفسه في سبيل حفظ حياة أخيه الناصر، فقال له: «أقم على الجيش، وانجُ بنفسك، فإن كانت السلامة، فمن الله، وإلا لقيت أنت للناس فليس منك الخلف»[١].

ولم تكتفِ قبائِل رياح وزغبة الهلاليتين من هزيمة الناصر، بل لاحقت فلول قواته المتقهقرة، ودخلت المسيلة والقلعة، حاضرة الدولة الحمّادية، وعاثت فيها فساداً، فقتلت، وسلبت، وأحرقت، حتى جعلتها خرابـًا، وقد حدد ابن خلدون نتائج المعركة، حيث قال: «إن بني هلال لحقوا بقلعة حمّاد فنازلوها، وخرّبوا جناباتها، وأحبطوا عروشها، وأزعجوا على ما هنالك من الأمصار، مثل طبنة والمسيلة، فخرّبوها وأزعجوا ساكنيها، وعطفوا على المنازل والقُرى والضياع، فتركوها قاعـًا صفصفـًا أقفر من بلاد الجن، وأوحش من جوف البعير، وغوّروا المياه، واحتطبوا الشجر، وأظهروا في الأرض الفساد، وهجّروا ملوك إفريقية والمغرب من صنهاجة وولاة أعمالهم في الأمصار، وملّكوا عليهم الضواحي، يتحيفون جوانبهم، ويقعدون لهم بالمرصاد، ويأخذون لهم الأتاوة على التصرُّف في أوطانهم»[٢]. ويروي ابن الأثير: «ان بني هلال، من رياح وزغبة المتاحلفين مع تميم بن المعز، قد غنموا غنائم كثيرة من

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٠١، الاستبصار، ص١٩.
(٢) ابن خلدون، العبر، ج٦، ص٤٣.

مال وسلاح ودواب، وتم لهم ملك البلاد»، ثم استمر، فقال: «فإنّهم قدموا في ضيق وفقر وقلّة دواب، فاستغنوا وكثرت دوابهم وسلاحهم»[١].

أسباب هزيمة الناصر في معركة سبيبة

يقول ابن عذاري أن من أعظم الأسباب التي أدّت إلى هزيمة الناصر على الرغم من تفوّق عدد جيوشه على جيش تميم بن المعز، هو ما أبرمه تميم في أمر الناصر من تدبير وحيل ودهاء، بينما يذكر ابن الأثير أن بني هلال في إفريقية راسلوا إخوانهم في المغرب الأوسط يقبّحون مساعدتهم للناصر، ويخوفونهم منه إن قوي أمره، وقد يُهلكهم بمن معه من زناتة وصنهاجه، فأجابوهم بالموافقة، وقالوا: اجعلوا أول حملة تحملونها علينا، فنحن نهزم الناس ونعود عليهم، وتكون لنا ثلث الغنيمة، فأجوبهم لذلك، وأضاف ابن الأثير، أن المُعز بن زيري بن عطية الزناتي أرسل إلى جموع زناتة المُتحالفين مع الناصر بن علناس بنحو ذلك، فواعدوه أيضاً أن ينهزموا»[٢]. ويؤكِّد ابن خلدون ذلك، فيقول إن زناتة غدرت بالناصر بن علناس، إذ يقول: «وجرّوا عليه وعلى قومه بدسيسة من المعز بن زيري بن عطية الزناتي، وأغراهم تميم بن المعز»[٣].

وهكذا، تسببت معركة سبيبة بفتح بلاد بني حماد أمام القبائِل الهلالية، لا سيما منطقة الحضنة القريبة من قلعة بني حماد، حيث انتقل الهلاليون إلى هذه المنطقة مُباشرة بعد انتصارهم، فاغتنموا ضُعف القوة الحمّادية، واستولوا على ضواحي المُدن وتخوم بلاد زناتة، والمناطق ما بين صحراء إفريقية وصحراء المغرب الأوسط، وكانت حواضر الحضنة من أهم المراكز التجارية، مثل مدن المسيلة والقلعة وطبنة، التي استفادت من هجرة الحرفيين والتجار لها بعد سيطرة الهلاليين على تلك المناطق.

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٨، مرجع سابق، ص١٠٢.
(٢) ابن الأثير، الكامِل، ج ٨، مرجع سابق، ص١٠١.
(٣) ابن خلدون، العبر، ج٦، مرجع سابق.

ولم تتوقَّف القبائِل الهلالية ببلاد الحضنة، بل امتدّ نفوذها إلى جبل عمور الذي نُسب للهلاليين، وكان يُعرف في الماضي بجبل راشد، نسبةً لقبيلة بني راشد الزناتية، ويذكر الشيخ محمد مبارك الميلي في كتابه «تاريخ الجزائر»[1]، نقلاً عن الإدريسي (١٠٩٩م-١١٦٦م) إن الهلاليين دخلوا الجزائر من ثلاث جهات، الأولى: جهة الساحل، حيث تقطن كتامة، ويضعف بها نفوذ صنهاجة أو يكاد ينعدم، وفي هذه المناطق تقدَّم بنو هلال من نواحي باجة، فانتشروا في ضواحي القالة وعنابة وقسنطينة والقل، وصولاً إلى جبل بابور. وفي الجهة الثانية: دخل بنو هلال في المنطقة الواقعة بين الأطلس التلي والصحراوي، وبالتحديد بين منطقة الزاب وجبال البيبان، حيث تقدّموا لهذه المنطقة من نواحي الأربس، وانتهوا إلى وادي الساحل في عهد الإدريسي، وكانت هذه المنطقة تندرج ضمن أملاك الدولة الحمادية.

كما تعرَّض الإدريسي في حديثه إلى منازل الهلاليين، فذكر قلعة بني حماد، وبجاية، فقال: «وهي جبال يمر بها وادي المالح، وهُناك مضيق وموضع مُخيف، ومنه إلى حصن السقاء إلى حصن الناظور إلى سوق الخميس، وبه المنزل وهذه الأرض، كلها تجولها العرب وتضر بأهلها، وسوق الخميس حصن بأعلى الجبل، وبه مياه جارية، ولا تقوى العرب عليه لمنعته، وبه المزارع والمنافع قليل، ومنه إلى حصن مطاطة في أعلى جبل إلى سوق الاثنين، وبه المنزل، وهو قصر حصين والعرب محدقة بأرضه، وبه رجال يحرسونه من سائر أهله، إلى تازكي حصن صغير إلى قصر عطية على أعلى الجبل، ثم إلى حصن القلعة، وجميع هذه الحصون أهلها في هدنة وأيدي العرب مُطلقة فيها في الأضرار، وموجب ذلك أن العرب لها ديّة مقتولها وليس عليها ديّة بمن يُقتل»[2]. ولعل انتشار الهلاليين بهذه المناطق الجبلية الصعبة، كان لمراقبة حركة التجارة والمارَّة والاستفادة من حراسة القوافل أو فرض الأتاوات عليها.

---

(١) الميلي، مبارك محمد، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر (١٩٨٦م).

(٢) ابن خلدون، العبر، ج٦، ص ٢٣.

حروب بني هلال مع القبائِل الزناتية

لم تقتصر حروب بني هلال مع الصنهاجيين فقط، بل دخل الهلاليون في حروب أيضـاً مع الزناتيين، وقد زاحم بنو هلال زناتة على العديد من المناطق خلال فترات زمنية مُتباعدة. ومن أبرز القبائِل الهلالية التي كان لها تاريخ وحروب مع زناتة هي رياح والأثبج وزغبة، والبطون الهلالية الأُخرى التي تناسلت عن هذه القبائِل بعد سنوات طويلة من التغريبة، مثل: أولاد محمد، الخنافسة، المحاوزة، أولاد ملوك، أولاد غانم، أولاد ريم، أولاد أحريز، أولاد منصور، أكدوع، أولاد زنان، وقبائِل عربية غير هلالية، كعرب المعقل.

وقد أختلفت العلاقة الهلالية - الزناتية طبقـاً للظروف السياسية والأوضـاع في كل مرحلة زمنية، فبعد عبور القبائِل الهلالية بلاد المغرب، بقيت علاقاتها مُتباينة مع القبائِل الأمازيغية، ومنها الزناتية على وجه الخصوص، وكانت هذه العلاقات بين شدٍّ وجذب، وتتأرجح بين صراعات دامية وحرب ضروس إلى علاقات ودٍّ وتحالُف.

ففي بداية النزوح الكبير للهلاليين إلى تونس، وفتكهم بالدولة الزيرية الصنهاجية هُناك، انتشروا في كافّة المناطق، وخاصّةً في الجزائر، ولكن بعد فشل صنهاجة، بشقّيها الزيري والحمّادي، في مواجهة الهلاليين، قامت زناتة بالدور نفسه؛ لأنها شعرت بالخطر فيما بعد، وكان للزناتيين دور سلبي خلال المواجهة التي قامت بها صنهاجة في فترتين تاريخيتين، الأولى في معركة حيدران التي قادها المُعز بن باديس الصنهاجي قُرب القيروان، حيث انسحب الزناتيون مع عرب الفتح الإسلامي من المعركة، مما سهّل المُهمة للهلاليين لتحقيق انتصار ساحق على المُعز، كما ذكرنا في الفصل السادس، والمرحلة الثانية كانت خلال معركة سبيبة، عندما انسحب الزناتيون أيضـاً من ميدان المعركة، مما أدّى إلى هزيمة الناصر بن علناس، ومقتل أخيه القاسم.

ومن أسباب تردد زناتة في مواجهة الهلاليين في بادئ الأمر، هو ضُعف قوتها العسكرية بعد أن انهكها الصراع مع القبائِل الأمازيغية الأُخرى، وأفقدها الكثير من قوّتها خلال

القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري، هذا بالإضافة لكثرة الصراعات الداخلية بين بطون قبائِل زناتة نفسها، وغياب اللحمة الزناتية اللازمة لمواجهة الهلاليين.

حروب بني هلال مع بني خزر الزناتيين

بعد هزيمة الإمارات الصنهاجية من قِبل الهلاليين، جاء دور الإمارة الزناتية في تلمسان، التي تقع اليوم في شمال غرب الجزائر، وكانت تحكمها آنئذٍ إحدى الأُسر الزناتية العريقة التي عُرفت ببني خزر من فرع قبيلة مغراوة الزناتية، من أعقاب محمد بن خزر، الذي كان أيضـاً متمرّداً على الخلافة الفاطمية، وله اليد الطولى في مساعدة قيام الدولة الإدريسية.

وبدأ احتكاك بني هلال بالزناتيين بعد أن فرغ الهلاليون من حروبهم مع صنهاجة، فانتقلوا إلى ضواحي تلمسان، ونازعوا القبائِل الزناتية على مناطقهم، فتصدَّت لهم الإمارة الخزرية الزناتية بقوّة، بمعارك ضارية، قادها وزير الإمارة الخزرية القوي أبو سعدى خليفة الزناتي، ولم يكن أبو سعدى من المغراويين الزناتيين بل من بني يفرن الزناتيين، أبناء عمومة المغراويين، وقد أسهبت السيرة الشعبية للتغريبة الهلالية في وصف أبي سعدى الزناتي بشكل أسطوري مُغالط، وبعيد عن الحقيقة التاريخية.

ومهما يكن، فقد قاد أبو سعدى خليفة الزناتي معارك شرسة ضد القبائِل الهلالية المُعادية، وتمكَّن من دحرهم في عِدّة معارك، ولكن بالرغم من القوّة التي أبداها، تمكَّن الهلايون منه بعد حروب طويلة، وتم قتله هو وسادات قومة في منطقة الزاب، التي تقع اليوم في المنطقة الشمالية الشرقية من الصحراء الجزائرية. ويقول ابن خلدون عن غزو الهلاليين لتلمسان، وحروبهم مع الوزير أبي سعدى الزناتي: «وغزا الهلاليون صاحب تلمسان من أعقاب محمد بن خزر، مع وزيره أبي سعيد (ابي سعدى) خليفة اليفرني الزناتي، فقاتلوه، وهزموه بعد حرب طويلة.» و في نص آخر، يقول: «ولمَّا تغلبوا (اي الهلاليون) على صنهاجة، أجمعت زناتة مدافعتهم بما كانوا مُلكـاً للبأس والنجدة

والبداوة، فحاربوهم وزحفوا اليهم من إفريقية والمغرب الأوسط، وجهَّز صاحب تلمسان من بني خزر قائده أبا سعيد (أبو سعدى) اليفرني الزناتي، فكانت بينه وبينهم حروب إلى أن قتلوه بنواحي الزاب»[١].

وهكذا، فقد فشلت زناتة، كما فشلت قبلها صنهاجة في وقف الزحف الهلالي، ولكن بالرغم من ذلك، استمرَّت الأيام بين بني هلال وزناتة سجالاً. وقد اختلف المؤرخون حول الأسباب الحقيقية للحروب بين الهلاليين والزناتيين، فهناك من رأى أن الخلافة الفاطمية كانت وراء تشجيع الهلاليين على الإطاحة بالإمارة الزناتية بعد أن نجحت القبائِل الهلالية في إسقاط الإمارات الصنهاجية وإضعافها، وذلك كون الزناتيين كانوا أقيالاً وموالين للدولة الأموية في الأندلس، العدو اللدود للفاطميين والعباسيين على حدٍّ سواء.

ولكن يرى ابن الأثير أن حرب الهلاليين مع زناتة كانت من وحي الإمارة الحمّادية الصنهاجية في القلعة، التي أغرت الهلاليين في حرب زناتة، وذكر ابن الأثير أن بلكين الحمادي الصنهاجي هو من قاد الهلاليين في حرب زناتة، وأحدث بها مقتلة عظيمة[٢].

وهكذا تمكَّن الهلاليون من فرض هيمنتهم على الفرعين القويين للإمارات الأمازيغية، الصنهاجية والزناتية، ولكنهم لم يؤسسوا دولة لهم، بل آثروا الإقامة في الضواحي، وأصبحوا أقرب إلى الجُند المرتزقة، يقفون بصف أي فريق يجزل لهم الأُعطيات، ولكن كان هُناك استثناء في أزمان مُتأخرة، عندما قام بنو جامع، الذين ينتمون إلى قبيلة رياح الهلالية، بتأسيس إمارة لهم بمدينة قابس.

وفيما بعد، نشأت تحالفات بين القبائِل الهلالية والإمارات الزناتية هُناك، كالدولة المرينية والدولة الزيانية، ولكن بالرغم من ذلك، لم تكُن العلاقة على وِئام تام، بل شهدت تقلُّبات وتحالفات بين بطون من القبائِل الهلالية وبعض الإمارات الزناتية،

(١) ابن خلدون، العبر، ج ٦، ص٢٥، ٤٣.
(٢) كانت القبائِل الأمازيغية القوية الصنهاجية والزناتية في حالة تنافس وصراع، حيث أشركوا العديد من القبائِل الهلالية في حروبهم مُقابِل الإغراء بالمال.

ضد بطون وتحالفات أُخرى من الزناتيين والهلاليين. ونستنتج من ذلك مدى تطوّر الانصهار والاندماج بين القبائِل العربية والأمازيغية، إذ أصبحت الحروب فيما بينهم ليست بدافع العصبية القومية والعِرق، بل ضمن مصالح سياسية ومالية، أي كمجتمع واحد يتصارع فيما بينه. وسوف نستعرض فيما يلي أهم الأحداث التي سطّرت العلاقة ورسمتها بين بنو هلال وزناتة.

علاقة القبائِل الهلالية بالدولة الزيانية الزناتية

تطرّقنا في الفصل الثاني من الكتاب شرحـًا عن الدولة الزيانية، أو دولة بني عبدالواد، التي حكمت تلمسان مُنذ القرن الثالث عشر والسادس عشر الميلادي، وسوف نتناول هُنا علاقة هذه الدولة بالقبائِل الهلالية. وقد كانت هذه العلاقة مُتباينة بين ودّية إلى صراع دموي، وقد بدأت العلاقة مع القبائِل الهلالية مُنذ عهد مؤسس الدولة الزيانية، الأمير يغمرسان بن زيان بن ثابت بن محمد (ت ١٢٨٢م)، الذي كان أوّل من استخدم بعض قبائِل زغبة الهلالية في جباية الأموال وضد أبناء عمومته من القبائِل الزناتية الأُخرى، مثل بني توجين ومغراوة، وكذلك ضد بعض القبائِل العربية المجاورة له، كالمعقل و»دوي عبيدالله». وقد استقدم يغمراسن بني عامر من بني زغبة الهلاليين من صحراء بني يزيد، وأنزلهم بجواره بصحراء تلمسان، كيداً لبعض بطون زناتة وعرب المعقل ومزاحمة لهم، حيث كانت بعض بطون زناته وعرب المعقل تنتشر بهذه المناطق، كما استقدم يغمراسن حميان من بطون بني يزيد الهلالية، الذين تولَّوا بلاد الريف وحطب، وكذلك استقدم بطون عكرمة وعبس[١].

ومن بين أسباب استقدام بعض القبائِل الهلالية، كـ بني عامر من بني زغبة، إلى ضواحي الإمارة الزياينة هو لجباية الأمول، كما أسلفنا، حيث كانت الدولة تجد صعوبة في تحصيل الجباية، لذا فإنها استخدمت القبائِل الهلالية لهذا الغرض؛ بسبب شدّة هذه القبائِل وتعسّفها في فرض الأتاوات والجباية، وهذا ما شجّع الإمارات القائمة كافّة

(١) ابن خلدون، العبر ج٦، ص٥٤ .

في بلاد المغرب على استخدام الهلاليين لهذا الغرض، وحسب ما يروي ابن خلدون أن عساكر بجاية قد عجزوا عن تحصيل الجباية، فاستخدمت الدول القبائِل الهلالية من بني زغبة لهذا الغرض، وذلك لوحشيتهم وقسوتهم وقدرتهم على الفتك بالسكّان وتحصيل الجباية. وفعلاً، نجح الهلاليون في جباية الأموال، فزادت الدولة في إكرامهم وأقطعتهم الكثير من المناطق في بجاية، وسيطر الهلاليون على ضواحي الدولة الزيانية ومُحيطها، وكان الهلاليون عندما يمتلكون أرضـاً يمنعون الأهالي من الخروج إلا مُقابِل دفع المال، وقد ضاق الأهالي ذرعـاً من الهيمنة الهلالية على أطراف المُدن، حتى أصبح الهلاليون يشكّلون خطراً مُحدقـاً بالدولة الزيانية نفسها، ومما زاد الأمر سوءاً أن القبائِل الزناتية التي كانت تسيطر على هذه الأوطان ضعفت في مواجهة الهلاليين، فقد استبدَّ بنو يزيد من زغبة بتلك المناطق، وتغلّبوا على أطرافها، وفرضوا المزيد من الجباية عليها.

الصراع بين القبائِل الهلالية والدولة الزيانية

كانت علاقة بني هلال مُتباينة ومتقلّبة مع الإمارات الأمازيغية الحاكمة، كما أسلفنا، فبالرغم من العلاقة الودّية والتحالف بين بني زغبة والإمارة الزيانية في عهد الأمير يغمراسن، إلا أن العلاقة انقلبت إلى صراع دموي في سنوات لاحقة بين بعض أُمراء الدولة الزيانية والقبائِل الهلالية، وقد اندلعت النزاعات على إثر وقوع فتنة بينهما، هلك فيها أحد زعماء زغبة، هو عمر بن مهدي الزغبي، وعلى إثر ذلك ارتحل الهلاليون عن التلال والأرياف من بلاد بني زيان (بنو عبدالواد) إلى المنطقة المحاذية لأوطان بني توجين - وهُم فرع آخر من بطون زناتة. ولكن بالرغم من ذلك، ظلّت العديد من البطون الهلالية موالية للدولة الزيانية.

وكانت أكثر المراحل التي اشتدّ فيها الصراع بين الإمارة الزيانية والهلاليين في عهد السلطان الزياني (أبو حموا موسى الثاني ١٣٢٤م-١٣٨٩م)، وكان ذلك بسبب ثورة

أحد أفراد الأُسرة الحاكمة في الإمارة الزيانية، أبو زيان، المعروف بـ «القبي»، ضد السلطان أبي حموا، حيث استغلَّ أبو زيان سوء التفاهم بين السلطان الزياني والحُلفاء التقليديين للدولة الزيانية من بني عامر الزغبيين، فقام بتأليب هذه القبائِل، فوافقوه على التحالف معه في بادئ الأمر، لكن الدولة الزيانية استدركت الأمر واستعادت تحالفها مع بني عامر، كون بني عامر من أكبر وأقوى القبائِل الزغبية الهلالية آنذاك.

ثم سعى أبو زيان إلى تأليب القبائِل الهلالية الأُخرى ضد السلطان أبي حموا، فانتقل لمضارب الدواودة من بني رياح في الزاب، لكنه لم يلقَ التأييد منهم، وبقوا على ولائهم للسطان الزياني. وواصل أبو زيان محاولاته في حشد الهلاليين ضد السلطان أبي حموا، فوجد التأييد من قِبل أبي الليل أحد شيوخ بني يزيد الزغبية، ولكن نهض إليه وزير الدولة الزيانية، عبد الله بن مسلم، وأغرى أبو الليل بالمال حتى رجع عن تأييد أبي زيان.

ثم توجّه أبو زيان إلى نواحي وادي ملوية لطلب التأييد من قبائِل المعقل، وبالتحديد فرع دوي عبيدالله، لكنه فشل في ذلك. وفيما بعد، نجح في استمالة بعض بطون قبيلة زغبة القوية، وهي قبيلة السويد، التي كانت تقطن في مُحيط الدولة الزيانية، وكانت في صراع مع أبناء عمومتها الزغبيين من بني عامر، وجعلها تنضم إلى مقارعة بني زيان، وكان لهذا التحالف الأثر البالغ في تقوية أبي زيان، وذلك كون السويد كانت من ضمن القبائِل الزغبية الهلالية القوية، وكانت العلاقة قد ساءت فيما مضى بين فرعي قبيلة زغبة الهلالية، بنو عامر والسويد، عندما أوعز بنو عامر للسلطان أبي حموا لتوجيه إساءة لشيخ السويد أبي بكر بن عريف.

معركة الزيبان

بعد ذلك، حشد كُلّ من القُطبين قواته، فقد أوعز السلطان الزياني أبو حموا موسى الثاني إلى القبائِل الهلالية المُتحالفه معه في ضواحي تلمسان، وتوجّه نحو منطقة الزيبان

للانضمام إلى بطون القبائِل الهلالية هُناك، حيث توجد مضارب الدواودة ورياح برفقة الوزير الزياني، عبد الله بن مسلم، الذي كان سيقود المعركة ضد أبي زيان ومن تحالف معه، لكن الوقت لم يسعفه، حيث مرض بالطاعون وتوفي سنة ٧٤٧هـ.

وكان لموت الوزير أثره الكبير على السلطان أبي حموا، الذي خرج من تلمسان وتوجّه إلى البطحاء القريبة من مضارب قبيلة السويد الزغبية المتحالفة مع أبي زيان، ووقعت بينه وبينهم معركة انهزم فيها، ونجا إلى تلمسان. وبما أن بني عامر شاركوا إلى جانب السلطان الزياني أبي حموا، فإن مضاربهم تعرَّضت أيضـًا للنهب من قِبل أبي زيان.

تمرّد قبائِل زغبة الهلالية على الدولة الزيانية

بعد الهزيمة القاسية للسطان المزيني أبي حموا، أخذت المزيد من بطون قبيلة زغبة الهلالية بالانضمام إلى أبي زيان، الذي واصل ثوراته ضد الدولة الزيانية، فقد استمال قبائِل حصين الزغبية، التي لم تكن علاقتها جيّدة بالدولة الزيانية؛ نتيجة لفرض الأتاوات عليها، فاعتصمت في جبل تيطري لمناهضة الدولة الزيانية، وبهذا يقول ابن خلدون: «بعد هزيمة السلطان أبي حموا سنة ٧٦٧هـ، قرع الأمير أبو زيان طبوله واتبع أثره، وانتهى إلى بلاد حصين من زغبة، وكانوا سائمين في الهضيمة والعسف، إذ كانت الدولة تجريهم مجرى الرعايا المعتدة في المغرم، وتعول بهم عن سيل إخوانهم من زغبة أمامهم ووراءهم، فارتكبوا صعب الشقاة لمغبة العز، وبايعوه على الموت الأحمر، ووثقوا بمعتصمهم من دبل تيطري إلى أن دهمتهم عساكر السلطان»[1].

وفيما بعد تحالف بنو عامر أيضـًا مع أبي زيان، ونكثوا بيعتهم للسلطان أبي حموا، ثم دعا أبا زيان الدواودة من بني رياح وأهل مليانة، فأجابوه هذه المرة بعد أن فقدت الدولة الزيانية هيبتها والكثير من قوّتها، عند ذلك زادت مخاوف السلطان أبي حموا

(١) ابن خلدون، العبر، ج٧، ص١٥٢.

من حشود أبي زيان، لا سيما بعد تزايد أعداد القبائِل الهلالية المُتحالفة معه، عندها قرر السلطان بذل كافَّة الإمكانيات المُتاحة لوقف الخطر المُحدق بإمارته، فأقطع بعض فروع القبائِل الهلالية أراضٍ شاسعة كانت مُلك لقبائِل أمازيغية، مثل أراضي زناتة التابعة لمغراوة وبني توجين، ثم استمال إلى جانبه المزيد من بطون قبائِل رياح الهلالية قوية المراس.

وفي سنة ٧٦٩هـ، قرر السلطان أبو حموا تصفية مُعارضيه من قبائِل زغبة، الذين نكثوا البيعة وتحالفوا مع أبي زيان، فتوجّه إلى مليانة، ففتحها، ثم تابع مسيرته بقواته إلى مضارب بني عامر والسويد من قبائِل زغبة لينتقم منها، ولكن قبل وصوله انسحبت هذه القبائِل وتوجَّهت نحو الجنوب وطلبت النجدة من أبناء عمومتها من قبيلة حصين وأبي زيان، ومن ثم انتقلت من جبال تيطري إلى نواحي الحضنة لمواجهة بعض فروع قبيلة رياح الهلالية المتحالفة مع الدولة الزيانية. وتواصلت المعارك بين السلطان أبي حموا وابي زيان، والقبائِل الهلالية المنقسمة في تحالفها مع الطرفين، ولكن في نهاية المطاف انهزم أبو حموا والقبائِل المتحالفة معه. بعد هذه المعارك، عادت قبائِل الدواودة وبنو عامر والسويد إلى مضاربها في الشمال مطاردةً فلول السلطان أبي حموا، الذي توجّه إلى سيرات.

وفيما بعد، حاول السلطان أبو حموا التقرّب من قبيلة بني عامر الزغبية، قويّة الشكيمة، ليحيدها عن مناصرة أبي زيان، فراسل شيخها وتلطَّف معه، وبذل له المال وقبل بشروطه، مما جعله يتخلَّى عن أبي زيان، وينظم من جديد لمناصرة السلطان أبي حموا، فعزز ذلك من استعادة السلطان من قوّته والتفوّق على أبي زيان في أكثر من موقع. ونتيجةً لذلك، ترك أبو زيان تلك المضارب ولجأ إلى حُلفائه الزغبيين الآخرين من قبيلة حصين بجبل تيطري. وهكذا، نجد بأن القبائِل الهلالية خلال تلك الحقبة التاريخية كانت تتغيَّر مع تغيُّر الظروف في المغرب الإسلامي، وكانت تقف إلى جانب من يغدق عليها المال والأُعطيات.

ثورة سعادة الرياحي ضد الدولة الزيانية

بعد أن استقرّ الهلاليون في المغرب الإسلامي، سلكوا سياسة القمع تجاه السكان الأمازيغ الأصليين، كما ذكرنا، فقد فرضوا عليهم الأتاوات بتشجيع من الإمارات الأمازيغية القائمة آنئذٍ، كالإمارة الزيانية التي كانت تتقاسم الأتاوات مع الهلاليين، مما جعل البعض يحاول تغيير الظلم من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان من بين هؤلاء سعادة الرياحي من قبيلة رياح الهلالية، الذي لمع نجمة خلال الحقبة الزيانية.

نزع سعادة الرياحي العصبية البدوية لديه، واتّبع الطرق الصوفية على يد الشيخ أبي إسحاق التسولي في نواحي تازة القريبة من الحدود الجزائرية المغربية، وأقام علاقات وطيدة مع المرابطين، وبدأ بتغيير المقربين إليه بعد أن أسس زاوية في منطقة طولقة، ووجد إقبالاً كبيراً ومؤيديين من شيوخ الهلاليين، من أشهرهم: أبو يحيى من شيوخ الدواودة؛ عطية بن سليمان من اولاد سباع؛ عيسى بن يحيى من أولاد عساكر؛ حسن بن سلامة، شيخ أولاد طلحة؛ وهجرس بن علي من أولاد يزيد بن زغبة.

وبدأت المواجهة بين «سعادة» والدولة الزيانية بعد أن طالب سعادة من عامِل الزاب، فاضل بن مزني، إعفاء الرعايا من الأتاوات والمكوس، فرفض عامِل الزاب هذا الطلب، وحاول الإيقاع به خشية من تأليب العامَّة عليه، لكنه لم ينجح بذلك بسبب كثرة أصحاب «سعادة» وموالية الذين حالوا دون المساس به وبايعوه على الموت دونه، ثم حاولت الإمارة الزيانية الضغط على أتباعه، فأرسل أمير بجاية خالد بن أبي زكريا إلى أهالي طولقة وبسكره وطالبهم بإخراج «سعادة» من مدينتهم، لكنه لم يلقَ التأييد.

فيما بعد تحوّلَت حركة «سعادة» من حركة سلمية إلى مواجهة عسكرية، وفي هذه الصدد يقول ابن خلدون: «ثم جمع أصحابه من المرابطين، وكان يسميهم السنّية، فزحفوا إلى بسكرة، وقطّعوا نخيلها، وحاصروا ابن مزني سنة ٧٠٣هـ، لكنها عصت

عليهم، فرحلوا عنها، ثم أعادوا حصارها سنة ٧٠٤ﻫ، ثم هاجم سعادة مدينة «مليلي»، لكن الجيش الحفصي خرج اليه وقاتله»[١].

- وفي سنة ٧٠٤هـ، استطاع أمير بسكرة آخيراً من الإيقاع بسعادة والقضاء عليه، لكنه لم يتمكَّن من القضاء على أتباعه من المرابطين، الذين واصلوا حركتهم وزاد خطرهم، فقد أتلفوا أشجار النخيل، وقتلوا عمال ابن مزيني، ومثّلوا بهم، ثم أحرقوا أجسادهم.

وعندما فشل أمير الزاب في قمع الثورة، لجأ إلى محاولة الاستعانة بالمواليين إليه من قبائِل الدواودة الرياحية الهلالية، ففي ٧١٣هـ، جمع ابن مزني الدواودة، وزحف بهم على المرابطين، لكنهم كانوا له بالمرصاد، فتصدّوا له بقوّة، وتغلّبوا عليه بتلك المعركة، وقُتل علي بن مزني، وعلى إثر ذلك، استفحل أمر المرابطين (السنية)، وتولى شؤونهم أبو عبد الله محمد بن الأزرق، الذي كان قد أخذ العلم في بجاية عن أبي محمد الزواوي.

وعندما أدركت الدولة الزيانية استحالة القضاء على هذه الحركة، عمل يوسف بن مزني، أمير الدولة الزيانية في تلك الحقبة، على احتواء هذه الحركة بدلاً من معاداتها، فقرَّب أميرها بن الأزرق، وجعله قاضيـاً على بسكرة، عند ذلك، ترأس الحركة علي بن أحمد، الذي واصل ثورته ضد الدولة الزيانية، فزحف على بسكرة سنة ٧٤٠هـ، وحاصرها، ولكن يوسف بن مزني عاد أيضـاً وتصالح معه، وحوَّل بعض أنصار هذه الحركة من العداء إلى الموالاة.

ونُلاحظ أن بعض القبائِل الهلالية في هذه المرحلة المُتأخرة، بدأت بالتحوّل التدريجي من حياة البداوة والعصبية القبليّة إلى التديّن والتمدّن في الحواضر، والاندماج أكثر مع السكان الأمازيغ.

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج ٦، ص٤١.

علاقة بني هلال بالإمارة المرينية الزناتية

تطرّقنا في الفصل الثاني من الكتاب إلى الإمارة المرينية الزناتية وتوسّعها وحروبها مع دولـة الموحدين، ونستعرض هنا علاقتها وحروبها مع القبائِل الهلالية. فقد نشأت العلاقة بين الإمارة المرينية وبني هلال عندما استنجدت بعض فروع قبائِل زغبة الهلالية، كقبيلة السويد بالمرينيين بعد أن تغلَّب سلطان الإمارة الزيانية، أبو حموا موسى الثاني على أبي زيان، وأخذ بملاحقة القبائِل الهلالية المُتحالفة معه، لا سيما قبيلة السويد الزغبية، ففتك بها، وتسببت المعارك بالسلب والنهب وإتلاف المحاصيل وتخريب الحصون والقلاع، ولجأت الكثير من القبائِل المُنهزمة إلى طلب النجدة من بني مرين، ورغّبوا أميرها السلطان عبدالعزيز بن أبي الحسن، المُكنّى بأبي فارس (١٣٤٩م-١٣٧٢م) باحتلال مدينة تلمسان، حاضرة الإمارة الزيانية. وفي ذلك يقول ابن خلدون: «ولما تقبَّض أبو حموا على محمد بن عريف، وفرَّق شمل قومه سويد، وعاث في بلادهم، رأى أخوه أبو بكر على الصريخ بملك المغرب، فارتحل إليه بناجعته من بني مالك أجمع من أحياء السويد والديالم والعطاف، واستنصروه لاستنقاذ أخيهم، فأجاب صريخهم، ورغّبوه في مُلك تلمسان وما وراءها، فوافق على ذلك بما كان في نفسه من الموجدة على السلطان أبي حموا، بقبوله على من ينزع إليه من عربان المعقل، أشياع الدولة وبدوها»[١].

وفِعلاً، أرسل السلطان المريني عبد العزيز بن أبي الحسن قوّة عسكرية كبيرة على رأسها القائِد المريني، سعيد بن موسى للقضاء على الدولة الزيانية واحتلال حاضرتهم تلمسان. وكان السلطان الزياني أبو حموا في تلك الفترة مُعسكِراً بالبطحاء ومُحاصراً قبائِل السويد، فعندما علم بوصول القوّة المرينية، رفع الحصار عن مضارب السويد وتوجّه إلى تلمسان قبل وصول القوات المرينية إليها، واتّصل بقبائِل المعقل المُعارضين لبني مرين، فوجد التأييد منهم، لكنهم لم يتمكّنوا من الوصول اليه، مما

(١) ابن خلدون، العبر، ج٧، ص ١٥٧.

سهَّل المُهمّة على القوة المرينية، التي وصلت تخوم تلمسان في شهر صفر سنة ٧٦٠هـ، وحاصرتها، ومن ثم اشتبكت مع السلطان أبي حموا وجموع بني عامر من بني زغبة، واستمرّت المنازلات والحروب بين الفريقين أياماً، ولكن تمكَّنت القوة المرينية فيما بعد من تحقيق نصر مؤزَّر في المعركة، واحتلال تلمسان، واستباحت من كان بها من العسكر، وغنم المرينيين غنائم كبيرة، ومن ثم تابع المرينيون والسويد والمعقل مُطاردة السلطان أبي حموا وحلفائه من بني عامر خارج تلمسان ونواحي الزاب.

وكان عبد الرحمن ابن خلدون قد شهد تلك الأحداث، وكان من بين الذين قدّموا يد المساعدة للمرينيين، إذ استدعاه السلطان المريني عبد العزيز، وكلّفه بإبعاد حلفاء السلطان الزياني أبي حموا وبني عامر وعدم الإنحياز إليهم. وواصل السلطان المريني مُلاحقة أبي حموا وأعوانه من بني عامر، فقاتلهم وسلبهم أموالهم وقصورهم، ودسَّ بعض شيعته لبعض شيوخ قبائِل بني عامّر، وهو خالد بن عامر، ورغّبه بالمال لنزع يده من يد أبي حموا، وهذا ما حصل، لكن بقيت هُناك بعض الفروع الأُخرى من بني عامر على ولائها للزيانيين. وفي نهاية المطاف، أوقع السلطان عبد العزيز بأبي حموا ومن كان معه من بني زغبة من عامر، ونهب وأموالهم، لكن أبا حموا نجا بنفسه، وفرَّ إلى تيكارين آخر بلاد الصحراء[1].

السلطان الزياني يستعيد تلمسان

فيما بعد حاول السلطان الزياني أبو حموا إعادة ترتيب صفوفه تمهيداً لاستعادة مُلكه من الدولة المرينية، فجمع شيوخ القبائِل الهلالية المتحالفة معه، مثل أبو بكر ومحمد أبناء عريف من زغبة، ثم تخطّى إلى ما وراء شلف، وأغدق المال على بعص القبائِل الهلالية والعربية هُناك، مثل قبائِل حصين والثعالبة، وسار بهم لدحر المرينيين، يرافقة كبير قبيلة الثعالبة، سالم بن إبراهيم، وبالرغم من الشجاعة التي أبدوها إلا أنهم لم يتمكَّنوا من دحر القوات المرينية.

(١) ابن خلدون، العبر، ج٧، ص١٥٩.

ولكن بعد سنوات قليلة، أخذ الضُعف يتسرَّب إلى الوجود المريني في الجزائر، فاغتنم بنو عامر من زغبة فرصة ضعف القوة المرينية، فتعاضدوا مع السلطان الزياني أبي حموا، وسهّلوا له مهمة العودة لتلسمان بمساعدة أيضاً من الدولة الحفصية والموحدين.

وعند وصول بني عامر إلى مضاربهم في تلمسان، أعلن أبناء عمومتهم السويد من زغبة، المُتحالفين مع الدولة المرينية، الحرب عليهم، ولكن تمكَّن بنو عامر من دحر قبيلة السويد والتفك بها، حيث قُتل في المعركة ابن شيخ السويد «ونزمار»، وكذلك القائد المريني، مجاهد بن صنائع، وهذا ما يؤكِّده ابن خلدون، حيث يقول: «وأجلب بنو عامر على نواحي المدينة (تلمسان)، وبرز إليهم قائدها مجاهد بن صنائع من بني مرين، فقضوا عليه، وانهزم أمامهم»[1]. ولم يتوقَّف الأمر على مواجهة حلفاء بني مرين من السويد، بل أغار بنو عامر داخل تلمسان، وفتكوا ببني مرين، الذين كانوا مُحتلين المدينة، وتمَّت تصفيتهم والاستيلاء على أموالهم. وهكذا استعاد السلطان الزياني سلطته ودار مُلكه تلمسان، بمساعدة قبائِل بني عامر بن زغبة الهلالية.

الصراعات الهلالية مع دولة الموحدين ومعركة سطيف

كانت القبائِل الهلالية خلال عهد الموحدين[2] تعمل على مُرافقة القوافِل التجارية، وتُقدِّم الحماية لها مُقابِل المال، في حين أن البعض منها فضَّل الاستقرار واستغلال

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج٧، ص ٣٠٨.

(٢) الدولة الموحدية هي دولة إسلامية أسسها الموحدون الأمازيغ في القرن الثاني عشر الميلادي، حيث حكمت أغلب بلاد المغرب الإسلامي والأندلس، أسسها محمد بن تومرت (ت ١١٣٠م)، وتوسّعت على يد عبد المؤمن الكومي (١١٦٣م)، بعد أن قضى على دولة المرابطين، وبلغت أوج قوتها في عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي الكومي (ت١١٨٤م) وأبي يوسف يعقوب المنصور (١١٩٩م). مرّت دولة الموحدين بالرخاء والإزدهار، ولكن بدأت تضعف مُنذ عهد الخليفة الموحدي الرابع، محمد بن يعقوب بن يوسف، الملقب بالناصر (١١٨١م-١٢١٣م) بعد الهزائم التي تعرَّضت لها في الأندلس مع الفرنجة، لا سميا بعد معركة حصن العقاب في عام ١٢١٢م، وبعد هذه الهزيمة الماحقة، أخذت في الضعف والتداعي حتى قضت عليها دولة المرينيين في عام ١٢٦٩م في عهد الخليفة الموحدي الثالث عشر، إدريس الواثق (المقلب أبو دبوس)، الذي تم قتلة على يد المرينيين.

الأرض وامتهان الزراعة، مثل غرس النخيل، وذلك لوفرة المياه هُناك. وبعد أن توسَّعت الخلافة الموحدية (١١٢١م-١٢٦٩م) إلى المغرب الأوسط، وأسقطت آخر السلاطين الحماديين، بقيادة الخليفة الموحدي عبدالمؤمن بن علي الكومي (١٠٩٤م-١١٦٣م)، ودخلت عاصمة الحماديين بجاية سنة ١١٥٢م، سقطت مع الدولة الحمادية العديد من الإمارات الأمازيغية التي كانت قائِمة هُناك، وأخذ الموحدون بفرض هيمنتهم بقوّة وحزم على المناطق كافّة، ولم يقبلوا أية سُلطات تنافسهم بما في ذلك القبائِل الهلالية، إذ عمدت الدولة الموحدية إلى التضييق على الهلاليين، وإيقاف هجراتهم المتتالية، وتوسعهم في بلاد المغرب، لا سيما أن بعض بطون قبائِل بني هلال كانوا في تلك الفترة حُلفاء للإمارة الحمادية التي أسقطها الموحدون. وتُشير المصادر التاريخية إلى أن آخر سلاطين بني حماد عندما هاجم عبدالمؤمن بجاية، اتّصل بشيوخ القبائِل الهلالية، وطلب منهم تقديم يد المساعدة للموحدين.

معركة سطيف

بعد التضييق الذي واجهته القبائِل الهلالية من قِبل الموحدين، خشي الهلاليون على وجودهم وهيمنتهم، وأجمعوا على محاربة الموحدين، ولكن لم تكن مُجابتهم بالأمر اليسير، وكان لا بدّ من رصّ الصفوف، وجمع الأحلاف لهذه المهمة العسيرة، فقام شيوخ هذه القبائِل، بما فيهم رياح، وزغبة، وعدي، وزغيف والأثبج، وغيرهم من طرابلس حتى أقصى المغرب على حشد جموعهم لمحاربة الخلافة الموحدية القوية، وذلك خشية التضييق عليهم، وطردهم من بلاد المغرب، حيث قالو: «إن جاورنا الخليفة عبدالمؤمن أجلانا من بلاد المغرب، وليس الرأي إلا اللقاء معه، وأخذه بالجد، وإخراجه من البلاد قبل أن يتمكَّن». وبذلك، فقد عزموا على محاربته.

وفي الوقت نفسه، أرسل رجار الإفرنجي، صاحب صقلية إلى بعض أُمراء الهلاليين، مثل محرز بن زياد، وجبارة بن كامل، وحسن بن ثعلب، وغيرهم، يحثّهم على قتال

الموحدين، وعارضاً عليهم مدداً بخمسة آلاف فارس، شريطة إرسال الرهائن إليه، لكنهم اعتذروا عن قبول عرضه، قائلين: «لا حاجة لنا إلى نجدته، ولا نستعين على المسلمين بغيرهم»[١].

وفي تلك الأثناء، علم الخليفة الموحدي عبدالمؤمن بحشود الهلاليين، عندها جهّز جيشاً، بلغ تعداده ثلاثين ألف مقاتل بقيادة عبد الله بن عمر الهينلافي وسعد الله بن يحيى، وفي يوم الخميس، غُرّة صفر عام ٥٣٨هـ، الموافق السابع من أيار سنة ١١٥٣م، تقدّم الجيش الموحدي وباغت الهلاليين قبل أن يتجهّزوا، فتشتتوا، وحاصرهم بين الجبال، نواحي منطقة سطيف، حيث درات المعركة، واقتتلوا قتالاً شديداً، واستبسل الهلاليون، لكنهم لم يقووا على مقارعة الأعداد الغفيرة وقوّة جيش الموحدين، ففرّوا تاركين أموالهم وأهاليهم. وبذلك، تمكّنت الدولة الموحدية من إلحاق هزيمة ماحقة بالقبائِل الهلالية، وكسر شوكتهم، ولعل انهزام الهلاليين أمام الموحدين دفع بالبعض منهم إلى التوجّه نحو الجنوب، والاستقرار بإقليم توات، الذي كان يُعتبر من المراكز التجارية.

بعد هذه المعركة، حُمّلت الغنائِم وعوائل الهلاليين للخليفة الموحدي عبدالمؤمن، فوزَّع الغنائِم على العسكر، وترك النساء والأطفال تحت الإحتياط، ونقلهم إلى مراكش، حيث وكَّل بهم الخصيان يخدمونهم، وقدمون لهم كل ما يحتاجونه. بعد ذلك، طلب من ابنه محمد مُراسلة الهلاليين لتسلُّم عوائلهم، وفعلاً سار الهلاليون إلى مراكش وتسلّموا عوائِلهم، وأحسن الخليفة الموحدي إليهم وواصلهم بالأموال، فمالت قلوبهم إليه، وأقاموا عنده، واستعان بهم على ولاية ابنه محمد بالعهد بعده، وذلك لمعرفته بقوّة وسطوة هذه القبائِل وأهمّيتها في حسم الحروب.

---

(١) نُلاحظ أن موقف الهلاليين هذا لاقى استحساناً لدى الخليفة الموحدي، إذ حفظ لهم هذا الموقف، فلم يقسوا عليهم أو يُمعن في إذلالهم بعد انتصاره في معركة سطيف، فتلطّف بهم وقرّبهم. وفي هذه المرحلة من التاريخ، أصبحت القبائِل الهلالية أكثر تحضراً ووعياً نتيجة اختلاطهم بالإمارات الأمازيغية والإسلامية، مقارنة عمّا كانوا عليه في بداياتهم نزوحهم إلى بلاد المغرب، حيث لم يكن يأبهوا في التحالف مع أي من كان في سبيل المال.

وبالرغم أن الموحدين تمكّنوا من تحجيم ما يُعرف بالتغريبة الهلالية بعد معركة سطيف، إلا أن الدولة الموحدية اعتمدت عليهم فيما بعد من أجل تعزيز قوتها العسكرية، وأقطعتها بعض الأراضي. وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون: «أن بني يزيد كانوا أول من أقطعتهم الدولة الموحدية من العرب التلول والضواحي.»[1].

ومن أكثر القبائِل الهلالية التي وثّقت تحالفها مع الموحدين، هي قبائِل زغبة، التي انحرفت عن ابن غانية[2]، وانضمُّوا إلى الموحدين، حيث كان لزغبة دور كبير في دعم جهود الموحدين لمواجهة ثورة بني غانية، فقدَّر لهم الموحدون ذلك، وصاروا يداً واحدة مع بني باديس بن نات في حماية المغرب الأوسط من بني غانية وأتباعه، وامتدَّ نفوذ قبائِل زغبة إلى ما بين المسيلة وقبلة تلمسان في القفار في الجزائر.

دور بني هلال بعد ضعف وانهيار دولة الموحدين

عندما ضعفت الخلافة الموحدية بعد الهزائم المتلاحقة لها في الأندلس، ضعفت سيطرتها على بلاد المغرب، فأقامت بعض القبائِل الزناتية إمارات على أنقاضها، مثل بني مرين وبني عبدالواد، وبني حفص، وكذلك توجين ومغراوة، بينما حافظت القبائِل الهلالية سيطرتها على ضواحي المدن، وبدأت تتدخَّل في شؤون تلك الإمارات والقبائِل الأمازيغية بشكل كبير، ومن أكثر القبائِل الهلالية مشاكسة هي قبائِل زغبة، التي كانت بارزة دائماً على مسرح الأحداث، ودخلت في حروب طويلة مع الإمارات الأمازيغية ومع الفروع الهلالية الأخرى. ولمّا ملك بنو بادين من زناتة التلال في المغرب الأوسط، دخلت زغبة في حرب ضروس ضدّهم، وتمكّنت من التغلُّب عليهم، وفرض الأتاوات على مناطقهم، وقد تولَّى أمر الأتاوة أحد كِبار زغبة، هو بن جوثة من بني سويد. ومما زاد من هيمنة زغبة على الكثير من المناطق في تونس والجزائر هو دعم بعض الإمارات

(١) ابن خلدون، العبر ج٦، ص٤٥.

(٢) بنو غانية هي سلالة صنهاجية قادت ثورة في إفريقية لمدة خمسين سنة منذ ٥٨٠هـ إلى ٦٣١هـ، من أجل إحياء دولة المرابطين والقضاء على الخلافة الموحدية.

الأمازيغية لهم، من أجل المحاربة في صفوفها، كما ذكرنا سابقـاً، فنجد أن القبائِل، سواءً كانت عربية أو أمازيغية، كانت تتحالف مع القوى السياسية مُقابِل مصالحها، فمثلاً، يقول ابن خلدون عن تحالف بني عامر من زغبة مع بعض بطون زناتة ضد فروع زناتية أُخرى: «كان بنو عامر بن زغبة خارجين على السلطان أبي عنان مُنذ غلبة بني عبدالواد على تلمسان، وكانت رئاستهم إلى «صغير» بن عامر بن ابراهيم، فلحق بإفريقية في قومه، ونزلوا على يعقوب بن علي، وجاوروه بحللهم وضعنهم»[1].

وفيما بعد، قاومت زناتة الهلاليين وطردتهم عن التلال إلى الصحراء، ولكن ما لبث الهلاليون أن عادوا الكرّة على زناتة، التي ضعفت بدورها نتيجة حروبها الداخلية مع القبائِل الأمازيغية الأُخرى، وتمكَّن الهلاليون من إقتطاع الكثير من نواحي المغرب وأمصاره. وكان تغلُّب الهلاليون على الأمصار هو نتيجة للضعف الذي بدأ ينخر في الإمارات الأمازيغية آنذاك. فمثلاً، في أواخر الخلاقة الموحدية، وبالرغم من سيطرة الدولة المرينية الزناتية وفرض سيطرتها على أغلب بلاد المغرب الكبير، ضعفت بعض بطون زناتة الأُخرى، كقبيلة بني يفرن الزناتية القوية التي تراجع دورها في الغرب الجزائري، وحلَّ مكانها بعض البطون الزناتية الأُخرى، مثل «بنو ومانو» و «بنو يلومي». ولعل الصراع المتواصل بين هذه القبائِل أدّى إلى إضعافها، فعندما تضعف القبيلة، كانت تترك مضاربها لقبائِل أقوى منها، ففيما بعد أخذ دور بني «بنو ومانوا» و «بنو يلومي» في الانحسار في غرب الجزائر، فحلَّ محلّهم بعض البطون الزناتية الأُخرى، مثل بني توجين، ومغراوة، وبني عبدالواد، وعندما ضعف هؤلاء، حلَّت محلّهم القبائِل الهلالية.

انتشار الهلاليين في أطراف تونس والجزائر

بعد ذلك، توسّعَ الهلاليون إلى المناطق الصحراوية من ناحية سبيبة، وانتشروا إلى جنوب الأوراس وقُرى الزاب حتى حدود وادي ميزاب وجبل بني راشد، وأطراف

(١) ابن خلدون، العبر، ج٧، ص ٣٣٩.

المدن الجزائرية، بدون التدخَّل المباشر بشؤون الحكم، لعدم درايتهم ورغبتهم بذلك، وظلّوا دائماً رأس حربة مع أطراف الإمارات الزناتية المتصارعة، واقتصر عملهم في أوقات السلم على فرض الأتوات من الأهالي. كما سيطرت قبائِل زغبة على النواحي وناجزت زناتة للمحافظة على المضارب التي تتوفَّر فيها شروط الحياة أكثر من غيرها من ماء وكلاء وأرضٍ زراعية خصبة، وفي ذلك يقول ابن خلدون: «ولمّا ملكت زناتة بلاد المغرب الأوسط ونزلوا بأمصاره، دخلت قبائِل زغبة التلول، وتغلَّبت فيها، وفرضت الأتاوات الكثيرة على السكان، بما فيهم زناتة»[1].

واشتدّ صراع الهلاليين مع قبائِل زناتة، التي كانت تعيش حياة البداوة في هذه المناطق، وتقوم برحلة التنقُّل بين الجنوب والتلال الشمالية، لكن بني هلال تغلَّبوا عليهم في تلك المناطق، وسيطروا على الضواحي، واشتدّت المعارك بين الفريقين بكافّة مناطق تونس والزاب وجبل راشد ومصاب، وأغلب المناطق الشرقية والجنوبية الشرقية.

علاقة بني هلال بقبائِل كتامة

كانت العلاقة بين قبائِل كتامة[2] الأمازيعية والهلاليين ودّية، على عكس العلاقة بين بني هلال والقبائِل الأمازيغية الأُخرى كصنهاجة وزناتة، التي شهدت نزاعات وحروب، ويرى الميلي[3] أن العبيديين ربما هم الذين كتبوا للكتاميين يطلبون منهم تأييد القبائِل الهلالية والتقرُّب منها نكاية بصنهاجة. وكانت قوّة الكتاميين قبل وصول الهلاليين قد ضعفت نتيجةً للحروب التي خاضوها، وآخرها حروبهم ضد ثورة أبي

(١) ابن خلدون، العبر، ج٦، ص ٤٥.

(٢) كتامة هي واحدة من كُبرى القبائِل الأمازيغية القوية في شرق الجزائر، وكان لها دور جوهري توطيد الخلافة الفاطمية في شمال إفريقيا، كما شارك أفرادها في الجيوش الفاطمية بقيادة جوهر الصقلي لفتح مصر.

(٣) الميلي، مبارك محمد، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر (١٩٨٦م).

يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الزناتي، الملقَّب بصاحب الحمار، حيث كانت ثورته من أعنف الثورات في شمال إفريقيا، ودامت ثلاث عشرة سنة، كما أسلفنا، كما عانت قبائِل كتامة من ثورة أبي الفهم الخرساني، ولكن بالرغم من هذه الأحداث ظلّت العلاقة جيّدة بين بني هلال وكتامة، في كافة المراحل التاريخية عند التغريبة الهلالية وما بعدها.

علاقة القبائِل الهلالية بالدولة الحفصية

كانت العلاقة مُتقلِّبة بين الدولة الحفصية[1] وبعض بطون بني هلال. ففي بداية عهدها، شجَّعت الدولة الحفصية القبائِل الهلالية، وتحالفت معها لحفظ أمنها، واعتمدت عليها عند قيام إمارات بجاية وقسنطينة وبسكرة في عهد بني مرين، حيث اعتمد أُمراء الدولة الحفصية على شيوخ القبائِل الهلالية لمحاربة معارضيهم، كما لجأت القبائِل الهلالية بدورها إلى الدولة الحفصية لمواجهة الأطراف المعادية لها.

فبعد انتقال الهلاليين من تونس إلى الجنوب الجزائري، هاجموا القبائِل الأمازيغية هُناك، واستولوا على مضاربها، ولم تواجه الدولة الحفصية تلك الهجمات، ولم تدافع عن سكانها الأمازيغ تجاه هذا الغزو، بل اعترفت بالمضارب الجديدة، وعلى الخصوص المدن التي كانت بإقليم الزاب، والحضنة، مثل، نقاوس، مقرة، والمسيلة. ولعل هذا الخنوع كان من بين العوامل التي أفقدت الدولة الحفصية مكانتها، فقد هيمنت القبائِل الهلالية بشكل شبه مُطلق على مختلف المناطق وأطراف المدن في الدولة الحفصية، لا سيما الزاب وبسكرة، وأصبح الهلاليون مقربين من بعض الأمراء الحفصيين على حساب السكان الأصليين من الأمازيغ وقبائِل الفتح الإسلامي، الذين كانوا قد استقروا هُناك منذ بداية القرن الثامن الميلادي/ الثاني الهجري.

ويقول ابن خلدون عن سبب سيطرة الهلاليين على بسكرة والزاب تحديداً: «أن أحمد بن مزني صاحب بسكرة والزاب كان مضطرب الطاعة يجبر على السلطان،

(١) الدولة الحفصية هي إحدى الإمارات الإسلامية الأمازيغية في تونس، والتي كانت ولاية تابعة للخلافة الموحدية، وانشقَّت عنها، وتنسب إلى مؤسسها أبي زكريا يحيى الحفصي بن أبي محمد بن عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي، حيث أُسست في عام ١٢٠٧م ودامت قرابة أربعة قرون، حتى عام ١٥٧٤م.

ويمنع في كلّ السنين المغارم معولًّا على موافقة العرب الذين ملكوا ضواحي الزاب والتلول دونه، وأكثر وثوقة في ذلك يعقوب ابن علي وقومة الدواودة»[1].

وكانت مناطق ورجلان في عهد الدولة الحفصية تابعة لأمير الزاب أحمد بن يزني، ثم صارت إقطاع للقبائِل الهلالية. كما تأثَّر توزيع سكان بسكرة والنواحي المجاورة لها بالهجرة الهلالية، فقبل وصول الهلاليين، كان جُلّ سُكّان هذه المناطق من القبائِل الأمازيغية، وبالذات الزناتية، ولكن بعد توافد الهلاليين، هُجِّرت القبائِل الأمازيغية إلى الجبال، لتحلّ محلها القبائِل الهلالية.

وحسب ابن خلدون، كان أغلب بني هلال في منطقة بسكرة وبواديها والزاب من بطون قبائِل رياح والدواوده والضحّاك والأثبج، الذين سلبوا، وقتلوا، وهجّروا الأهالي هُناك بتواطئ من أُمراء الدولة الحفصية، فمثلاً، تم تهجير القبائِل الزناتية كبني عبدالواد ومغراوة، الذين تخلّوا عن الواحات، وتوجَّهوا إلى التلال في المنطقة المحصورة بين الجزائر العاصمة وتلمسان ومناطق الأوراس.

ولم يقتصر الأمر على منطقة الزاب، بل توسَّع نفوذ الهلاليين إلى المنطقة المعروفة اليوم بولاية الأغواط، فحلّوا محل القبائِل الزناتية هناك، المتمثِّلة في بني راشد. ومن بين القبائِل العربية التي استقرَّت في وادي سوف من قسطيلة الجريد والزاب ووادي ريغ وورجلان، قبيلة العدوان التي وصلت إلى المنطقة مع بني هلال وسليم، وقد قال عنهم الشيخ العدواني أنهم أتوا إلى الوادي فحاربوا الزناتية وأخرجوهم من الجردانية ونزلوا منزلهم. كما نزلت هناك قبيلة طرود قادمة من ليبيا.

وبعد القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري، كانت طولقة من بين المدن التي تعرّضت للهجرة الهلالية، فقد انتقل إلى ضواحيها أولاد سباع بن يحيى، وقبيلة رياح، والتي كان شيخها في تلك الفترة يعقوب بن علي، الذي اختط قريته طرفار قرب طولقة. وقد كان لهجرة القبائل الهلالية إلى هذه المناطق تأثير سلبي على سكان

(١) ابن خلدون، العبر، ج٧، ص ٦٨.

المدينة، حيث يقول عنهم ابن خلدون: «إن سكانها فقراء، وقد أرهقهم الهلاليون والدولة الحفصية بالضرائب»[1].

كما استقرَّت بعض القبائِل الهلالية في القرى المجاورة للمدن، مثل قرية شط التي أُسست بعد خراب مدينة سدراتة من طرف بني غانية، وقرى عجاجة، اخويعد، والرويسات والتي كان يسكنها عرب قدموا إليها من المشرق سنة ١١٨٥م/ ٥٨٠هـ. وفي منطقة توات، استغل الهلاليون ضُعف الزناتيين، فأغاروا عليها، وهجّروا أهلها نتيجة القتل والسلب، وكانت أهم القبائل الهلالية التي استقرَّت في منطقة توات: أولاد عمارة، أولاد جرير، أولاد علي بن علي، أولاد دقيس، الحراطين، والعيد.

نزاع الدولة الحفصية مع قبيلة الدواودة الهلالية

في عهد الأمير الحفصي أبي عبد الله محمد المستنصر (ت١٢٧٧م) دخلت الدولة الحفصية في نزاع مع قبيلة الدواودة[2] الرياحية الهلالية، حيث حدث انقسام في صفوف هذه القبيلة بعد أن قرّب المستنصر إحدى بطونها، وهم بنو عساكر، بينما أبعد البطون الأخرى، ظناً منه أنهم كان يؤازروا أخاه إبراهيم لينقلب عليه، مما تسبب في حروب طاحنة بين هذه البطون والدولة الحفصية، التي تمكّنت من هزيمتهم، وقتل شيخهم موسى بن محمد، ودفعهم إلى ترك ضواحي قسنطينة، والتوجّه نحو منطقة الزيبان.

بعد مقتل شيخ الدواودة، موسى بن محمد وتولي ابنه شبل بن موسى رئاسة القبيلة، واصلت الدواودة غاراتها بكثافة ضد الدولة الحفصية، مما دفع المستنصر إلى حشد القبائِل وجيوش الإمارة في كُل من بجاية وقسنطينة من الموحدين وعرب بني سليم وبني عسكر، وفي مقدمتهم الشيخ هلال عياد بن محمد الهنتاني، وكان يومئذٍ أميراً على بجاية، وطلب منهم إعانته على التخلّص من الدواودة، وفعلاً تمكّن في النهاية من

(١) ابن خلدون، العبر، ج٦، ص٧٥.

(٢) قبيلة الدواودة هي إحدى بطون قبيلة رياح الهلالية التي تعود بنسبها إلى داوود بن مرداس الرياحي، ولعبت دوراً مُهمّاً في الأحداث السياسية، وكانت متواجدة في ضواحي قسنطينة ومنطقة الزاب.

القبض على رؤسائهم، بما فيهم شبل بن موسى، وأمر بقطع أعناقهم، ثم شتت باقي فرسانهم ومحاربيهم.

وبعد هذه الهزيمة الماحقة للدواودة، قدَّمت الدولة الزيانية يد المساعدة لهم ضدّ الحفصيين، وذلك على الرغم من وجود علاقة مصاهرة بين الزيانيين والحفصيين، إذ قد تزوّج عثمان بن يغمراسن الزياني بأميرة حفصية. ونتيجة لهذه المساعدة، استعاد الدواودة مضاربهم في منطقة الزيبان. بعد ذلك، أقرَّت الدولة الحفصية للدواودة بعض المناطق مُقابِل الحصول على خدماتهم، وأقطعتهم مُدن الحضنة، لكنهم واصلوا شرورهم، وعاثوا فساداً في المناطق التي سيطروا عليها، وانقسموا إلى فرعين، «أولاد مسعود» و»أولاد سباع»، وواصلوا غاراتهم حتى تغلّبوا على ضواحي بجاية وقسنطينة، وعلى القبائِل الهلالية الأُخرى المُقيمة بهذه المناطق.

ونستخلص من هذا الفصل أن حروب بني هلال ما بعد التغريبة قد تركّزت بشكل كبير على مُنازعة القبائِل الأمازيغية، والزناتية تحديداً، على الأراضي والمراعي، والتي تمخَّضت في النهاية عن تقسيم الأراضي الواقعة اليوم ضمن دولتي تونس والجزائر بين الفريقين، حيث سيطر الهلاليون على الواحات الصحراوية والتلال، فيما تركَّزت زناته داخل المدن، وحدثت هذه المحاصصة بعد نزاع مرير بين الطرفين. ويلخّص ابن خلدون العلاقة بين القبائِل الهلالية ودول المغرب، وعلى الخصوص الزناتية إلى مرحلتين:

* **أولاً**: مرحلة قوّة زناتة، حيث أرغمت زناته في تلك المرحلة القبائِل الهلالية مراراً على ترك مضاربها، والتوجّه نحو الواحات الصحراوية، وامتدَّت هذه الفترة من القرن السابع والنصف الأول من القرن الثامن الهجري.

* **ثانياً**: مرحلة ضُعف زناتة، والتي بدأت مُنذ القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، حيث ضعفت القبائِل الأمازيغية والزناتية، على وجه الخصوص عن المواجهة، وكذلك الدول المغاربية الثلاث: الحفصية، الزيانية، والمرينية. وفي

هذه المرحلة، لجأت الإمارات الأمازيغية إلى استخدام القبائِل الهلالية في حروبها، مُقابِل إقطاعها الأراضـي على حساب القبائِل الأمازيغية الأُخـرى، فقد انتقل الهلاليون إلى الشمال، وسيطروا على كل الأراضي، وأبعدوا القبائِل الأمازيغية هُناك إلى الجبال.

وبذلك، فالصراع بين القبائِل لم يكن صراعـًا عنصريـًا «عربيـًا-أمازيغيـًا»، بل صراعَ مصالحٍ بالدرجة الأولى، فمثلاً، كان هناك صراع أمازيغي-أمازيغي، كالصراع بين بني مرين وبني زيان، وبين مغراوة وبني توجين، وكلّهم ينتسبون لزناتة. وكانت القبائِل الهلالية كذلك منقسمة، تتحارب فيما بينها، وتتحالف مع الأطراف الأمازيغية المُختلفة. فبعد انتصار بني هلال على الزيريين في عهد المعز بن باديس الصنهاجي، انقسموا على أنفسهم، وأصبحوا يُستخدَمون من قِبل دول المغرب، ابتداءً من عهد الحماديين، والموحدين، ومن ثم بني زيان وبني مرين.

الفصل الثامن

القبائِل الهلالية في شمال إفريقيا

تطرَّقنا في الفصل السابع إلى حروب بني هلال بعد التغريبة ودخولها في صراعات مع القبائِل والإمارات الأمازيغية القائمة آنئذٍ، وبيّنا كيف أن تلك الحروب لم تعد هلالية-أمازيغية، بل أصبحت بين أحلاف هلالية-أمازيغية وأحلاف أُخرى من الطرفين، وهذا يُفسِّر غياب العصبية العرقية بين المجتمعين العربي والأمازيغي في تلك الفترة. فبعد زُهاء قرن من التغريبة، أخذت قبائِل بني هلال وسليم في الإندماج بشكل أكبر مع القبائِل والإمارات الأمازيغية القائمة هُناك، وفيما بعد أصبح مجتمع الهلاليين يختلف عما كان عليه عند اجتياح إفريقية، إذ تكوَّن مجتمع جديد من أحفاد الهلاليين، مُجتمعاً فريداً من نوعه بعاداته وتقاليده، شمل اللهجة والأسماء والملبس، ويتماهى مع المُجتمع الأمازيغي بشكل واضح.

وبالرغم أن العديد من القبائِل الهلالية احتفضت بأسمائها، إلا أنها تكاثرت، وتناسلت عنها بطون وفروع جديدة على مدى الزمن، وانتشرت في مختلف المناطق التي تقع اليوم ضمن مناطق تونس والجزائر، والبعض منها في المغرب الأقصى وموريتانيا. وقد أقامت القبائِل الهلالية في أوائل عهدها في الصحاري وأطراف المدن وفي الجنوب من المغرب والمشرق بإفريقية، إلا أنها انتشرت فيما بعد إلى الريف والمُدن. وسوف نستعرض بهذا الفصل أهم القبائِل الهلالية وبطونها بعد أن استقرّت في شمال إفريقيا، وكذلك القبائِل العربية التي رافقتها مُنذ التغريبة.

• الأثبج

الأثبج من القبائِل الهلالية القويّة، والتي كانت صاحبة الزعامة في أوائِل التغريبة الهلالية، حيث كان يتزعمها في تلك الفترة الحسن بن سرحان الدريدي. وتتكوَّن الأثبج

من البطون الأساسية التالية: دريد، الضحاك، عياض، مقدم، العاصم، اللطيف، وكرفة. وقت تناسل عن الأثبج بعد التغريبة بعدة القرون البطون التالية: أولاد سرور، أولاد عبدالله، أولاد عنان بن سلام، وأولاد عطيّة، وكانت رئاستهم في فخذ أولاد مبارك بن حباس، ومن أفخاذ أولاد عبدالله، أولاد جار الله وتوبة ورئاسة أولاد جار الله في فصيلة.

وقد استقرَّت الأثبج بعد التغريبة الهلالية في المناطق التي تقع اليوم ضمن الجزائر، ونزلت في المنطقة الواقعة شرق جبل أورانس، ولكنها غيّرت مضاربها بعد أن دخلت في صراع مع قبائِل رياح، حيث استولت رياح على مضارب الأثبج، لا سيما المناطق التي تميَّزت بوفرة الماء والكلا، مثل ضواحي مدينة قسنطينة. وفيما يلي نُلقي الضوء على أهم بطون قبائِل الأثبج الهلالية:

• دريد

دريد هي صاحبة الزعامة في الأثبج وذات الثقل فيها، وكانت مضارب هذه القبيلة مُنتشرة ما بين عنابة وقسنطينة إلى أطراف مصقلة. ويقول ابن خلدون عن قبيلة دريد: «دريد كانوا أعز الأثبج وأعلاهم، وكانت مواطنهم ما بين العنابة إلى قسنطينة إلى طارق مصقلة، وما يُحاذيها من القفرة»(١). ويقول عنهم الشيخ مبارك الميلي: «دريد كانت إليهم رئاسة بني هلال، ومدحهم الشعراء، وكان منهم الحسن بن سرحان، رئيس الأثبج أجمعين عند دخولهم إفريقية، وأُخته الجازية التي كانت تحت الشريف بن هاشم صاحب الحجاز، ولمّا أجمعوا الرحلة إلى إفريقية تحيّلوا في نقل الجازية معهم، وتزوجها بعده ماضي بن مقرب، واجتمع على حربهم من إخوانهم كرفة وعياض، وكان الظهور غالباً لدريد»(٢).

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج ٦، ص ٢٧.

(٢) مختار، د. حساني، تاريخ الجزائر الأوسط، الجزء الثاني، وزارة الثقافة، دار الهدى، الجزائر، ٢٠١٣م، ص ٢٨٢.

• **عيّاض**

تُعد عيّاض من البطون الأساسية في قبائِل الأثبج الهلالية، حيث نزلت هذه القبيلة بالمناطق الجبلية المُحيطة بقلعة بني حمّاد، وكانت مهاجع هذه القبيلة تمتدّ بين جبل القلعة بطوله من الشرق إلى الغرب، وما بين ثنية غنية والقصاب، إلى وطن بني يزيد بن زغبة، حيث سيطرت على القبائِل الأُخرى المُقمية هُناك وأصبحت موالية للدولة الحفصية. ومن بطون عياض التي أقامت في تلك المناطق، هُم أولاد تبان، حناش، غنوس، صخر، ورحمه. ووقعت بينهم وبين قبائِل رياح مشاحنة وقتال، وأصبحوا يدافعون عن تلك المناطق، كما وقعت معارك بينهم وبين قبيلة عجيسة التي كانت تشاركهم المناطق المُسيطرين عليها، ولكن قبيلة عياض تمكّنت من دحر قبيلة عجيسة، وأصبح أفراد قبيلة عياض يقومون بالدفاع وجمع الضرائب لصالح الدولة الحفصية في إمارة بجاية، حيث انحسر عملهم كباقي القبائِل الهلالية هُناك على جباية الأموال.

• **اللطيف**

قبيلة اللطيف هي أيضاً من القبائِل الهلالية الكبيرة التي تتفرَّع عن الأثبج، ولها بطون عديدة، ولكن بالرغم من كثرة أعدادها، إلا أنها لم تكن ذات شوكة وقوّة كباقي القبائِل الهلالية، فقد هُزمت في عِدّة معارك، ولم تتمكَّن من الوقوف في وجه القبائِل الهلالية الأُخرى كالدواودة ورياح، وكانت منازل هذه القبيلة في بلاد الزاب.

• **العمور**

قبيلة العمور هي إحدى قبائِل الأثبج قليلة العدد، على الرغم من تفرَّعها إلى مجموعة من البطون، ومن أهم بطونها مُـرَّة وعبد الله، وكانت تقيم هذه القبيلة بالضواحي والجبال، وموطنها ما بين جبال أورانس شرقاً إلى جبل راشد وكسلان من ناحية الحضنة. وقد تحوَّل أفراد هذه القبيلة من بدو رُحَّل إلى الاستقرار والاعتماد

على الزراعة، ولربما يكون هذا التحوّل بسبب قلّة أعداد هذه القبيلة، وعدم تحمّلها حياة الصحراء والتنقُّل والدخول في حروب مع القبائِل الأُخرى.

وكانت بطون الأثبج الأُخرى موزَّعة في مناطق مُختلفة، فمثلاً استقرَّ بنو الضحاك في الجزائر بمنطقة الزيبان، وتحولوا فيما بعد من بدو رُحَّل إلى حضر، كما استقرَّت قبيلة كرفة بالمنطقة الجبلية بجبل أوراس إلى جانب القبائِل الأمازيغية، أمّا قبيلتي المراونة ودلاج فقد أقامتا في ولاية سطيف.

• بنو قرة

ينتسب بنو قرة إلى عبد مناف بن هلال، حيث أنهم سبقوا التغريبة الهلالية بوقت طويل ليستقرّوا في نهاية المطاف في برقة، والتي تشمل اليوم مناطق واسعة من شرق ليبيا، وكانت قراهم منتشرة في الجبل الأخضر وما يليه. وأصبحوا قوّة يُعمل لها حساب في تلك المناطق، وكانت هنُاك وقائع ومعارك بينهم وبين الدولة الفاطمية، فقد ذكر المؤرخون أن بني قرة استجابوا إلى أبي ركوة[1] في التمرّد على الخلافة الفاطمية، وشق عصا الطاعة، والتحوُّل في البيعة للقائم العباسي في بغداد، وكان دافعهم للانضمام إليه هو المال، وكذلك للانتقام من الحاكم بأمر الله الفاطمي بعد أن نكَّل بهم، حيث تصالحوا مع زناتة بالرغم من النزاعات والحروب التي كانت قائمة بينهم، وبذلك تمكَّن أبو ركوة من تجييشهم تحت قيادتة إلى جانب بعض القبائِل الأمازيغية، مثل زناتة وكتامة.

وفي أول الأمر، استهانت الخلافة الفاطمية بهم وقللت من شأنهم، إلا أنها استشعرت الخطر بعد أن استقلّوا بإقليم برقة، فأرسلت إليهم جيشاً جراراً، لكنهم استطاعوا دحره

(١) أبو ركوة (٩٧٥م-١٠٠٧م) كان في الأصل أميراً أُموياً من نسل عبد الملك بن مروان، ولد وترعرع في الأندلس، لكنه هجرها إلى مصر بعد تغوُّل المنصور بن أبي عامر واستأثارة بالسلطة دون الخليفة الأموي في قرطبة هشام المؤيد. وأثناء وجوده في مصر، عمل بداية في الحديث ينحو منحى المتصوفة، وكان يحمل ركوة ماء، فسمّي أبو ركوة، تمرَّد على الخلافة الفاطمية في عهد الحاكم بأمر الله.

وهزيمته. وبعد هذه الهزيمة، طمع أبو ركوة وحلفاؤة من بني قرة وكتامة وزناته في مصر ذاتها، فهاجم الصعيد، لكن الخلافة الفاطمية حشدت هذه المرة كل طاقاتها وكثير من القبائِل العربية الموالية من الشام ومصر حتى تمكّنت من القضاء على هذا التمرد، وأسرت أبا ركوة في سنة ٣٩٧هـ.

• رياح

رياح هي إحدى القبائِل الهلالية الكُبرى، وذات قوَّة وشوكة، وحول نسبها، يقول ابن الكلبي (١١٠هـ/ ٧٣٧م-٢٠٤هـ/ ٨١٩م) أن قبائِل رياح تناسلت عن رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال. وتتفرَّع رياح إلى بطون كثيرة، أشهرها: بنو مرداس، الدواودة (أي أولاد داوود)، بنو جبر بن حوار بن عقيل بن مرداس، أولاد بن يزيد بن مرداس، وبنو موسى بن عامر، ومن بطون رياح التي استقرَّت بالجزائر، ملك كعوب ومرداس، حيث نزلت رياح أخصب المناطق في الجزائر، كالهضاب العليا الشرقية وضواحي عنابة وقسنطينة والسهول والهضاب العليا الشرقية وفي جبل آشير، والزاب، وأقامت علاقات طيبة ووطيدة مع بعض الإمارات الزناتية، كعلاقتها مع الزيانيين (بنو عبدالواد) والمرينيين في بعض الأوقات، فعندما فشل الزيانيون في صدّ المرينيين، طلبوا النجدة من قبيلة رياح[١].

وكانت رئاسة رياح لبني مرداس، ثم صارت للدواودة الذين تفرّعوا عن بني مرداس، ومن أشهر شيوخ رياح عند اجتياح إفريقية هو مؤنس بن يحيى الرياحي، الذي كان أحد كبار زعامات الهلاليين في تلك الفترة. ومن شيوخ رياح البارزين: صنبر بن عقيل بن مرداس، سليم بن عقيل، وعامر بن يزيد بن مرداس، وكان رئيس رياح خلال عهد الموحدين هو مسعود بن سلطان، وكان يُلقَّب بـــ «البلط» لشدته وصلابته.

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج١، ص٨٨.

• زغبة

زغبة من القبائِل الهلالية الكثيرة العدد، وذات شأن في تاريخ الهجرات العربية إلى شمال إفريقيا، وكانت مُنتشرة في مُختلف مناطق شمال إفريقيا بعد التغربية الهلالية، ولكن تمركزها الأساسي كان في المغرب الأوسط (الجزائر)، كما استقرَّت عِدّة بطون في طرابلس وقابس.

وترتبط زغبة بعلاقة قربة بقبيلة رياح، حيث أنهما من أبناء أبي ربيعة بن نهيك بن هلال، وبالرغم من ذلك، فقد نشبت عداوة بينهما، ودخلتا في معارك ضارية بعد الهجرة من الجزيرة العربية، ويقول أبو ضيف: «أن زغبة ورياح انضمّتا إلى بني هلال وبني سليم، وكانتا تقيمان على حدود مصر الغربية في إقليم برقة، وكان بينها عداوة وحروب»[1].

وتتفرَّع زغبة إلى بطون كثيرة، من أهمها: قبائِل بني عامر، السويد، وبنو يزيد، وفيما يلي نُلقي الضوء على أهم هذه البطون:

• بنو عامر

بنو عامر من أشهر بطون قبيلة زغبة، وقد ارتبطوا ببني يزيد، وهم من زغبة ايضـًا، بروابط مُشتركة، وقاتلوا معهم. وتتفرع قبيلة بني عامر بدورهما إلى عِدّة بطون، من أبرزها اليعقوبية، نسبة إلى يعقوب بن عامر بن زغبة، ومن بطون عامِر قبيلة هلال التي كانت تُقيم في تخوم إمارة تلمسان ووهران، حيث كان حُكّام تلمسان يستخدمون هذه القبيلة في أعمالها مُقابِل أجور تُدفع لهم. كما استوطنت بعض البطون من بني عامر في الجُزء الشرقي من الدولة الزيانية، وكذلك عند نهر واصل القريب من جبال الونشريس، ومن أشهر البطون التي استقرّت في تلك المناطق بنو يعقوب، بنو حميد، وبنو شافع، كما كانت بعض البطون من بني عامر يتوجهون في فصل الخريف لوادي ميزاب.

---

(١) ابن خلدون، العبر ج٦، ص ٨٥.

وفي نهاية القرن الرابع عشر الميلادي، الثامن الهجري، تولَّى بنو عامِر جباية الضرائب على السهول ما بين مُرتفعات تسالة والظهرة، وفرضوا ضريبة الزرع على السُّكان هُناك، كما سيطروا على مناطق زيدور غرب عين تموشن وملاله، وسفوح سبخة وهران، وسهل سيق. وقال الحسن الوزان[1]: «كان بنو عامر يتوجهون نحو المناطق الصحراوية، وانضم عدد منهم في الجيش الزياني. وفي النصف الأول من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر ميلادي، كانت قبائِل بني عامر تُقيم في الجزائر في ولاية سيدي بلعباس وعين تموشنت ووهران، وكانوا يفرضوا الأتاوات على القبائِل الأمازيغية.

بنو عامر في عهد الدولة الزيانية

كان بنو عامر ذوي ثروة وبأس، ولديهم حوالي ستة آلاف فارس، وكانوا في صراع دائِم مع القبائِل الأمازيغية المُتصارعة على تلمسان، ونتيجة لذلك، فقد اعتمدت عليهم الدولة الزيانية الزناتية بشكل كبير في حمايتها، كما وضّحنا ذلك في الفصل السابع، ففي عهد الأمير الزياني يغمراسن وابنه عثمان، تمتّع بنو عامر بأهمية خاصة، إذ شجّعهم يغمراسن على الانتقال إلى مُحاذاة تلمسان وفي التلال الشمالية، ليكونوا حاجزاً بين قبائِل المعقل وتلمسان، وأقطعهم يغمراسن كافَّة الأراضي المُحيطة بتلمسان.

وكانت الرئاسة في بني عامر في تلك الحقبة لداوود بن هلال، الذي كان مُقرّباً من الدولة الزيانية، التي اقتطعت له مناطق شاسعة للرعي من كدارة في بلاد حمزة، كما كان دواوود من أصحاب الرأي والقرار في الدولة الزيانية، فعندما حاصر يوسف بن يعقوب المريني تلمسان، قدم إليه داوود حامِلاً رسالة من صاحب بجاية للصلح، وقد استقبله يوسف وأحسن وفادته ظاهرياً، لكنه أضمر له لما استشعر من دهائة ومن صعوبة السيطرة على تلمسان في وجوده، فلمّا انتهى من وفادته، بعث في إثره خيّالة من زناتة فقتلوه. وبعد مقتل داوود، تولَّى زعامة بني عامر ابنه سعيد بن داوود، الذي ظل أيضاً على ولائه للدولة الزيانية.

---

(١) الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج١، ص١٥٩.

واصل بنو عامر سطوتهم على المناطق المُحيطة بتلمسان لفترات طويلة من الزمن، ولكن عندما غزا السلطان أبو الحسن علي بن عثمان المريني (ت١٣٥١م) تلمسان، فرَّ بنو عامر إلى الصحراء، وكان شيخهم في تلك الفترة يسمّى «صغير»، كما ترأس عريف بن يحيى سائر بطون حميد من بني عامر آنذاك، ولم يكتفِ السلطان أبو الحسن المريني من فرار بني عامر، إذ خشي من عودتهم للفتك به، فأوعز إلى قائده المدعو «لوتزمار بن عريف» بحربهم، وفعلاً نهض لوتزمار لحربهم، وجمع لهم أعداداً غفيرة من البطون الهلالية المناصرة له، وأوقع ببني عامر شرّ هزيمة ومزَّق جموعهم، وفرَّ «صغير» بن عامر وإخوانه إلى القفار، ولكن عندما عاد بنو زيان وطردوا المرينيين من إمارتهم، أعادوا لبني عامر مكانتهم في الدولة الزيانية.

وفي عهد الأمير أبي حموا موسى الأول، افترق بنو عامر إلى فريقين، «بنو يعقوب» و «بنو حميد»، حيث تولَّى زعامة بني يعقوب، عثمان بن سعيد، ثم هلك بعد حين، وتولَّى الأمر بعده إبراهيم بن يعقوب، وفيما بعد، أصبح بنو يعقوب أحلافاً لقبيلة سويد، والتي هي من زغبة أيضاً، في الفتنة مع قبيلة بني حميد.

وتجدر الإشارة إلى أن العلاقة بين بني عامر والدولة الزيانية كانت تشهد أحياناً بعض الفتور، كما بيّنا في الفصل السابق، وكان ذلك يعتمد على طبيعة الصلة بين الحكّام الزيانيين وشيوخ بني عامر، فمثلاً، عندما ملك السلطان أبو حموا بن يوسف تلمسان، وكان مستقرَّاً بتونس قبل ذلك، دخل في عِدّة حروب مع عدة بطون من زغبة، بما فيهم بني عامر، ولكن بعد هذه الحروب، خضعت أغلب قبائِل زغبة للسلطان أبي حموا، الذي استخدمها لحماية أطراف إمارته، لا سيما في المناطق القريبة من مضارب زغبه وبطونها من السويد وبني يعقوب والديلم والعطاف.

• السويد

كما هو الحال بالنسبة لبني عامر، تُعتبر قبيلة السويد أيضـاً من بطون زغبة القويّة. وقد استقرَّت قبيلة السويد بالغرب الجزائري وفي مستغانم وغليزان وتيهرت، وكانت تتحوَّل في ولائها أحياناً لبني زيان مُقابِل المال وأُجور تُقدَّم لها، مثلها في ذلك كباقي القبائِل الهلالية التي كان يحرّكها المال، لا سيما خلال العقود الأولى من اجتياح بني هلال لبلاد المغرب. وبذلك، قدَّم ملوك تلمسان المال لبني السويد ليستعينوا بهم في حروبهم، لا سيما خلال فترة نهوض الدولة الزيانية، التي تمكّنت من استمالة العديد من البطون الزغبية الهلالية، بما فيهم السويد وبني عامر، بالرغم أن بعض بطون زغبة الأُخرى بقيت على الحياد.

وركَّزت الإمارة الزيانية جُلّ اهتمامها في جذب الفروع القوية من زغبة إلى جانبها، كبني عامر والسويد، وهذا ما جعل يغمراسن مؤسس هذه الدولة يتقرَّب من بني عامر والسويد، ويقرِّب إليه رؤسائهم، وخصَّ من السويد أولاد عيسى بن عبد القوي[1]. كما قرَّب منه يوسف بن مهدي وأخاه عمر من قبيلة السويد، واقتطع لهم بعض الأراضي بجوار غليزران، وكان ينوب عنه على تلمسان غير مرّة، عمر بن مهدي من قبيلة السويد.

وفيما بعد، اندلعت صراعات وحروب مريرة بين السويد وبني عامر على الرغم أنهما ينتسبان لنفس الجذر من قبيلة زغبة الهلالية، وقد ساهم هذا الصراع في تأجيج الحروب بين الإمارتين الزناتيتين، بني زيان وبني مرين، كما أسلفنا ذكره، ففي الوقت الذي ساند فيه بنو عامر الإمارة الزيانية، تحوَّل بنو السويد عن الإمارة الزيانية، وتحالفوا مع الإمارة المرينية، وكان ذلك في نهاية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر ميلادي، حيث وثّقت قبيلة السويد تحالفها مع الدولة المرينية، وعهد السلطان المريني أبو عنان بن مرين لقبيلة السويد أراضٍ جديدة في ناحية بني توجين، وبذلك أصبح بنو السويد يسيطرون على ناحية بني توجين والمُدن التي تقع ضمن مضاربهم، واستولوا

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج٦، ص٩٥-٩٦).

على خليج أرزيو والشط الشرقي وسهول سيدي بلعباس، كما استولوا على قلعة بني سلامة، وكانت تابعة لهم عند إقامة ابن خلدون بها، الذي عاصر تلك الحقبة[1].

وقد استفادت قبيلة السويد من الصراع بين الإمارتين المرينية والزيانية، ففرضت إرادتها على قبائِل الناحية، وفرضت الأتاوات على سكان سهل سيرات والبطحاء وهوارة، كما سيطرت على أغلب الأراضي الخصبة، مثلها مثل العديد من القبائِل الهلالية التي امتهنت هذا العمل. وفرضت السويد سيطرتها على القبائِل الأمازيغية التي كانت مُقيمة في تلك المناطق كقبيلة بني توجين المجاورة لها، حيث زاحمتها ودفعت بها إلى الجبال، كما انتشرت قبيلة السويد في العديد من المناطق، وكان لها أحياناً تحالفات مع بني بادين والبطون الزناتية الأُخرى.

• بنو يزيد

بنو يزيد من القبائِل الهلالية التي يتّصل نسبها أيضاً ببني عامر من زغبة الهلالية، وهي قبيلة ذات أهمّية في تاريخ الشمال الإفريقي، ويتفرَّع عنها بعض البطون، مثل: «أولاد لاحق»، «أولاد علفا»، «بنو حينان»، و «بنو حصين». وقد تحالف بنو يزيد بدايةً مع الدولة الموحدية التي أقطعتهم بلاد حمزة وبني حسن من أراضي بجاية في الجزائر، فاستقرُّوا هُناك، وكوّنوا حصناً منيعاً لحماية الدولة الموحدية من خطر الكتاميين، وعملوا على جباية الأموال لصالح الدولة الموحدية.

وفي عهد الإمارة الزيانية في المغرب الأوسط، نقل الأمير الزياني يغمراسن بني حينان، وهم فرع من بني يزيد، إلى المنطقة المجاورة لتلمسان، وانتقلت أفرع من بني يزيد إلى المناطق الخصبة، فقد استوطن بنو حصين في جبل تيطري ونواحي المرية وجنوب المناطق التي تسكنها قبيلة الثعالبة، والتي هي بطن من قبيلة المعقل، والتي سنأتي إلى ذكرها بهذا الفصل.

---

(١) الميلي، مرجع سابق، ج٢، ص١٥٩.

• **بنو حصين**

قبيلة بنو حصين هي إحدى بطون بني يزيد الزغبية، كما ذكرنا، وأصبحت من القبائِل الزغبية الكبيرة، وتفرَّعت بدورها إلى بطنين عظيمين، هُما جندل وخراش. فمن جندل تناسل فروع أولاد سعد بن خنفر بن مبارك بن فيصل وأولاد سعد فيصلة بن خليفة، ومن خراش تناسل أولاد مسعود بن مظفر بن محمد الكامل بن خراش. وكانت المنطقة التي تواجدت بها حصين محلّ صراع بن القبائِل العربية والأمازيغية، وعندما ضعفت الدولة الزيانية في عهد السلطان أبي حموا الثاني، سيطر بنو حصين على جبل تيطري.

• **القبائِل الزغبية الأُخرى**

هُناك بطون أُخرى لقبائِل زغبة الهلالية، والتي كان لها تاريخ طويل في المناطق التي تقع اليوم ضمن الأراضي الجزائرية، كقبيلة عروة بن زغبة، التي تتفرَّع إلى البطون التالية: النصر بن عروة؛ بطون خميس؛ بنو يقظان؛ وبنو عبيدالله، وهم أحلاف لقبيلة السويد، ورئاستهم في أولاد عابد بن راشد.

ومن زغبة أيضـًا قبائِل بني مالك، عكرمة، والديلم، والعطاف، حيث كانوا يتمركزون بروينة التابعة اليوم لولاية عين الدفلى في الجزائر، وكذلك في توجين ما بين سعيدة والمدية. ويعود تاريخ استقرار قبيلة العطاف إلى القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، ولا تزال آثارهم بادية للعيان، وكانت مضاربهم تمتدّ إلى مليانة والمناطق الواقعة إلى «مِنها» و «جبل دراج»[1].

كما كانت قبائِل العطاف والديلم وبني باديس أحلافـًا لبعض القبائِل والإمارات الزناتية، فقد ارتبطت بعلاقة طيبة ببني عبد الواد الزيانيين قبل وبعد تأسيس دولتهم، وساندتهم ضد المرينيين. وعندما تغلَّب المرينيون على الزيانيين، نكّلوا بقبيلة العطاف.

---

(١) ابن عذاري، البيان، ج١، ص ٢٨٣.

ومن بطون زُغبة أيضـاً بنو سعيد، الذين تفرّعوا إلى بني ماضي بن رزق، وبني زغلي بن رزق، وكذلك قبيلة النضر التي استوطنت القفار وأطراف التلال، ولكنها كانت أقل شوكةً وأكثر فقراً، وليس لها مُلك أو إقطاع.

القبائِل الهلالية الأُخرى

هُناك العديد من القبائِل العربية التي نشأت في بلاد المغرب الكبير، وظهر اُسمها في أوقات مُتأخرة في شمال إفريقيا، تنسب نفسها إلى القبائِل الهلالية، ونذكُر من هذه القبائِل التلول، الذين كانوا أقرب إلى مواطن الفقر والجذب؛ وكذلك أولاد فارس؛ وأولاد عزيز؛ وأولاد ماضي، وموطنهم بجبل أوراس في بسكرة، وكانوا في جوار قبائِل رياح.

وفي جبل راشد كانت تُقيم قبائِل أولاد شاكر وبني مُحيي، ومن أشهر شيوخ بني مُحيي هو عامر بن يحيى بن محيي، الذي كان من الصوفيّة، وكانت له شهرة كبيرة، فغزا المُفسدين في بادية النظر من هواره وجاهدهم إلى أن اغتالوه(١). كما ظهرت قبائِل أُخرى تنتسب لبني هلال في شمال إفريقيا، مثل: هبرة ومسلم، وكذلك قبيلتي بني عروة وعقبة - وكانت قبيلتان متوحشتان من عُتات اللصوص، تُقيمان في الصحارئ.

قبيلة المعقل العربية

كان هُناك العديد من القبائِل العربية التي صاحبت قبائِل بني هلال في حِلِّهم وترحالهم، ومنها قبائِل المعقل، والتي هي بطن من مدجج القحطانية، وتعود بنسبها إلى ربيعة بن حرث بن كعب بن خالد بن مدجج، وتفرَّعت لحوالي ثلاثة وعشرين بطنًا، ومن البطون الأساسية هي الثعالبة، و «دوي عبيدالله». وقد استقرَّت قبائِل المعقل مع القبائِل الهلالية، وامتدَّ نفوذها إلى المناطق الصحراوية في التلال في الجهة الغربية من الجزائر، وكان شأنها شأن القبائِل الهلالية في علاقاتها مع القبائِل والإمارات

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج ٦، ص ٢٣-٣٥.

الأمازيغية، فكانت معها بين شدّ وجذب، ولكن بوجه عام، كانت المعقل من ضمن القبائل العربية التي تحالفت مع المرينيين.

وقد توجَّهت أعداد كبيرة من المعقل إلى المناطق الصحراوية وجنوب المغرب الأقصى، وعندما ملكت زناتة بلاد المغرب انتشرت قبائِل المعقل في القفار والبيداء، وسيطرت على المناطق الصحراوية، وعلى قصور زناتة في تلك المناطق، ودخلت في صراعات مع القبائِل الزناتية هُناك بعد أن فرضت عليها الأتاوات.

وأقامت قبيلة الثعالبة، وهي فرع من المعقل، في جبل تيطري، ولكن بعد سيطرة القبائِل الزناتية على مناطق الونشريس، ابتعدت هذه القبيلة إلى منطقة متيجة، كما استولى الثعالبة على بعض مضارب صنهاجة، وأقاموا فترة من الزمن جنباً إلى جنب مع القبائِل الأمازيغية الصنهاجة والزناتية. وفي فترات زمنية أُخرى استقرَّت قبيلة الثعالبة في ضواحي مدينة الجزائر، ثم أُبعدوا منها إلى المناطق الجبلية في ولاية الجزائر وبومرداس والبويرة وتيزي وزو. أمّا قبيلة «دوي عبيدالله»، فكانت مجاورة لبني عامر من زغبة، في المناطق بين تلمسان ووجدة إلى مصب نهر الملوية، وقد توغلَّت هذه القبيلة إلى قصور توان حتى وصلوا تيكرارين[1].

وبالإضافة للقبائِل الهلالية في شمال إفريقيا، ما زالت هُناك العديد من القبائِل العربية في مناطق أُخرى من قارة إفريقيا تنتسب لبني هلال، كقبيلة الرزيقات في دارفور في السودان، التي تزعم أن نسبها يعود إلى رزق بن أبي زيد، وقبيلة سليم في دارفور التي تنتسب لبني سليم، وكذلك السعديين.

كما أن هُناك بعض المناطق والجماعات في مصر تدّعي نسبها لبني هلال، كقريتي بني هلال وبني قرة في منطقة الشرقية في صعيد مصر، كما ينسب بعض المصريين مسجد السلطان حسن في القاهرة، وهو أحد المساجد القديمة، لحسن بن سرحان الدريدي، في حين يُرجِّح آخرون بأنه يعود للملك الناصر حسن، الذي أقامه في عام ٧٥٧هـ.

---

(١) ابن بطوطة، الرحلة، ص ٦٩٦.

وهكذا، كان لانتشار القبائِل الهلالية بعد التغريبة في شمال إفريقيا الأثر البارز في تغيير تركيبة المُجتمع الأمازيغي هُناك ودمجه بالمجتمع العربي، لا سيما في تونس والجزائر والمغرب الأقصى، بما يفوق ما حققه عرب الفتح الإسلامي بكثير، وذلك على الرغم من الدمار الذي سببته القبائِل الهلالية للإمارات الصنهاجية والزناتية في أوج هجرتها، ولكنها اندمجت معها وأصبحت جزء منها فيما بعد ضمن نسيج مُجتمع موحد ومُتكامِل.

الفصل التاسع

الملحمة الشعبية للتغريبة الهلالية

بعد أن تطرَّقنا في الفصول السابقة من الكتاب للبعد التاريخي الصرف للتغريبة الهلالية والأحداث التاريخية المُنتقاه من أُمهات الكتب، والتي وردت على ألسنة جهابذة التاريخ الذين عاصروا أحفاد الهلاليين بعد التغريبة أمثال ابن خلدون، ننتقل بهذا الفصل لإلقاء نظرة مُختصرة على نشأة السيرة الشعبية التي شاعت بين مُختلف الأقطار العربية.

فقد توارثت الأجيال في العالم العربي برمته قصص وأشعار تتناول التغريبة الهلالية ضمن بطولات أُسطورية لأُمراء من بني هلال، تروي حروبهم خلال هذه التغريبة والبلدان التي مروا بها خلال رحلتهم الطويلة، حتى وصلوا إلى تونس وحروبهم المزعومة مع «الزناتي خليفة»، حتى تغلّبوا عليه وقتلوه، ومن ثم سيطروا على تونس والجزائر، كما تروي الحروب التي دارت بين الهلاليين أنفسهم بعد استقرارهم في تونس والجزائِر. وهذا الكتاب لا يُعني التقليل من أهمية هذه الملحمة كقصة أسطورية وموروث شعبي، طورها الإنسان على المدى السنين، مثلها في ذلك كمثل الكثير من الملاحم العالمية كالإلياذة والأوديسا لهوميروس، والشاهنامة، والفردوس المفقود، وغيرها من الأساطير التي جسّدت الوجدان الإنساني والحس الأدبي عليى مدى قرون من الزمن.

ولربما تختلف التغريبة الهلالية عن الأساطير العالمية إلى حدٍ ما، كونها نسجت القصص والأساطير على قالب أحداث تاريخية واقعية، مع تضخيم أبطالها وحشو الهجرة الهلالية بقصص أسطورية. وبذلك، يهدف هذا الفصل إلى التفريق بين القصة الشعبية والأحداث التاريخية، وتنقية التاريخ الحقيقي للهجرة الهلالية من الأساطير والخرافات.

نشأة القصص الشعبية للسيرة الهلالية

بدأت القصص الشعبية للسيرة الهلالية على شكل قصائِد غنائية، انتحلها الرواة على ألسنة الهلاليين، وقد بدأت هذه القصائِد تُروى مُنذ فترات زمنية بعيدة، أي مُنذ زمن أحفاد الهلاليين أنفسهم، ومرَّت القصص الشعبية من الطور الغنائي إلى الروائي، فقبل القرن السادس الهجري، كانت السيرة الهلالية في الطور الغنائي الخالص، وعبارة عن قصائِد غنائية تناقلتها الأجيال ضمن بيئات مُختلفة بعيدة عن اللغة الفصحى، أمّا الطور القصصي، فقد بدأ يتشكَّل مُنذ زمن ابن خلدون في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر ميلادي.

وبالرغم أن أغلب القصائِد الهلالية كانت منتحلة على ألسنة الرواة، إلا أن هُناك قِلّة قليلة ذكرها ابن خلدون، في إطار حديثه عن الشعر عند العرب المُستعجمة الذين عاصرهم، وأغلبهم من بني هلال، كتلك المقطوعات التي جاءت على لسان شكر الشريف بن هاشم يتحسَّر على فراق زوجته الجازية، وأُخرى يُعاتب بها الماضي بن مقرب، وهُناك قصيدة تهكم بخليفة الزناتي اليفرني على لسان ابنته سعدى، وكذلك قصيدة في ذكر رحلة الهلاليين إلى الغرب وغلبهم زناتة.

وفي التاريخ الحديث، وقبل اختراع المذياع والتلفاز، راجت السيرة الهلالية بشكل كبير في المقاهي والأعياد والسهرات الشعبية في مختلف الأحياء المصرية على يد المنشدين الذين كانوا يتنقلون بين المقاهي الشعبية لسرد بعض أجزاء السيرة الهلالية، مقابل أجر من قِبل صاحب المقهى من أجل جذب الزبائن، وكانت تُغنى القصائِد على آلة الربابة، حيث يأخذ المُنشد بمدح وتمجيد أبطال السيرة.

وكان جُل هؤلاء الرواة أُناس غير متعلمين، يبتدعون أشعاراً على ألسنة بعض «أبطال» السيرة، مثل «أبو زيد الهلالي» و «ذياب بن غانم»، و»حسن بن سرحان الهلالي»، وكانت هذه السير تُروى باللهجات العامية الدارجة. ونتيجة لعدم شاعرية هؤلاء القاصين، فقد جاءت العديد من هذه الأشعار مكسورة الوزن وليست مُتسقة،

وبالرغم من ذلك، فقد توارثت أجيال المُنشدين هذه القصائِد والقصص وزوّدوا عليها، فكان يأخذ المنشد عن أبيه وجده وجد أبيه أو عن عمه، مُعتمداً على الذاكرة والرواية الشفوية. وفي كُل فترة زمنية، كان المنشد أو الراوي يبتدع أشعاراً وقصصاً إضافية، وكثيراً ما يخونه الحفظ، فيتحكَّم في القصيدة ويطوّعها للوزن بنبرات صوته، ويتصرَّف في أوزانها. وكان المُنشد يجنح إلى التنويع في نبرات صوته رفعاً وخفضاً، بحيث تُلائم القصيدة مواقف الحماسة والأمر والنهي في القتال، وكذلك في الغزل والكيد، ويستخدم نبرات حزن وألم في حالات القتل والهزيمة، وكان البعض منهم يتحكَّم في اللهجات، فيرسل الراوي أو المنشد القول على لسان الزناتية بصورة تختلف عن صورتها عند الهلالية، ومن غرائب السيرة، أن الشعر كان أحياناً يُرسَل على ألسنة الأعاجم غير العرب.

وكثيراً ما كانت رواية السيرة الهلالية تتسبب في بعض التحزّبات من قِبل رواد المقاهي، بشكل مُشابه لما نشهده اليوم حول مشجعي فرق كرة القدم، فيندفع كل فريق إلى التعصُّب لأحد أبطال السيرة، فمثلاً يتحزَّب البعض لأبي زيد الهلالي، فيما يتحزَّب البعض الآخر لذياب بن غانم، ويبلغ ذلك حدّ الخصومة، ويأخذ المنشد في تغذية هذا النزاع، وكانت أحياناً تتحول المشادّة إلى عراك وشجار.

منشورات السيرة الهلالية

في أواخر القرن التاسع عشر، تنبَّهت دور النشر للرواية الشفوية للسيرة الهلالية نتيجة الإنجذاب الشعبي، فأخذت في تحويل أشعار الرواة إلى روايات قصصية مطبوعة، تزخر بالبطولات الأُسطورية للهلاليين قبل التغريبة وبعدها، وتورد بطولات مزعومة لبني هلال أثناء ترحالهم من الجزيرة العربية وصولاً إلى تونس والجزائر. وعندما وجدت دور النشر إقبالاً على شراء هذه القصص، طبعت آلاف النسخ مُختلقة روايات وبطولات وهمية جديدة، بعيدة كُل البعد عن الواقع التاريخي. فإلى جانب

قصص التغريبة الهلالية، صدرت هُناك مُجلدات حول ما يُسمى «السيرة الهلالية»، تروي قصص غرامية وبطولية لأُمراء من بني هلال يخوضون معارك بطولية ضارية من أجل الفوز بحبيباتهم.

فخلال عامي ١٨٨٠م و١٨٨٣م، ظهرت طبعة بيروت من قِبل الناشر إبراهيم ساور وتد، والتي جاءت تحت عنوان: «رحلة بني هلال إلى بلاد الغرب وحروبهم مع الزناتي خليفة، وما جرى لهم في تلك البلاد من الحوادث اللطيفة الطريفة والحروب الهائلة المخيفة». وفي عام ١٨٩٠م، ظهرت نسخة أُخرى في بيروت، نُشرت على نفقة شخص يُدعى خليل الخوري. وفي عام ١٨٩٢م-١٨٩٨م، ظهرت طبعات جديدة مكوّنة من عِدة أجزاء صغيرة، وروايات قصصية، مثل «قصة جابر وجبير أجداد بني هلال وهم أولاد عامر بن أوس بن تغلب على التمام والكمال على كل حال». كما ظهرت هُناك بعض الأسماء وصفت بأنها قامت بتأليف أجزاء من السيرة، كنجد ابن هشام، وحسن الخزرجي، وبعض الطبعات مجهولة التاريخ صدرت في القاهرة[1]. كما ظهر هُناك كتاب بعنوان «ديوان مصر»، يسرد قصص بعض أُمراء سيرة بني هلال، كذياب بن غانم الزغبي، وطمعه بالاستئثار بمصر، حسب ما جاء بهذا الكتاب.

المستشرقون ومحاولة تأريخ التغريبة الهلالية

احتفى الكثير من المستشرقين بالسيرة الهلالية بجانبيها الروائي الشعبي والتاريخي، وكان الكاتب الفرنسي، رينيه باسيه (M. Rene Basset) (١٨٥٥م-١٩٢٤م) أوَّل من تعرَّض لدراستها، حيث كتب فصلاً في عام ١٨٨٥م تحدّث فيه عن التغريبة الهلالية من الناحية التاريخية، مُرتكزاً على الأخبار التي أوردها ابن خلدون، وحاول بشكل خاص تأريخ قصة شكر الشريف زوج الجازية الهلالية من خلال الأحداث التاريخية بعيداً عن الأساطير القصصية. وفي عام ١٨٩٦م، نشر المستشرق الألماني

(١) طبعة القاهرة، فهرس الكتب العربية الموجودة بدار الكتب المصرية لآخر ديسمبر سنة ١٩٢٨م، ج٤، ص٤٣.

الشهير وليام بن آلورد (Wihelm Ahlwardt) (١٨٢٨م-١٩٠٩م) فهرسه الجامع للمخطوطات العربية بمكتبة برلين، متناولاً الأدب الشعبي، بما في ذلك التغريبة الهلالية والملاحم الشعرية. وفي عام ١٨٩٨م، نشر المستشرق الألماني مارتن هارتمان (Martin Hartmann) (١٨٥١م-١٩١٨م) بحثاً مُستفيضاً عن السيرة الهلالية، لا سيما القصص الشعبية المتعلِّقة بالبطولات والحب.

وفي عام ١٩٠٣م، أصدر المستشرق الفرنسي «الفرد بل Alfred Bel» (١٨٧٣م-١٩٤٥م) في باريس كتاباً بعنوان «الجازية» (Chanson Arabe: La Djazya) مُعتمداً في بحثه على القصص المروية على ألسنة المغاربة، وكذلك الأحداث التاريخية المستمدَّة عن ابن خلدون وابن الأثير. وأصدر الباحث الفرنسي فيكتور لارجو V. Largeau» (١٨٤٢م-١٨٩٧م) كتاباً حول مرويات قصصية من السيرة الهلالية، كما نشر «اليه جوان M. L. Guin»، قصص عن التغريبة الهلالية.

كما صدرت هُناك العديد من التراجم المتعلِّقة بالسيرة الهلالية، فقد نشر الكاتب المغربي «محمد بن رحال»، بحثاً نقله عن ألسنة العامة في بلاد المغرب حول حروب بني هلال مع الأمازيغ، وترجم هذا البحث إلى اللغة الفرنسية. كما ترجم المستشرق والشاعر الإنكليزي «ويلفريد بلنت W. Blunt» (١٨٤٠م-١٩٢٢م) الجزء المتّصل بقصة «أبي زيد وزوجته عالية»، وقد أثارت هذه القصة إعجاب الأكاديمي الأُسكتلندني الشهير «جون وليام مايكل J. W. Mackail» (١٨٥٩م-١٩٤٥م) من منبر جامعة اكسفورد. وقد أحدثت السيرة الهلالية تأثيراً في الآداب الغربية نتيجةً لكتب وتراجم المستشرقين حول السيرة أو بعض جوانبها، فقد ترجم المستشرق الإنكليزي «ادوارد ويليام لين Edward W. Lane» (١٨٠١م-١٨٧٦م)، والذي أقام زمناً طويلاً في القاهرة، شعراً على قالب أشعار السيرة الهلالية.

أبطال التغريبة الهلالية

ذكرت القصة الشعبية للتغريبة الهلالية أسماء أشخاص وقادة إمّا كانوا موجودين تاريخياً ولكنهم ليسوا بذلك التأثير، وإما قادة مختلقة أسمهائهم، وليس لهم وجود أساساً. فقد احتفت السيرة بشكل مُذهل ببطولات أربعة من قادة الهلاليين عند دخولهم تونس، هُم: حسن بن سرحان بن دريد بن الأثبج، سلامة بن رزق بن كبير بن كرفة بن الأثبج، المُلقَّب بأبي زيد الهلالي، وذياب بن غانم بن مرداس بن زغبة، وأضافت لهم القاضي بدير بن فايد، ولكنها لم تتعرَّض لذكر أُمراء آخرين لا يقلون شهرة عن هؤلاء إن لم يكونوا أكثر شهرة منهم، مثل مؤنس بن يحي الرياحي، والذي كان يُعد تاريخياً أحد أهم زعماء الهلاليين قاطبةً عند اجتياحهم إفريقية، والمشهود له في حرب صنهاجة.

وأورد ابن خلدون أسماء بعض الأُمراء الهلاليين في زمن التغريبة، مثل حسن بن سرحان، الذي ترأس بطن دريد من الأثبج من ضمن زعماء وقادة آخرين، وقد استقى ابن خلدون هذه الأسماء من أعقاب الهلاليين أنفسهم الذين عاصرهم في القرن الرابع عشر الميلادي، حيث أورد حقيقة وجود هؤلاء القادة، من خلال النص التالي في مقدمته: «..... وكان لهؤلاء العرب لعهد دخولهم إفريقية رجالات مذكورون، وكان من أشرفهم حسن بن سرحان وأخوه بدر، وفضل بن ناهض وينسبون هؤلاء في دريد من الأثبج، وماضي بن مقرب مثنوية بن قرة، سلامة بن رزق في بنى كثير من بطون كرفة بن الأثبج، وشاقة بن الأحيمر وأخوه صلصيل ونسبهم في عطية بن كرفة، وذياب بن غانم وينسبونه في بني ثور، ومؤنس بن يحيى وينسبونه في مرداس رياح، لا مرداس سليم، وزيد بن زيدان وينسبونه في الضحاك، ومليحان ابن عباس وينسبونه في حمير، وزيد العجاج بن فاضل، ويزعمون أنه مات بالحجاز قبل دخولهم إلى إفريقية، وفارس بن أبي الغيث، وعامر أخوه، والفضل بن أبي علي ونسبهم في مرداس»[1].

(١) ابن خلدون. ج٦، ص ١٦، طبعة بولاق ١٢٨٤.

وبالرغم من تأكيد ابن خلدون على الحقيقة التاريخية لأسماء قادة التغريبة الهلالية، إلا أن بعض المستشرقين، مثل المستشرق الفرنسي الفرد بل (Alfred Bel) زعم في كتابه «الجازية» أن هذه الأسماء لم تكن للأُمراء أصحاب الصدارة في قبائِلهم، وإنما لرجالات في المرتبة الثانية من المُجتمع القبلي[١]. كما أن إحتفاء السيرة الشعبية ببطولات القادة الهلاليين مغاير للحقيقة التاريخية، فلم يورد ابن خلدون بطولات يُشاد بها لهم، فقد وصف جُل الهلاليين والقبائِل المتحالفة معهم بأوصاف مروّعة من قتل وفتك بالآمنين وحرق المدن وسرقتها، وأنهم أناس لا عهد لهم، يحرِّكهم المال، ولا يتورعون في التحالف مع أي طرف كان، فقد تحالفوا مع بعض الأُمراء الأمازيغ لمُحاربة إمارات أمازيغية أُخرى أو ضد بعض بطونهم في سبيل مُغريات المال.

وقد خلطت الرواية الشعبية بين أسماء القادة الهلاليين الموثَّقين تاريخياً وأسماء أُخرى مُبتدعة أو مُحرَّفة. فقد جاء على ألسنة الرواة بعض الأسماء التاريخية وألحقوها في التغريبة الهلالية من خلال حروب وقعت بينهم وبين الهلاليين، فعلى سبيل المثال، أوردت السيرة خبر عن دبيس بن مزيد[٢]، أمير الحلة المزيدية، كما أشركت في الحلف الهلالي قوماً ليسوا من بني هلال، مثل ما سمي «بأمير العراق»، عامر الخفاجي، كما تصفه السيرة، وليس هُناك حقائق تاريخية تدعم هذا الزعم.

كما ابتدع الرواة بعض الأسماء المُختلقة التي لم يكن لها وجود في التاريخ، وضعت للتشويق وإبراز البطولات والمعارك، ولا يتّسع المجال هُنا لذكر جُلّ ما ورد في السيرة الشعبية، وإنما نُشير هُنا لبعض الأمثلة، فقد ورد في السيرة الشعبية اسم أمير يهودي كان يحكم حلب، يُدعى «برجيس» أو «برديس»، وقعت بينه وبين الهلاليين حروب، على حدّ زعم الرواية الشعبية، وكذلك بعض الأسماء الوهمية، مثل الفرمند في مصر، الغطريف، الهصهيص، وبني زحلان.

---

(١) الفرد بل، الجازية (Le Djazya)، ص ٣٥.

(٢) دبيس بن مزيد (أو الدبيسي بن مزيد)، هو أشهر أمراء بني مزيد، وكان يُلقَّب بملك العرب، وذكره الحريري في مقاماته التاسعة والثلاثين، ولقي مصرعه في أوائل القرن السادس الهجري، عام ٥٢٩هـ، بعد أن استولى على عِدّة مُدن عراقية في زمن الخليفة المسترشد العباسي.

كما ذكرت الرواية الشعبية حروب الهلاليين مع «شبيب التبع» في الأردن، بالرغم من عدم وجود تاريخ متأصل لشخصية شبيب هذا، سوى اسم قصر أثري في شرقي الأردن. كما اختلق الرواة اسم «النعمان» كأحد ملوك العجم وصاحب قبرص، على الرغم أن قبرص جزيرة بعيدة عن المسار الطبيعي للتغريبة الهلالية، وهذا يُدلل على أن أغلب الرواة كانوا من الأُميين، وليس لديهم قدر من المعرفة في الجغرافيا، وإنما كانوا يبتدعون أسماء حسب أهوائهم. ففي مواقع أُخرى يقول الرواة أن الهلاليين بدأوا تغريبتهم بالتوجّه من نجد إلى اليمن، وهذا مسار مُعاكِس للترحال الطبيعي، الذي كان ينبغي أن يكون لبلاد الشام، ومن ثم مصر، فشمال إفريقيا. كما ابتدع الرواة في قصائِدهم عن التغريبة الهلالية بعض المُصطلحات التي ليس لها أي معنى حتى في اللهجات العاميّة الدارجة.

وكانت تأخذ السيرة بعض أسماء أعلام التغريبة الهلالية التي لها وجود في التاريخ، وتحوّرها إلى أسماء وشخصيات أُخرى، فقد جعلت من اسم أحد زعماء الهلاليين، وهو مؤنس بن يحيى الرياحي، اسمين «يحيى» و «يونس»، وأتبعتهم كأبناء لحسن بن سرحان الدريدي.

وقد ذكرت السيرة الديوان الخاص بالأمير علي أبي الهيجات الذي يعتمد على الرواية النثرية وحدها، وألحقت بالملقب «علي أبا الهيجات» بالهلاليين، ولكنها ألبسته الشعار الذي يُفرِّق بين المغاربة والعرب، فكسته البُرنس، وحالت بينه وبين شال العمامة ليبدو أمازيغياً مغربياً.

كما ذكرت السيرة بعض أسماء المناطق في مختلف مناطق شمال إفريقيا، وتعدتها حتى الأندلس. ففي ليبيا، ذكرت طبرق وبرتيجة أو برتيفة (بني غازي) وسرت، وفي تونس ذكرت القيروان وقابس، وفي الجزائر ذكرت القلعة، وفي المغرب مكناس وغيرها.

وبالرغم من اعتماد السيرة الشعبية على كثير من الأحداث التاريخية للهلاليين، فمن العجيب أنها سكتت تماماً عن علاقة بني هلال بالقرامطة وبالفاطميين العبيديين، بالرغم من ولادة التغربية الهلالية من رحم الخلافة الفاطمية- التي دفعت بالهلاليين لاجتياح تونس والجزائر بعد أن نزع المعز بن باديس الصنهاجي البيعة من الفاطميين وأعلن تبعيته للخلافة العباسية في بغداد، كما فصّلنا ذلك في الفصل السادس من الكتاب.

أبو سعدى خليفة الزناتي في الرواية الشعبية

احتفت الرواية الشعبية بإسهاب في ذكر خليفة الزناتي، أو كما أطلق عليه بعض الرواة الشعبيين «خليفة الزناتي بن مذكور» أو «أبو سعدى الزناتي»، كشخصية محورية للحروب التي دارت بينه وبين الهلاليين بعد اجتياح تونس، فجعلته من الخوارق، يضرب الرمل ويقرأ الغيب، ولا يمكن قهره أو التغلُّب عليه. وتزعم الرواية الشعبية بأن خليفة الزناتي كان حاكماً لتونس زمن الاجتياح الهلالي، وفتك بالهلاليين أول الأمر، وأعمل السيف فيهم، إلا أنه قُتل في نهاية المطاف على يد ذياب بن غانم الزغبي بتآمر من ابنته سعدى، على حدّ زعم الرواة الشعبيين.

وهذا التوصيف لشخصية خليفة الزناتي منافٍ للحقيقة التاريخية، وهذا يعود بسبب جهل الرواة الشعبيين الذين هُم من العوام، وليس لديهم إطّلاع على الحقائق التاريخية، فقد خلط الرواة بشكل واضح بين خليفة الزناتي، والمُعز بن باديس الصنهاجي، الذي ورد ذكره مرات عِدّة في هذا الكتاب، فكان المعز بن باديس الحاكم على المناطق التي تقع اليوم ضمن الأراضي التونسية عند الاجتياح الهلالي، وليس خليفة الزناتي. ويبدو هذا الخلط جلياً بين هاتين الشخصيتين التاريخيتن في الرواية الشعبية، التي جعلت من خليفة الزناتي حِميرياً يمانياً، في حين أن قبائِل زناتة برمتها هي قبائِل أمازيغية لم تدّعِ يوماً أنها عربية الأصل، وفي المُقابِل، نجد أن المعز بن باديس والأُمراء الصنهاجيين

الآخرين في تونس والجزائر هم من ادّعوا تاريخياً أن أُصولهم تعود لقبائِل حِمير اليمانية، كما وضّحنا ذلك في الفصل الثالث.

وكما ذكرنا في الفصل السادس من الكتاب، فإن المعز بن باديس هو من تصدّى للغزو الهلالي عند إجتياحهم إفريقية، ودخل معهم في حروب ضارية، كمعركة حيدران في شهر نيسان عام ١٠٥٢م/ ٤٤٣هـ، ومعركة القيروان سنة ١٠٥٧م/ ٤٤٩هـ بعد أن فرض الهلاليون حصاراً خانقاً على القيروان.

أمَا خليفة الزناتي، فلم يكن حاكماً لتونس أو القيروان كما تدّعي الرواية الشعبية، وإنما كان وزيراً وقائِداً لإمارة بني خزر المغراويين الزناتيين في تلمسان، التي تقع اليوم في شمال غرب الجزائر. وينتسب خليفة الزناتي إلى فرع بني يفرن الزناتيين، وليس المغراويين، إلا أنه قاد حرباً شرسة ضد الهلاليين دفاعاً عن تلمسان انتهت بمقتله في نواحي الزاب، في المنطقة الشمالية الشرقية من الصحراء الجزائرية، كما شرحنا ذلك بالتفصيل في السابع.

العصبية القيسية-اليمانية في الرواية الشعبية

استخدمت الرواية الشعبية العصبية القيسية–اليمانية لتغذية الحروب والبطولات في سرد السيرة الهلالية، فمثلاً جعلت من السلطان حسن بن سرحان الدريدي وأبي زيد قيسيين، فيما جعلت من ذياب بن غانم الزغبي حِميرياً يمانياً، في حين أن بني زغبة هم أيضاً قيسيون. وكان الغرض من هذا التوظيف هو لتفسير الصراع الذي دبّ بين البطون الهلالية بعد التغريبة، على إعتبار أنه امتداد للصراع القيسي – اليماني الذي كان شائعاً في بلاد المغرب والأندلس في تلك الفترة، كما جعلت أيضاً من الزناتي خليفة حميرياً يمانياً، بالرغم أن جُلّ زناتة هم أمازيغ، كما ذكرنا سابقاً، وذلك للغرض نفسه.

هُناك دور مُميّز للمرأة في الرواية الشعبية الهلالية، فكثيراً ما كانت المرأة سبباً في الحروب والنزاعات، كقيام الفرسان بخوض الحروب لتخليص عشيقاتهم من الأسر، وكان الرواة يبتدعون هذه الأساطير بغرض التشويق والإثارة.

وقد أوردت السيرة الشعبية شخصيات نسائية محورية، بدأت بقصّة شما وسرحان والدي السلطان حسن، وقصة خضرة الشريفة، أم أبي زيد الهلالي، ومعاناتها بعد اتهامها بشرفها ولجوئها لقبيلة الزحلان. ومن بين الشخصيات النسائية المحورية والأكثر إثارة في الرواية الشعبية، هي شخصية «نور بارق» أو الجازية الهلالية، التي آثرت حبّ الجماعة على الحبّ الخاص بعد أن تركت زوجها شكر الشريف على الرغم من حبها له، ورحلت مع الهلاليين، وفي المُقابِل تصف السيرة امرأة أُخرى، هي سعدى بنت خليفة الزناتي، لكنها آثرت عشقها الخاص على حبّ الجماعة، وأوقعت بأبيها في سبيل عشقها لمرعي بن السلطان حسن بن سرحان، على حدّ زعم الرواية الشعبية.

وأسهبت الرواية الشعبية في قصص الغراميات عند الهلاليين، كحبّ الخفاجي عامِر لوطفى ابنة ذياب بن غانم، وترك دياره في العراق لمرافقة الهلاليين في سبيل حبّه، لتنتهي قصته بشكل مأساوي بعد مقتلة على يد خليفة الزناتي. وأوردت الرواية قصة عليا زوجة أبي زيد الهلالي، وهولا بنت سرحان، زوجة راجح الزغبي، وفجعها بقتل ولديها على يد الزناتي، وهُناك الكثير من القصص التي جعلت من المرأة شخصية أساسية في الرواية الشعبية الهلالية. وبالرغم من صحة بعض هذه الأسماء النسوية تاريخياً، كالجازية وسعدى الزناتي، إلا أن أغلبها روايات أسطورية مُبتدعة.

وبالرغم من إقحام الكثير من الأساطير في التغريبة الهلالية، إلا أن هذه السيرة حافظت على كينونتها مُنذ أكثر من ألف عام، وما زالت حاضرة في وجدان المُجتمعات العربية، لا سيما المناطق الريفية، إذ انبثق عن تكرار سرد الروايات الهلالية مأثورات

وأمثلة شعبية أصبحت دارجة في المجتمعات العربية، فالرجل القوي يتشبّه بأحد أبطال السيرة، مثل أبي زيد الهلالي، وفي المغرب يقولون لكل نافذ الصبر «هل أنت زغبي!»، وذلك نسبة لقبيلة زغبة الهلالية، وأميرها ذياب بن غانم، الذي عُرف عنه بالسيرة بأنه أحد أبرز أبطالها، لكنه تميَّز بالأنانية والظلم والتمرُّد. وفي بلاد الشام توصف الابنة المتمرّدة على والدها، كسعدى الزناتي، نسبة إلى سعدى بنت خليفة الزناتي، التي وصفتها بعض قصص السيرة بأنها خانت والدها ومكَّنت أعداءه الهلاليين منه في سبيل عشقها لأحد الأُمراء الهلاليين، حسب زعم السيرة، بالرغم أن هُناك روايات شعبية أُخرى مناقضة، صوّرت سعدى بأنها كانت مُخلصة لأبيها.

وهكذا، فالرواية الشعبية للتغريبة الهلالية تبقى ذات أهمية كملحمة روائية انتشرت في كافة أصقاع البلاد العربية من المشرق إلى المغرب، عابرة للحدود والثقافات، وامتازت السيرة الشعبية في بناء أحداثها على شخصيات تاريخية بعضها حقيقي، فقد أخذت هيكل الأحداث التاريخية للتغريبة الهلالية، ونسجت عليها قصصاً وأساطير خيالية، وهذا لا يُقلل من أهميتها كرواية قصصية.

وبذلك، كان الغرض من هذا الكتاب هو الفصل بين الرواية الشعبية والأحداث التاريخية الحقيقية التي وردت على ألسنة جهابذة الفلاسفة والمؤرخين العرب، الذي عاصروا بعض هذه الأحداث، ولكن في أزمان تاريخية مُتأخرة.

قائمة مُختارة من المراجع

- إبراهيم، إبراهيم إسحق، هجرات الهلاليين من جزيرة العرب إلى إفريقيا وبلاد السودان (الطبعة الثانية)، هيئة الخرطوم للصحافة والنشر، السودان، ٢٠١٣م.
- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، القاهرة، مصر، ١٣٥٧هـ.
- ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار المغرب، بيروت، ١٩٥٠م.
- بن فهد، عمر بن محمد، اتحاف الورى بأخبار أم القُرى (تحقيق فهيم محمد شلتوت)، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٣هـ.
- البلادي، عاتق بن غيث، الإشراف على تاريخ الأشراف، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٢م.
- جعيّط، هشام. تأسيس الغرب الإسلامي – القرن الأول والثاني هجري/ التاسع والثامن ميلادي (الطبعة الأولى)، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ٢٠٠٤م.
- جعيّط، هشام، تأسيس الغرب الإسلامي – القرن الأول والثاني هجري/ التاسع والثامن ميلادي (الطبعة الثانية)، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ٢٠٠٨م.
- سعدي، عثمان، الجزائر في التاريخ (الطبعة الأولى)، دار الأصالة المعاصرة للنشر والتوزيع، طرابلس، ليبيا، ٢٠١١م.
- سعيدوني، د. ناصر الدين. موسوعة الشيخ أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي (الطبعة الأولى)، القول الأوسط في تاريخ من حل بالمغرب الأوسط، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٩١م.
- السلماني، لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام، التحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٥٦م.

- السيد، أحمد لطفي، قبائِل العرب في مصر والسودان (الطبعة الأولى)، الدار الوطنية الجديدة، دمشق، سوريا، ٢٠٠٩م.
- الصنهاجي، المعز بن باديس التميمي، عمدة الكتاب وعدّة ذوي الالباب في صفة الخط والأقلام والمواد والليق والجرد والأصباغ وآلة التجليد (مخطوطة)- مجلد ١، كُتبت هذه المخطوطة عام ٤٥٤هـ، تحقيق نجيب مايل الهروي وعصام مكية، مجمع البحوث الإسلامية، إيران، ١٤٠٩هـ.
- عبد الملك، بن فريحة، القبائِل العربية ومكانتها في الدولة الزيانية (بحث لنيل درجة الماجستير)، جامعة وهران - أحمد بن بله، الجزائر، ٢٠١٤-٢٠١٥م.
- فركوس، د. صالح، تاريخ الجزائر ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال - المراحل الكبرى، دار العلوم للنشر والتوزيع، عنابة، الجزائر، ٢٠٠٥م.
- مختار، د. حساني، تاريخ الجزائر الأوسط (الجزء الأول)، وزارة الثقافة، دار الهدى، الجزائر، ٢٠١٣م.
- مختار، د. حساني، تاريخ الجزائر الأوسط (الجزء الثاني)، وزارة الثقافة، دار الهدى، الجزائر، ٢٠١٣م.
- المدني، أحمد توفيق، هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، (سنة النشر غير محددة).
- مركز جمال بن حويرب، تغريبة بني هلال بين الحقيقة والخيال، جريدة الخليج بتاريخ ٥ نيسان ٢٠١٨م، الإمارات العربية المتحدة.
- الميلي، مبارك محمد، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٦م.
- ولد الرباني، د. عبد الرحمن، الجدل حول أصول قبائِل صنهاجه، الشام الإخباري، ولاية لبراكنة، موريتانيا، ٢٠١٥م.

- ولد السالم، الدكتور حماه الله (تحرير وتعليق)، تاريخ الأمازيغ والهجرة الهلالية- مقتطفات من كتاب العبر لابن خلدون مع دراسة قبائِل البافور الغامضة (الجزئي، الأول والثاني)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٢م.
- يونس، د. عبد الحميد، الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي (الطبعة الثانية)، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٥م.

المؤلف في سطور

الدكتور حسين أحمد الحسين الغزو

خبير ومحلل قتصادي أول

- من مواليد بلدة الوهادنة في محافظة عجلون، المملكة الأردنية الهاشمية.
- حاصلة على الدرجة الدكتوراة في الاقتصاد عام ١٩٩٩م.
- عمل في العديد من المجالات المتعلقة بالاقتصاد والتجارة.
- قام بالتدريس في مختلف الجامعات.
- نشر العديد من الدراسات والمقالات في مختلف الصحف والمجلات العلمية.
- نشر العديد من الكتب في مجالات اقتصادية وثقافية مختلفة.

لمحة عن عناوين الكتب المنشورة:

- عجلون التطور التاريخي والأدبي والواقع الإقتصادي، وزارة الثقافة، المملكة الأردنية الهاشمية، ٢٠١٣م.
- الاقتصاد الدولي الحديث بين الجدلية النظرية والتطبيق، عالم الكتب الحديث للنشروالتوزيع ، إربد، الأردن، ٢٠١٦م.
- النظرية الاقتصادية الكلية - الفكر والسياسات، عالم الكتب الحديث للنشروالتوزيع، إربد، الأردن، ٢٠١٧م.
- النظرية الاقتصادية الجزئية، عالم الكتب الحديث للنشروالتوزيع، إربد، الأردن، ٢٠١٩م.
- اقتصاد التغيُّر المناخي- السياسات والتحديات، عالم الكتب الحديث للنشروالتوزيع، إربد، الأردن،٢٠٢٠م.

التغريبة الهلالية

بين الواقع التاريخي والأسطورة

خمس سلاسل للنشر، متطورة وعصرية، تطلقها وزارة الثقافة الأردنية، تسد النقص في المكتبة المحلية والعربية، منشورات مهمة في حقول معرفية مختلفة، فجاءت سلسلة فكر ومعرفة التي تسعى إلى خلق الوعي والإدراك وتنمية التفكير وفهم الحقائق وسياقات التاريخ والحياة، وتفسير النتائج والتجربة الإنسانية، وخلق التأمل الفلسفي ضمن آليات المنطق والتحليل العلمي. وسلسلة الفلسفة للشباب بهدف تشجيع الأجيال الجديدة للإفادة من مناهج الفلسفة في فهم العالم المعاصر، وتوعية الرأي العام بأهمية الفلسفة، واستخدامها نقديا لمعالجة طروحات العولمة وعصر الحداثة. وسلسلة الكتاب الأول التي تُعنى بنشر الكتاب الأول للمؤلفين؛ كباكورة لأعمالهم المستقبلية، مع مراعاة الإبداعية والشروط الكتابية الناضجة. وسلسلة سرد وشعر التي تُعنى بالكتابات الشعرية والسردية المهمة، المغايرة والمختلفة في الطرح والشكل، ذات الجودة والمكانة في تحقيق إضافة نوعية للمكتبة المحلية والعربية. وسلسلة شغف، تختص بالمخطوطات الموجهة للطفل، شعراً ونثراً، تراعي حاجات الطفل الفكرية والنفسية والوجدانية، وتحقق شروطها الفنية والجمالية والإبداعية.




9 789957 949310

هاتف: 5696218 962 + فاكس: 5691640 962 + ص.ب: 6140 عمّان - الاردن
E-mail:info@culture.gov.jo website:www.culture.gov.jo

الكتاب متوفر على منصة الكتبا الالكترونية
https://alkutba.gov.jo